جيل لوكليرك

من موكادور إلى بسكرة

رحلات داخل المغرب والجزائر



ترجمة: بوشعيب الساوري

مراجعة: الطاهر لكنيزي

منشورات الجمل

جيل لوكليرك

من موكادور إلى بسكرة

رحلات داخل المغرب والجزائر

ترجمة: بوشعيب الساوري

مراجعة: الطاهر لكنيزي

منشورات الجمل

جيل لوكليرك: من موكادور إلى بسكرة، رحلات داخل المغرب والجزائر
ترجمة: بوشعيب الساوري، مراجعة: الطاهر لكنيزي
الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Jules leclercq: De Mogador ã Biskra, Maroc et Algérie, Paris, 1881

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تقديم

كان الرحالة والجغرافي البلجيكي **جيل لوكليرك** (١٨٤٨ ـ ١٩٢٨م) ممثلا للجمعية الجغرافية الملكية البلجيكية، وهو ما خوّل له القيام بعدة رحلات، بأوربا وخارجها، دوّنها بنباهة وخبرة(١). ورحلة **من موكادور**

---

(١) منها يمكن أن نذكر:

- A travers l'Afrique australe 1 vol. (p.312) Edition: Paris: E. Plon, Nourrit et Cie, 1895

- Au pays de Paul et Virginie,: p.306E?dition: Paris: E. Plon, Nourrit, 1895

Aux chutes du Zambèze, du Cap au Katanga,: 1 vol. (p.238 -[8] f. de pl.) Edition: Paris: Roger, DL 1926.

- Chez les Jaunes Japon, Chine, Mandchourie 1 vol. (p.299) Edition: Paris: Plon-Nourrit et Cie, 1910.

- Du Caucase aux monts Alaï: Transcaspie, Boukharie, Ferganah, ,...: In-18, p.267 et carte Edition: Paris: E. Plon, Nourrit et Cie, 1890.

- Un été en Amérique, de l'Atlantique aux Montagnes-Rocheuses Deuxième édition: 1 vol. (p.415) Edition: Paris: E. Plon, 1886.

- Promenades dans les Pyrénées 7e éd.: 1 vol. (p.240 -[1] f. de front.) Edition: Tours: A. Mame et fils, 1888.

- La terre des merveilles promenade au parc national de l'Amérique du Nord: 1 vol. (p.384) Edition: Paris: Hachette, 1886.

- Voyage aux ?les Fortunées, le pic de Ténériffe et les Canaries, par Jules Leclercq: In-18, p.237 Edition: Paris: E. Plon, 1880.

- Voyages dans le Nord de l'Europe un tour en Norvège, une promenade dans la Mer Glaciale (1871-1873)4e éd.: 1 vol. (p.352) Edition: Tours: A. Mame et fils, 1882.

إلى بسكرة[1] التي نقدّمها اليوم واحدة منها. ويستثمر فيها جيل لوكليرك هذا الفائض الرحلي في إطار أسلوب مقارن، مستعيداً أغلب رحلاته عبر مختلف أنحاء العالم، بصفة مباشرة أو بالإيحاء. وهو ما يجعل نصه رحلات في رحلة واحدة، تقودنا إلى عدة أماكن انطلاقاً من المكان الواحد، إذ تستدعي الرؤية رؤى سابقة. وقد كان لهذه الرحلات حضور قوي في العمل الذي ترجمناه مشكلة معينا يحتكم إليه لرصد الاختلاف والتميز من خلال مقارناته للمعالم الطبيعية والخصوصيات الثقافية للمناطق التي عبرها، في المغرب والجزائر.

ويتكون كتاب **من موكادور إلى بسكرة** لجواب الآفاق هذا من ثلاث رحلات:

ـ **رحلة أولى** إلى طنجة وتمت عامين قبل رحلته الثانية أي سنة ١٨٧٨م، وقد استغرقت حوالي عشرة أيام؛

ـ **رحلة ثانية** كان منطلقها مدينة موكادور (الصويرة) جاء قادماً إليها من **جزيرة تنريفي الإسبانية**، وقضى بها أياما، وتمت خلال شهر رمضان الموافق لشهر غشت من سنة ١٨٨٠م، وبعدها عبر الساحل الأطلسي مروراً بأسفي ومازكان (الجديدة) والدار البيضاء ليتوقف بمدينتي الرباط وسلا وأنهاها بطنجة. وكان ينوي زيارة مُدن الداخل المغربي كمراكش وفاس، لكن الأوبئة التي اجتاحت المغرب حينها أقبرت رغبته؛

ـ **الرحلة الثالثة** خصّها للجزائر، وجاءت مباشرة بعدة رحلته الثانية للمغرب، بعْد رمضان (في شوال تحديدا) الموافق لشهر شتنبر من سنة

---

(١) **De Mogador à Biskra: Maroc & Algérie,** Date de l'édition original, Ed. CHallamel Ainé, Paris, 1881.

١٨٨٠م انطلق فيها من تلمسان مرورا بوهران والجزائر المدينة والقبايل وسطيف وقسنطينة وباتنة وانتهى إلى بسكرة وسيدي عقبة، وكان يرغب في الذهاب إلى مدينة تقّرت لكن حمى أصابته عجلت بعودته إلى وطنه.

تتميز الرحلتان الثانية والثالثة بسمة مشتركة وهي أن مشروعيهما الأولين لم يكتملا، إذ يؤكد أنه كان ينوي مواصلة الرحلة إلى أماكن أخرى لكن انتشار الأوبئة، وبشكل خاص الحمى، كان يحول دون ذلك في المغرب والجزائر. وذلك يعكس الرغبة المشتعلة لدى جيل لوكليرك في رحلة متواصلة تجوب الآفاق، لكن كانت تصدّها عوامل طبيعية قاهرة، فالجسد لا يطاوع النفس ذات الرغبات اللامحدودة. ويقول في نهاية الكتاب متحسرا على عدم زيارته لبعض المدن ومستسلما لمشيئة القدر: *«مراكش وفاس وتقرت انفلتن مني ثلاث مرات. إنه «أمر مكتوب» على حد تعبير مسلم»*.

ولعل اللافت في هذه الرحلات هو تباين خطابه في نظرته إلى كل من المغرب والجزائر، يصل أحيانا إلى حد التناقض؛

فجيل لوكليرك ينظر إلى المغرب كبلد متخلّف على جميع الأصعدة (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وبلد رافض للإصلاح الذي لن يتم إلا على يد قوة استعمارية أوربية، كما حدث في جارته الجزائر، وذلك انسجاماً مع الخطاب الاستعماري الذي يبدو أنه شكل خلفية إيديولوجية موجّهة لنظرة جيل لوكليرك أبعدته عن الحياد والموضوعية.

أمّا الجزائر فقد نظر إليها كبلد خاضع للاستعمار، ولم ينتقد ساكنتها وإنما وجه نقده إلى صنيع المستعمر بالعديد من مدنها، وبشكل أخص في مدينة تلمسان التي شوهت تهيئة المستعمر بعض معالمها الأثرية الإسلامية.

بل نجد تحاملاً واضحاً من الرحالة على المغرب والمغاربة وجعلهم موضع سخرية ونقد حادين في كثير من المواقف تخص معتقداتهم وعباداتهم وسلوكاتهم وعداالتهم. ويمكن أن نرجع ذلك التحامل إلى صعوبة خضوع المغرب وتمنعه على القوى الأوربية. وهو ما صار مشكلة مؤرقة للأوربيين، ساسة وعسكريين ودبلوماسيين وعلماء ورحالة ومستكشفين. ذلك في مقابل إظهار نزعته الإنسانية تُجاه الجزائريين الخاضعين للهيمنة الفرنسية آنذاك كاستنكاره لسوء معاملة الجنود للسكان. يقول: «*حين دعا سائقنا الجنود ليشقّوا لنا طريقاً، وأن يضربوا الجمال بالعصي لإجبارها على أن تفسح لنا الطريق؛ لكن السائق لم يأمرهم بضرب البهائم وإنما بضرب العرب: حينها نزلت ضربات العصا، على الرغم من احتجاجاتنا القوية، على أكتاف العرب المساكين الذين لم يتجرؤوا ولو على الاشتكاء. أغاظني كثيراً هذا المشهد فلم أستطع منع نفسي من توبيخ ذلك السائق العنيف الذي كان يستحق هو نفسه أن يُضرب بالعصا. تلك هي الطريقة التي يُعامل بها في الجزائر السكان المقهورون. فكيف نستغرب كراهيتم للمحتلين*».

وما دامت الرحلة لقاء بين الأنا والآخر فإن رحلة لوكليرك تنطبع بسوء الفهم بين الذات الأوربية والآخر العربي، وبشكل خاص في المغرب، ويمكن أن نرجع سوء الفهم المتبادل إلى عدة أسباب:

- التمركز العقدي الديني في النظر إلى الآخر، وما يولده من تعصب، يقود إلى تبخيس ما يوجد لدى الآخر، فكل ما لا يتوافق مع منطلقات الرحالة باعث على التصادم وأحيانا يقود إلى السخرية من الآخر ورفضه؛ كما حدث للكاتب أثناء زيارته لمدينة سلا وما تعرض له من شتائم ومهاجمة بالأحجار. يقول: «*لم نجتز بعْدُ أسوار المدينة حتى تُوبعنا فعلا برعاع وقحين ورُمينا بكل أصناف الشتائم واللعنات كان*

هدفها إسماعنا أن سلا للسلويين. كان الأطفال، أغلبهم عراة، يريدون اعتراض الطريق، كانت الحجارة تتطاير فوق رؤوسنا: لكن كانت النساء هن اللواتي بدين أكثر عناداً وكن يتابعننا بحفل من الصراخ المتوحش. عجائز مخيفات كن يطلقن الكلمات الوقحة حتى كدن يلمسننا بأطراف أصابعهن وكن تظهرن كراهيتهن بالبصق في أيديهن لغسلها. لم يسبق لي أن رأيت أبشع من أولئك العجائز الشريرات. أما الرجال فكانوا يستترون بكرامتهم الإسلامية، وكانوا يبدون أنهم لم ينتبهوا إلى حضور المسيحيين الملعونين».

ـ الانطلاق من الأحكام المسبقة والصور النمطية الجاهزة في النظر للآخر، دون مراعاة الوقائع والأفعال، كاعتبار المغربي سارقاً بالفطرة. وهو ما يمكن التعبير عنه بالتوتر بين الذهني والمرئي، وبين المألوف والمرئي الذي يبعث على الاستغراب أو السخرية، والتوتر بين المرئي والمروي الذي يروم التهويل، تمشياً مع النزعة التغريبية التي ميزت جل الرحلات الأوربية إلى المغرب، باستحضار المحكيات المتعلقة بالماضي في الأندلس والقرصنة البحرية التي كانت بمثابة مثيرات تؤجج التوتر وتساهم في سوء الفهم.

ـ التوتر بين ما يوجد هناك ويوجد هنا على مستوى العادات والمواقف والقيم والمعتقدات. يقول لوكليرك: «*حين نرى عن قُرب هذه العادات المتعارضة مع عاداتنا، سنفهم سبب تمرد المغاربة على حضارتنا. كم من مرة صُدمت بالمسافة الفاصلة بين المسلم والأوربي في طريقة العيش، والأعراف، وقواعد اللياقة وأدنى الأفعال! يُمكن لصيني أن يتكيّف بسهولة مع عاداتنا أفضل من مقيم بموريتانيا. يبدو أن المغربي والأوربي متضادان*».

- التوتر بين الدعوة الأوربية لإصلاح المغرب ورفض الحكام المغاربة لها يقول: «*حين يجد طاغية المغرب ضالته في الرغبة المماثلة لجيرانه فإنه يعارض كل إصلاح وكل تجديد، لأنه مقتنع أن دخول حضارتنا سيقود إلى خراب مملكته، القائمة على نظام سياسي وديني متمثل في نفي الحضارة*». انسجاماً مع المركزية الأوربية التي ترى أن المغرب لن يتقدم إلا بعد خضوعه لبعض القوى الأوربية.

وعلى الرغم من تحامل جيل لوكليرك على المغرب والمغاربة، في ارتباط بمقتضيات ثقافية وسياسية استعمارية، فإن كتابه **من موكادور إلى بسكرة** يُعد وثيقة غنية بالمعلومات التاريخية والثقافية، تسلّط الضوء على الكثير من الظواهر الثقافية، سواء في المغرب أو الجزائر، تخص العادات والتقاليد وتشمل الأطعمة والألبسة والاحتفالات والعدالة وغيرها من الظواهر التي لفتت انتباه الرحالة وأثارت دهشته.

وفي نهاية هذا التقديم لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود وأخص بالذكر الصديق **الطاهر لكنيزي** الذي قوم اعوجاج هذه الترجمة بمراجعتها، وكذلك الصديق الباحث **مبارك لغروسي** على حوارتنا التي يعد هذا العمل واحداً من تمراتها، دون أن أنسى الأستاذين **عيسى بخيتي** و**عبد القادر بوناب** من الجزائر الشقيقة اللذين ساعداني في ضبط بعض أسماء الأماكن والقرى الجزائرية.

بوشعيب الساوري

موكادور يوليوز ٢٠١٥

توطئة

على الرغم من كون المغرب جاراً قريباً جداً منا، فهو يبقى، مع ذلك، واحداً من المناطق المجهولة في إفريقيا. باستثناء طنجة، فمدن الساحل ذاتها لم تتم زيارتها بما يكفي، وهي بالكاد ما تُعرف بالاسم. بإصدارنا لهذه الصفحات، التي نُشِر أغلبها في المجلة البريطانية، نأمل، إذن، ألا نزيد دون داع في القائمة الضخمة جداً للأدب الإفريقي.

ضممتُ هذه الرحلة على طول الساحل المغربي إلى محكي بعض رحلاتي بالجزائر. بعد كثير من الكتب المنشورة حول هذا الإقليم الفرنسي الجميل، كان ينبغي علي الاكتفاء بالأماكن الأقل اكتشافاً. من النادر ما تم تسلق جبل لالة خديجة[1]، القمة الأعلى بمنطقة القبايل[2]، بدا لي من الرائع جداً أن يُروى هذا التسلق، دون أن أنسى تلمسان،

---

(١) هي قمة جبلية بجرجرة بارتفاع يصل إلى ٢٣٠٨ متر، وتعود تسمية هذه القمة إلى امرأة مقدسة وزاهدة كانت تُسمّى لالة خديجة. أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، د. ت. ص.١٦٢. [المترجم].

(٢) منطقة القبايل أو بلاد القبائل هي منطقة جبلية في شمال شرق الجزائر. وهي من جبال الأطلس الواقعة بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط. [المترجم].

المدينة الأكثر أصالة بالجزائر، ولا بسكرة وسيدي عقبة[1]، تلك المدينتين الصحراويتين الغريبتين.

(١) مدينة سيدي عقبة واحة من أجمل واحات الجنوب الجزائري وأشهر ما فيها مسجدها الذي يوجد به ضريح الفاتح **عقبة بن نافع** الذي قتل هناك سنة ٦٢ هـ. أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، م. م، ص.٢٢٠. [المترجم].

الفصل الأول:

المغـرب

عزلة المغرب

على بُعد عشرة فراسخ من الجهة الأخرى لمضيق جبل طارق، تُوجد منطقة بالكاد ما تُعرف. لم تنفُذ إليها العادات الأوربية، والاختراعات الحديثة لا توجد بالنسبة لها؛ لا توجد بها خطوط السكك الحديدية، ولا توجد طريق تشق مجالها الواسع؛ ولم يسبق أبداً لسُكانها رؤية سيارة بعجلات، ولا باخرة نهرية، ولا جسراً، يتم فيها عبور الأنهار سباحة أو عبر طوافات جلدية منفوخة بالهواء؛ ويتم السفر فيها على متن البغال والجمال، عبر طرق القوافل. يبدو أن سورا صينيا يحجُب هذا البلد عن أي حضارة: هذا السور ليس شيئاً آخر سوى الاستبداد الذي يشجّع عليه دين يرتكز على المذهب القدري للقرآن.

تباينه مع الجزائر

يُبدي المغرب تباينا صادما مع جارته الجزائر، المتحولة على الطريقة الأوربية، والمشقوقة بالطرق وخطوط السكك الحديدية، والمزودة بخطوط التلغراف. حين نغادر المغرب للدخول إلى الجزائر، يبدو وكأننا

نعبُر على الفور من التوحش إلى الحضارة. لقد نتج هذا التباين عن نصف قرن من الهيمنة الفرنسية على الجزائر.

إذا أردنا استحضار كيف كانت الجزائر قبل أن تحتكّ بعاداتنا، فيمكننا أن نُكوِّن فكرة عن ذلك بالمغرب. لم يتم اجتياح المغرب بعْدُ من قِبَل موجة السياح التي غمرت الشرق. من بين كل البلدان المحمدية، من الأكيد أن المغرب هو البلد الوحيد الذي حافظ على طابعه الخاص، ولا شيء يمكن أن يطلعنا بشكل جيد على العادات العربية سوى السفر داخل هذه المنطقة.

العادات العربية والعادات الأوربية

حين نرى عن قُرب هذه العادات المتعارضة مع عاداتنا، سنفهم سبب تمرد المغاربة على حضارتنا. كم من مرة صُدمت بالمسافة الفاصلة بين المسلم والأوربي في طريقة العيش، والأعراف، وقواعد اللياقة وأدنى الأفعال! يُمكن لصيني أن يتكيّف بسهولة مع عاداتنا أفضل من مقيم بموريتانيا[1]. يبدو أن المغربي والأوربي متضادان. فإذا قام الأوربي ورفع قبعته أمام شخص يُجلّه، فإن المغربي يظل جالساً ورأسه مغطاة، بل يصل إلى درجة خلع نعليه عند الدخول إلى منزل أو مسجد، وهذا يُعد بالنسبة لنا جد مخل بالآداب. نحن نترك اليمين لمن هم أعلى شأنا منا أو لكبارنا، بينما يترك لهم المغاربة اليسار. ونحن نعمل على تقديم

(١) هو الاسم القديم للمغرب، مملكة موريطانية عاصمتها مدينة وليلي القديمة بالقرب من مدينة فاس ويعود تاريخها إلى ٩٠٠ سنة قبل الميلاد. وتمتد على ساحل البحر المتوسط من غرب الجزائر إلى شواطئ المحيط الأطلسي وكان أقصى امتداد لها شرقا مدينة بجاية الجزائرية حاليا (بالقرب من قرطاجة). [المترجم].

الزوار في الدخول إلى بيوتنا، في حين أن المغاربة لا يفوتون أبداً الدخول هم الأوائل إلى بيوتهم. يُعدّ تقبيل اليد بالنسبة لنا علامة على الاحترام، على عكس المغاربة الذين يقبّلون أيدي بعضهم البعض. ليس من عاداتنا الأكل في منتصف الليل، في حين يستيقظ المغاربة في رمضان في منتصف الليل لتناول وجبة العشاء[1].نحن ننام بشكل سيء بثيابنا اليومية، بينما ينام المغاربة بكل ملابسهم ولا يزيلون سوى نعالهم. سيكون لنا فصل طويل للكتابة عن وجهة النظر هذه عن دينهم، عن أخلاقهم، عن قوانينهم، التي تقر بالمبادئ الأكثر تعارضا مع أفكارنا.

انحطاط المغاربة

في ما مضى تمكنتِ الحضارة المغربية المتعارضة جداً مع حضارتنا، من تحقيق انطلاقة عجيبة؛ لكن مُجتمَعاً يقوم على القدرية الإسلامية لا يمكِنه أن يتميّز بالكمال. لذلك نتساءل ماذا تبقّى من هذه الحضارة المتميزة؟ وماذا صار أولئك المغاربة الأباة والمحبون للحرب؟ حين نُوجد بين متوحشي القرن ١٩ هؤلاء نتساءل: هل هم الذين غزوا إسبانيا، والذين شيدوا أروع القصور، والمساجد العجيبة التي ما تزال تثير الإعجاب بقرطبة واشبيلية وغرناطة وبطليطلة؟ كانت أوربا حينها ما تزال غارقة في الجهل والتوحش، حين كان المغاربة يبرعون في الفنون والعلوم. لا يستطيع هذا الشعب المحْتَضِر اليوم تذكُّر ماضيه المجيد. والكتب التي دوّنت ماضيه فُقدت والمكتبات خُرّبت. ولا يسترشدون بكتاب واحد في كل المملكة. والقرآن الذي يبقى هو الكتاب الوحيد الذي يقرأ بالمغرب، يُطبع بإنجلترا.

---

(١) لعله يقصد السحور. [المترجم].

لم يتوقف الموريسكيون عن الانحطاط منذ اليوم الذي طُردوا فيه من إسبانيا. كانوا أحيانا تحت حكم أمراء ضعاف وجُهل وأحيانا تحت حكم مستبدين دمويين، لقد حافظوا على عاداتهم ولغتهم ودينهم، لكنهم فقدوا فنونهم وعلومهم، وهذه الأمة التي كانت فيما مضى جد متنورة تحولت إلى قبيلة متوحشين. مدنهم التي كانت بؤرا للأنوار في الفترة التي كانت فيها حضارتهم مزدهرة ليست اليوم سوى أكوام بئيسة من الأطلال. ربما لا يوجد مثال لانحطاط جد مثير للشفقة وجد سريع، يتعلق الأمر بظاهرة لا مثيل لها وهي أن بلدا يقع على أبواب أوربا وهو لا علم له، إلى حد كبير بحركة الأمم الأخرى، وأن حلول كل قرن يجده ما يزال على حاله: يكفي للاقتناع بذلك، قراءة محكيات الرحلة المكتوبة منذ ١٠٠ سنة: لا شيء تغير بالمغرب، والتي يمكنها أن تنطبق على المغرب المعاصر.

الحكومة المغربية

لكي يسقط وطن في مثل هذه الوحشية العميقة، من بعد ما بلغ قمة الحضارة والازدهار، يجب أن يكون قد خضع لأسوأ الحكومات. لا يوجد، في اعتقادي، في كل العالم، نظام جد استبدادي مماثل للذي يخضع له الشعب المغربي البئيس.

في القمة يسود السلطان، السيد المطلق على رعاياه وعلى كل مجال المملكة؛ هو الوحيد الذي ينعم بحق الملكية: فالبنايات والثروات المنقولة، والحياة ذاتها، كل هذه الممتلكات، ليست للرعايا سوى بالاسم، ويمكن للملك أن يجعلها تحت إمرته كما يشاء. لا توجد، كما هي الحال في تركيا، هيئة تقرر في القضايا المدنية والدينية الكبرى:

فبالمغرب يقرر السلطان في كل شيء بنفسه ولا يستشير سوى إرادته المطلقة؛ ولكي يعلم الشعب أن كل الأوامر صادرة عن السلطان، لا يوجد وزراء بمعنى الكلمة: لا يوجد سوى مجلس مكون من حاشية الملك ومن أقربائه، من قضاة أو فقهاء أو بعض قواد الحرس الملكي. يوافق هذا المجلس على كل مبتغيات السلطان. لا يوجد وزير للمالية، ولا وجود لمراقب للخزينة، إذ أن أموال الدولة تختلط مع أموال السلطان، والملك وحده من له الحق في حفظ خزائنه. والوظائف كلها مجانية تقريباً: إنها فرصة لمن يزاولونها لإظهار الكثير من الحيل للاغتناء.

المشور[1]

يعقد الملك أربع مرات في الأسبوع مشوراً أو جلسة عامة، في ساحة قصره، ممتطياً حصاناً أبيض ومحاطاً بحاشيته، مستظلاً بمظله الأخضر الرامز إلى السيادة. ولا يُقبَل أي واحد لحضور هذه الجلسات إن لم يقدم هبة مناسبة لإمكاناته. يستمع الملك بالمشور لشكاوى رعاياه: يصدر أحكاما نهائية، تُنفّذ فوراً، وأمام عينيه: يتم جلد وبتر أعضاء وقطع رؤوس الناس الذين أصدرت في حقهم العدالة الملكية أحكاما وسط المشور.

---

(١) المشور هو مصطلح تاريخي، يُستعمل في المغرب لوصف الموقع الجامع للقصر الملكي دار المخزن، وقصر العدالة، قصر الضيافة، حدائق السلطان والحي السكني للوزراء والأعيان. تسمية المشور أصلها من المشورة، أي ما يعادلها بمقر الحكومة في الأنظمة الحديثة. [المترجم].

يحكم الباشوات والحكام والقضاة والخلفاء، بالعدل باسم السلطان، ويحاكون حتما استبداده. العدالة قاسية وتفتقر إلى الكفاءة، وكل واحد يعرف أنها تباع بوزن الذهب. ينطلق كل الموظفين من المبدأ القائل ينبغي إفقار الشعب لكي تُنتزع منه كل الوسائل التي تمكنه من التمرد. الحكام وأعوانهم مختلسون مُرخّص لهم، ويمتلكون عموما ثروات ضخمة. لا توجد جباية غير قانونية لا يعمدون فيها إلى ظلم الشعب وابتزاز أمواله. وفي أحيان كثيرة يتم عقاب قاض بسبب إخلاله بأمانة الوظيفة، فقط من أجل إرضاء عقاب المجرم باسم المجتمع وليس الاقتصاد في مصالح الخزينة الملكية: يُعزل المتهم، ويُصادِر السلطان ثرواته ويضمّها إلى خزينته الخاصة.

اضطهاد الأغنياء

حالما يتمكن أحد الرعايا المغاربة من جمع ثروة تتجاوز مواطنيه، فلن يعوّل على لحظة من الاطمئنان: إنه يعلم أن السلطان، مالك رقبته وخيراته، يستطيع أن ينتزع منه ثروته عندما سيكون أقل انتظارا لذلك، ويمكنه أن يعتبر نفسه سعيداً لو أنهم عندما يجرّدونه من ثروته سيتركون رأسه فوق كتفيه، لأنه بالمغرب، يطاح بالرؤوس لأتفه الأسباب. ويحتاط، أيضاً، المغاربة، الذين يمتلكون بعض الثروات، كثيراً في إخفاء كنوزهم: لكن لا يحصل دائماً أن يتم نيل الاعتراف منهم بثرواتهم بالتعذيب المخيف. في بلد الاستبداد هذا يُعد اكتناز الثروة جريمة فظيعة. فحين يريد مغربي التخلص من عدوه، لا توجد لديه وسيلة أكيدة سوى المجاهرة بأنه غني. لماذا يخرج هذا الشعب الخامل

بطبعه من كسله، بينما الثروة، هذا الباعث على العمل، تفضي به إلى الاضطهاد؟

تحصيل الضرائب

تحصيل الضرائب هو الآخر بسيط وسريع مثل إدارة العدالة. فحين يكون السلطان في حاجة إلى المال، يأمر كل الباشوات بتحصيل الزكاة التي أقرها القرآن، وأن يأتوه بالمبلغ اللازم في وقت محدد. لا يجد الباشاوات شيئاً أحسن من استخلاص جهدهم بمضاعفة الضريبة، كما لا يعدم المرؤوسون بدورهم القيام بذلك؛ فالمكلفون الفقراء المستغَلون من طرف هذه السلسلة من المستبدين التي تبدأ من أصغر الموظفين حتى السلطان، والذين ليس لهم موارد أخرى إلا الانتفاضة ضد القمع فقد يبعث الإمبراطور الجند لمعاقبتهم، وتقطع رؤوس المتمردين الرئيسين، والجنود مرخص لهم بنهب واكتساح البلاد.

خصوبة المغرب

كيف نندهش من أن المغرب تحت هذا النظام فقير وخال من السكان، حينها فهو ليس سوى في حاجة لإدارة جيدة، حتى يصير مجاله الواسع، المقفر والبائر اليوم، واحداً من المناطق الغنية في العالم. سيكون من الصعب إيجاد تربة جد متميزة على الأرض كتربة المغرب: هي ذات خصوبة جيدة، إذ أن حبة من القمح يمكن أن تنتج مائة. فالحقول التي لا تتلقى أبداً الفوسفاط، والتي تحرث بواسطة محاريث خشبية قديمة، يمكن أن يصل إنتاجها ثلاثة محاصيل في السنة. حين نمنح المغرب حكومة أقل غباء، فإنه سيغذي شعباً ثلاث أو أربع مرات أكثر من الثمانية أو التسعة ملايين السكان المتناثرين في امتداد أوسع

تقريباً من مساحة فرنسا، وسيكون بمستطاعه أن يُصدر أيضاً الكثير من القمح الذي لن يستهلكه هذا الشعب.

سبب المجاعة

ولكن بسبب الجهل بالقوانين الاقتصادية، الجد أولية، يمنع السلطان تصدير القمح، والذي لا يمنع من مجاعات مهولة تهلك بشكل دوري شعبه. يقلص الفلاحون، بسبب هذا المنع، إنتاجهم، ولا يزرعون سوى ما يكفيهم للعيش: لماذا يهتمون بزرع ما لن يحظون ببيعه؟ وهكذا في سنوات وفرة الحبوب تُباع بثمن بخس وفي السنوات العجاف تشترى بوزن الذهب.

لماذا يستطيع الاستبداد الاستمرار؟

في الغالب ما نندهش من أن مملكة جد متوحشة بإمكانها الاستمرار بجوار مباشر لأوربا المتحضرة؛ لكن سلاطين المغرب لا يجهلون أبداً أن استبدادهم لا يستمر سوى بفضل الحسد المتبادل بين الدول المسيحية. تعتقد إسبانيا أنها مجندة لتجديد المغرب، مثلما فعلت فرنسا بالجزائر؛ تعتمد على حملتها العسكرية المجيدة لسنة ١٨٦٠م لكنها عقيمة من أجل المطالبة بمشروعية تأثيرها على مقدرات هذه المملكة. وإنجلترا التي تمتلك السيادة مسبقاً على الضفة الأوربية لمضيق جبل طارق، طمعت في الضفة الإفريقية. أليس **نيلسون**(١) من قال: إذا

---

(١) **هوراشيو نيلسون** (Horatio Nelson) ((١٧٥٨-١٨٠٥) نائب أدمير الإنجليزي. اشتهر بمشاركته بمعركة النيل ومعركة الطرف الأغر، يعد أحد أبرز القادة العسكريين في تاريخ المعارك، وفقد إحدى عينيه في معركة النيل توفي **نيلسون** وهو يقاسي بعد إصابته في=

خاضت بريطانيا العظمى الحرب بقوة بحرية، ينبغي لها أن يكون لها تحالف قوي مع ملك المغرب، وإلا ينبغي عليها الاستيلاء على مدينة طنجة؟ ولهذه الدولة، فضلاً عن ذلك، دبلوماسي محنك بطنجة، هو **السور جون دراماند هاي**[1]، والذي له نصيب كبير في إدارة الشؤون المغربية. وفرنسا التي تفكر في ربط الجزائر بالسنغال بواسطة خط للسكك الحديدية، والتي تحلم بالمملكة الشمالية الغربية لإفريقيا، لها أيضاً طموح في الاطلاع بمُهمة حضارية بموريتانيا.

حين يجد طاغية المغرب ضالته في الرغبة المماثلة لجيرانه فإنه يعارض كل إصلاح وكل تجديد، لأنه مقتنع أن دخول حضارتنا سيقود إلى خراب مملكته، القائمة على نظام سياسي وديني متمثل في نفي الحضارة. لكن سواء أُصلحت دولة الشرفاء أم لا، فهو ليس في حاجة

=العمود الفقري لدى وقوفه على مقدمة سفينته أثناء معركة طرف الغار التي غيرت التاريخ، على سواحل إسبانيا. واعتبرت المعركة بداية النهاية لغزو **نابليون بونابارت** لأوروبا، وأمنت لبريطانيا السيادة على البحار لأكثر من قرن. كسبته انتصاراته في معركتي أبي قير والطرف الأغر إبان حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون شُهرة واسعة ورفعته إلى مرتبة بطل قومي بريطاني. [المترجم].

(١) هو **جون دراماند هاي** (Sir John Drummond Hay) (١٨١٦-١٨٩٣) عاش **جون هاي دريموند** أهم محطات مساره المهني في مدينة طنجة. وقد شغل هذا المنصب في ١٨٤٤ خلفا لأبيه، الذي كان القنصل العام لطنجة. لعب **دريموند** دورا قياديا في المغرب، سواء بمعية أبيه أو عند تحمله لمنصبه إلى حدود تقاعده سنة ١٨٨٦. وترجع قوته إلى تأثره بنموذج أبيه وشخصيته القوية وقربه من الوسط الإسلامي (بعد إقامته في قسطنطينة) ومعرفته باللغة العربية. كما أنه عاصر السلاطين المغاربة من السلطان **مولاي عبد الرحمن** (١٨٢٠ -١٨٥٩) **وسيدي محمد بن عبد الرحمن** (١٨٥٩ ـ ١٨٧٣) إلى **مولاي الحسن** (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) كما أنه كان شاهداً على تطور المغرب طيلة مدة تقارب نصف قرن. [المترجم].

في أن يكون نبيا ليتنبأ بأنه لن يتبقى كثيراً للنهج الأخير للإسلام. ستسقط هذه المنطقة الغنية غير المكتشفة، عاجلا أو آجلا، مثل الجزائر، تحت وصاية دولة قوية.

لا ينصح العالم م. **هوكر**[1]، في كتابه الأخير الذي كان له تأثير قريب بإنجلترا، أبداً، كما يمكننا أن نعتقد، بتدخل إنجلترا بالمغرب. وهاهو استنتاجه اللامُتوقع للغاية:

«ليس هناك تقدم ممكن للحالة المحْتَضِرة للمغرب، سوى أن يخضع هذا البلد لحكم شعب متحضر وجد قوي، من أجل تكسير، وبشكل عاجل، المقاومة المحتومة للطبقة المميزة، الجد متنورة من أجل تحقيق الازدهار للأمة المغربية.

إذا ما تساءلنا من هو الشعب الأوربي الذي عيّنته الظروف، والأكثر جدارة من غيره في النجاح في هذا المشروع؟ إنه بالتأكيد الشعب الفرنسي.

سبَق لفرنسا أن قادت مهمة مماثلة في قسم من إفريقيا الشمالية متماس مع المغرب، لها حالة خاصة من الحوافز لأن تضيف لممتلكاتها مجالاً يمنح المزيد من الموارد الطبيعية الكبيرة مماثلة للتي تمتلك من قبْل، بلا شك سيكون هذا الغزو وستطّلع به بلا حسد من بعض القوى الأوربية.

لقد وجدتْه مسرحاً جديداً لبذل الطاقة التي تضيف في الإطار الضيق

---

(١) **سير جوزيف دالتون هوكر**، (١٨١٧-١٩١١) مستكشف هو واحد من أعظم علماء النبات والمستكشفين في القرن التاسع عشر. وهو مؤسس علم النبات الجغرافي، وأقرب أصدقاء **تشارلز داروين**. وتولى إدارة الحدائق النباتية الملكية (كيو)، لمدة عشرين عاماً، خلافةً لأبيه **ويليام جاكسون هوكر**. ومُنِح أعلى مراتب الشرف في العلوم البريطانية. [المترجم].

لمجتمع قديم، ستتقوى في نفس الوقت بشعور حميم بأنها تؤدي دوراً مفيداً في تقدم العالم»[1].

(١) Joseph Dalton Hooker et John Ball, **Journal of a tour in Morocco and the Great Atlas.**

الفصل الثاني:

طنجة

من جبل طارق إلى طنجة

طنجة، طينجة العرب، هي مقر إقامة الهيئة الدبلوماسية والقنصلية المعتمدة لدى إمبراطور المغرب. لها اتصالات منتظمة مع أوربا عبْر جبل طارق: تعبُر سفينة بخارية المضيق مرتين في الأسبوع. عندما يكون الطقس جميلاً، يكون هذا العبور واحداً من أجمل النزهات البحرية التي يمكن تخيلها. يتم الإبحار في الصباح على متن السفينة الجاكال أو الأسد البلجيكي، وبعد أن تكون قد اهتزت مدة أربع ساعات فوق الأمواج الزرقاء حيث تمتزج مياه المحيط الأطلسي مع مياه البحر الأبيض المتوسط، يتم الرسو على الرمال الإفريقية قبْل أن تنفُض النعال غبار أوربا.

أزياء مغربية

كان من بين مرافقي القليلين بعض المغاربة، الذين كان يفضحهم حديثهم بصوت مرتفع وجهير. كان لباسهم يشير، إلى حد ما، إلى جنسيتهم. كانوا يعتمرون عمامات، ويلبسون قفاطين وجلابيب، وكانوا

عراة السيقان، وكانوا ينتعلون بلاغي جلدية صفراء، وتركوا مؤخرات أقدامهم مكشوفة: هذه الأحذية الواسعة التي يزيلها المغربي مائة مرة في اليوم، لا تشوّه أبداً الأقدام مثل أدوات تعذيبنا البغيضة. قدَم عربي جميلَةٌ مثل قدم تمثال قديم. ولا يتغير أبداً شكلها بالأورام. فبهذه الندوب الأوربية تم التعرف على **علِي باي أو باديا**(١) الإسباني في الحمام على أنه كذاب وتم طرده من بلاط السلطان المغربي، حيث كان قد حصل على مكانة سامية.

بمُجَرّد ما غادرنا جبل طارق احتد نقاش عنيف بين واحد من هؤلاء المغاربة وقائد السفينة. كان المغربي يطالب بعدم أداء ثمن عبوره، وكان يدعم أطروحته ببهيمية جديرة بأن تكون أحسن دليل. وتطلّب ذلك تدخل مواطني ذلك المغربي لكي يحملوه على الرضوخ للأمر الواقع.

العبور

ابتعدنا بسرعة عن السواحل الأوربية. أثناء كل ذلك المسار لم أغضّ الطرف عن الساحل المغربي حيث سأرسو بعد قليل. الجبال الإفريقية أشد وأكثر انحداراً من الجبال المشرفة على المضيق بالضفة الإسبانية. تذكرت أيضاً جبلاً معزولاً، فخامته لا توصف، وترى قمته الأعلى من

---

(١) **دومينغو فرانثيسكو باديا** المعروف بلقبه **علي باي العباسي** (١٧٦٧-١٨١٨)رحالة وجاسوس ومغامر ومستشرق كتلاني -إسباني. سافر علي باي وكتب في وصف المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وتركيا خلال الفترة من ١٨٠٣-١٨٠٧. تقمص مظهر وجيه مسلم وذهب إلى مكة لأداء ظاهريا الحج. يعتبر من أشهر الرحالة الجواسيس إلى المغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي. [المترجم].

طرفي المضيق: إنه الجبل الشهير الذي كان يحمل في ما مضى اسم أبيلة، أو جبل الله. هضبة هرقل الجليلة هذه تسمى اليوم جبل القردة.

حين خرجنا من خليج **الجزيرة الخضراء** الرائع، أبحرنا في أعماق مياه المضيق، مصارعين التيارات البحرية والرياح العنيفة السائدة هناك بشكل دائم تقريباً. كان قاربنا الخفيف ينزلق بإقدام فوق الأمواج، التي كانت تتوالى قصيرة وذات زبد، فتسببت في ضرر كبير لبعض المعدات غير المتعودة على ركوب الصعاب.

بعد ثلاث ساعات من مغادرتنا لجبل طارق، شرعنا في تبيّن بقعة بيضاء كانت تُحدّد موقع مدينة طنجة. وهكذا لاحت من بعيد المدينة العربية بأكملها. وعن قرب تمنح المدينة لمحة سريعة جد خلابة. إنها تمتد، بشكل متدرج، على جبل متوج بقلعة قديمة. تقع طنجة، مثل جبل طارق، في عمق خليج صغير محمي من هيجان المحيط. بمُجرّد ما دخلناها التقينا بالسفينة المسماة الأسد البلجيكي التي كانت تحمل على متنها الأمير ل. . . .[1] إلى جبل طارق. أدّينا التحية لباخرة حربية تابعة للجناح الفرنسي، وصلت مؤخرا من أجل معالجة قضية عالقة بين المغرب وفرنسا. وأرسينا على بُعد ٢٠٠ متر من الشاطئ، لأن الميناء كان في حالة يرثى لها.

الوصول إلى طنجة

وها نحن على الفور محاطين بالعديد من القوارب كان على متنها بعض الأهالي. كان على كل واحد منا، في تلك اللحظة، أن يراقب

(١) فراغ في الأصل. [المترجم].

أمتعته، لأن العربي مفطور على الاختلاس. أمسكت بحقيبتي الخفيفة بقبضة يدي وقفزت داخل قارب نجاة. بعد بضع ضربات بالمجداف، ارتميت مغمورا بالسعادة على الأرض الإفريقية. عرض عليّ واحد من الأهالي بِلُغة فرنسية ممزوجة بإسبانية اقتراحا بأن يقودني إلى فندق. سرت وراءه عبر دروب غريبة جداً تفوق كل تصور.

المظهر الأول للمدينة

سبَق لي أن رأيت في رحلاتي السابقة، القرى الغريبة جداً لدى قبائل لابون (Lapons)(١) وإيروكوا (Iroquois)(٢). لكن كانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها إلى مدينة عربية. كانت بالنسبة لي عالماً جديداً تماماً، مشابهاً قليلاً لكل ما سبق لي أن رأيته في كل رحلاتي البعيدة جداً. وهو ما جعلني أتساءل في البداية ما إن كنت نزلت بالقمر أو في بلد غريب الأطوار. كانت كل حواسي متأثرة بانطباعات غير مألوفة. كانت عيناي تتوقفان مذهولتين بمشاهد لا متناهية لم يسبق لي أن رأيتها سوى مرسومة في لوحات فنية. وصل إلى مسامعي خليط من الأصوات الشاذة، ومقاطع لفظية حلقومية، غريبة تماماً عن اللغات الأوربية. كانت تقرع أذني في كل مكان.لا أحد لم يتأثر حتى حاسة الشم بالرائحة المميزة للكيف [القنب الهندي]، وبما لا أعرفه من انتشار روائح لا مفر منها في بلد حيث البالوعات مجهولة.

---

(١) لابون أو سامي هو شعب بدائي يعيش في شمال السويد والنرويج وفلندا وأيضا روسيا. [المترجم].

(٢) تضم مجموعة من الأمم الهندية يعيشون شمال ولاية نيويورك وبأوطاريو بكندا. [المترجم].

الفندق الكوني

بعد أن جبنا نصف المدينة، وصلت، مسبوقاً بمرشدي ابن البلد، أمام باب واطئ امتدت فوقه هذه اللافتة بكتابة شنيعة جداً في البلد العربي: فندق أينيفيرس (Hotel d'Universe). يدير هذا الفندق يهودي من أصول كالية، كان فيما مضى بمثابة إقامة خاصة بالباشا. بدخولي، كانت مفاجأة سارة في انتظاري، إذ وجدتُني داخل قصر مغربي ذي معمار جميل. حول فناء أنيق في الهواء الطلق، وُزّعت بعض الشقق؛ الحيطان مزينة بالزليج العربي الجميل الذي يسميه الإسبانيون أزليجوس؛ سقوف من خشب الأرز، وأبواب مزينة برسوم هندسية من النوع الذي سبق لي أن رأيته بقصر الحمراء بغرناطة وبقصر اشبيلية. يوجد في الطابق الأول رواق يمتدّ حول الفناء. أدخلوني إلى غرفة مؤثثة بذوق عربي رفيع، ذات أرضية مزلّجة وحيطان مطلية بالجير، ومضاءة بنافذتين صغيرتين مفتوحتين على الفناء الداخلي، لأن الشقق العربية لا تستمد أبداً ضوء النهار من الخارج.

المرشد محمد

بمجرد ما حللت بالفندق، زارني **محمد**، وهو واحد من المرشدين السياحيين الذين لا يُنسون. بالإضافة إلى الدارجة المغربية أو المغاربية التي تشكل واحدة من تنويعات لغوية عديدة للغة العربية، يتكلم الإسبانية كما ينبغي، ويلحن في الإنجليزية ويتكلم بفرنسية مُضجِرة. يرتدي القفطان والبرنس والبلغة، ووجهه الكبير المُسمَر دائم البشاشة، تؤطّره عمامة جميلة. اقترح علي نُزهة. وفي الوقت الذي ذهب فيه للبحث عن البغّال، تناولت غذاء بقاعة المحكمة السابقة للباشا: قُدّمت

لي أطباق غريبة جداً، كانت عبارة عن خليط فظيع من الطبخ المغربي والإسباني، وجدتُ، مع ذلك، استقبالاً جيداً لدى سائح سيئ الحظ قدِم للتو بعْد أربع ساعات من الإبحار على الريق.

جولة على متن بغل

ها هو **محمد** قد عاد ومعه مطيتان مسرجتان على الطريقة العربية. امتطيت واحدة، وأخذنا الطريق. أصبحت باعثا على الضحك، وأنا أمتطي بغلتي العربية، مفتوح الساقين على بردعة عرضها يضاعف عرض سروجنا الإنجليزية، وقدمي محشورتين داخل ركابين مغربيين على شكل حذاءين، أسير خلف مُسلمي، عابراً دروب طنجة.

موريسكيون ويهود

بالمغرب كل رجل يلبس على الطريقة الأوربية يُعَد شخصية مهمة. كان ينظر لي السكان الذكور كذلك بفضول ممزوج باحترام. على العكس، كانت النساء يحجبن وجوههن أثناء مروري، رافعات خمورهن البيضاء حتى أعينهن: المسلمة لا يمكنها أن تترك ملامحها مكشوفة ليُمعِن فيها النظر كافر. نُدرك أن المسنات هن من يبادرن إلى التحجّب. لم أر، فضلاً عن ذلك، فتيات مغربيات: الغيرة الإسلامية تحبِسُهن في بيوتهن. تُرى مع ذلك بعض الفتيات في دروب طنجة، لكن لا يجري الدم المغربي[1] في عروقهن: إنهن فتيات يهوديات، وعاداتهن لا تسمح لهن بالاختلاط مع المحمديات، دينهن لا يمنعهن من السير مكشوفات الوجوه، وتبدين فخورات بجمالهن، صفاتهن على الرغم من أنه ينقصها

(١) هو يقصد الدم الإسلامي. [المترجم].

قليل من تعابير الوجه، هي ذات انتظام، وذات قسمات وجه صافية عتيقة حقاً، وتُرَين في وضع كلاسيكي، على عتبات بيوتهن، أذرعهن وأقدامهن عارية وأجسامهن مغطاة على الطريقة الشرقية، تُذكرن، بشكل لا إرادي، بنساء التوراة. للأسف ليست اليهودية الجميلة والجاهلة ببلاد البربر، كما يقال، سوى حيوان جميل.

عبر الدروب

قادني مرشدي عبر متاهة من الدروب الضيقة جداً، لدرجة أن حماراً مُحمَّلا يمكن أن يشغل كل عرضها. يبدو لك لأول وهلة أنه من الصعب عليه أن يمر في نفس الوقت مع الحمار، لكن في طنجة الناس والحيوان متميزون بمرونة خاصة تجعلهم ينفذون من ثقب إبرة. هكذا وصلنا إلى السوق [البراني]، وهو سهل صغير يقع خارج الأسوار: وهو مُقفر اليوم، لكننا سنعود إليه يوم الخميس، يوم التئام السوق.

بادية طنجة

قادني **محمد** بعد ذلك في أرض مكشوفة، عبْر ممرات بِغال محفورة بين حواجز قصب ضخمة، إنها الطرق الكبيرة الوحيدة لضواحي طنجة. وأيضا في العديد من الأماكن، هذه الممرات شديدة الانحدار بشكل مخيف. ما جدوى الطرق السالكة ما دامت السيارات الأكثر بدائية غير معروفة تماماً بالمغرب! الحصان والبغل والجمل هي الطرق الوحيدة لوسائل النقل المستعملة لدى المغاربة. أما السكك الحديدية فإن السلطان لا يرى أي جدوى منها، مثل إمبراطور الصين ولنفس الأسباب السياسية.

بادية طنجة خلابة. تنمو بها أشجار تين بلاد البربر بغزارة مثل نجوم السماء. توجد هنا وهناك حقول الفول والحمص محفوفة بأشجار الصبار والتين الهندي. البلاد جد وعرة، وبالتالي، جد رائعة: الأفق محدد بجبال ذات تعرجات خطيرة، منحت المنظر طابعا شرقيا تماماً، وإطارا ذا جمال عجيب. الهواء نقي جداً إلى درجة أنه يجعلنا نعتقد أن قمماً بعيدة بعدة فراسخ توجد على مرمى بندقية. فُتحت تسربات رائعة على البحر الذي عكست بقعتُه الزرقاء الشمسَ. من الناحية الأخرى للمضيق، تلاشت بصورة غير واضحة الجبال البعيدة لإسبانيا. بدا لي أن مشهد أوربا هذا يمنح أحيانا الحنين لأعضاء الجالية الدبلوماسية المقيمين بطنجة، لأنه ولو أن طنجة تقع تحت أجمل سماء في العالم، فإنها تبقى، عموما، إقامة ممقوتة بالنسبة لبعض الأوربيين.

قهوة مغربية

كانت جولتي الأولى قصيرة. لم أكن قد تعودت بعد على السروج العربية، التي تتطلب إبعادا كبيراً بين الساقين، وكنت راضيا بما يكفي، بالدخول إلى المدينة، وترجلت من أجل احتساء فنجان قهوة بمعية مرشدي. ليس لمقاهي طنجة ما ترد به على الأفكار الرائعة جداً التي كوناها عن المقاهي الشرقية. إنها بيوت بغاء فظيعة، جد قاتمة، جد متسخة، ولا نجد داخلها أي أثاث سوى حصر السمار ومقعد ملطَّخ بالدهن مغطى بقطع زرابي قديمة. يوجد في زاوية كانون مع أدوات المطبخ، أباريق قهوة وفناجين ولوازم أخرى، و، بشكل خاص، سطل يُستعمل لغسل الفناجين، ويمكن أن يختلط محتواه بسهولة مع القهوة، لأن له لون القهوة. نريد رشْف فنجانه، هو أمر يتطلب خمس دقائق من الصبر. يُمسك القهوجي بإبريق قهوة معدني يحتوي تماماً على محتوى

الفنجان المرغوب، ويضع فيه الحبوب المطحونة ويصُب عليها الماء حتى حدّ الإبريق، ويضع الوعاء فوق الجمر الحارق. بعْد ذلك يغلي السائل: يسحب القهوجي الوعاء من النار، ويضع فيه قليلاً من السكر الأسمر، ويقوم بغلي الخليط مرة أخرى، ثم يصبّه، بعد ذلك، في فنجان من خزف ويقدمه حارقاً.

أعترف بأنني لم أقبل الفنجان المتسخ، الذي قدمه لي **محمد**، دون اشمئزاز. ألهمني هذا الشراب الأسود الخاثر المبخر كثيراً من الثقة. بمُجرد ما رفعته إلى شفتي حتى ابتلعته تقريباً دفعة واحدة، وطالبت على الفور بفنجان ثان، ثم ثالث، وأخذت أزعق صارخاً «المزيد! المزيد!» مثل أطفال يتذوقون العسل لأول مرة. لأن الشراب كان لذيذا للغاية، وبما أن المغاربة وحدهم من يعرف تحضير القهوة، مثلما أن الإسبان وحدهم من يعرف تحضير الشكلاطة، لم أندهش من أن العرب يقضون ثلاثة أرباع حياتهم في شُرب القهوة.

قبْل العشاء زرت وزيرنا القاطن بقصر صغير رائع ذي هندسة معمارية موريسكية، إنه متحف حقيقي للاتنوغرافيا المغربية.

عُدْت إلى الفندق مُتْعَبا قليلاً بكل الانطباعات الجديدة التي عشتها خلال النهار، ولم أتأخر في الاستسلام لنوم عميق وسط القبة المغربية حيث كان الباشا السابق لطنجة فيما مضى يسبح في أحلامه الذهبية.

بورتريه محمد

في صباح اليوم الموالي اقترح علي **محمد** الصعود إلى القصبة. فمنطقياً كان ينبغي أن نبدأ من هناك؛ لكن باعتباره رجل حكمة، كان **محمد** يريد أن يريني القرية قبْل المدينة، في حين أن المدينة سنراها

قريباً، وأن دليلاً سامياً لا يريد إطلاق ضحيته بشكل مستعجل. بعد ذلك أتيحت لي الفرصة لملاحظة أن نصير الإسلام الماكر هذا يستعمل نفس الخدعة مع كل الأجانب حسني الظن الذين يزورون طنجة. وهناك مؤاخذة أخرى على **محمد** وهي إقحام نفسه بإطناب في السياسة، التي يناقشها من حين لآخر في لغة **سيرفانتيس**[١] وفي لغة **شكسبير**[٢] ولغة **كورني**[٣]. وحين يأتي الحديث عن قضية الشرق، ينتعش ويتكلم كل هذه اللغات دفعة واحدة، حتى أننا لا نفهم شيئاً مما كان يقول. لكي أنهي بورتريه بطلي، ينبغي أن أقول إنه يتعاطى شرب الخمر بشكل مثير بالنسبة لأحد التابعين **للنبي محمد**. ذات يوم فاجأته يفرغ في بلْعة واحدة بنتا[٤] من نبيذ ملقة، جعلته يشعر بأنني كنت مستنكرا جداً لهذه الطريقة للتقيد بالتعاليم القرآنية. ردّ بأنه صب بنتا أخرى وشربها في صحتي قائلاً إن القرآن لم يرد منع سوى استعمال المشروبات الكحولية.

---

(١) يعني اللغة الإسبانية. **ميغيل دي ثيربانتس سابيدراجندي** وكاتب مسرحي وروائي، شاعر إسباني ولد في ألكالا دي إيناريس، مدريد، إسبانيا في ١٥٤٧يعد واحداً من الشخصيات الرائدة في الأدب الإسباني على مستوى العالم،واشتهر عالمياً بعد كتابة روايته الشهيرة دون كيخوطي دي لا مانتشا توفي في مدريد، إسبانيا سنة ١٦١٦. [المترجم].

(٢) يعني اللغة الانجليزية. وليَم شكسبير شاعر، يصنف كأعظم كاتب في اللغة الإنجليزية، وكاتب مسرحي إنجليزي بارز ولد سنة ١٥٦٤ والمتوفى عام ١٦١٦م. من أشهر آثاره وأعماله الكوميدية كوميديا الأخطاء **وتاجر البندقية** وقد كان من أشهر آثاره التراجيدية **روميو وجوليت ويوليوس قيصر وهاملت، وعطيل ومكبث والملك لير**. [المترجم]

(٣) يعني اللغة الفرنسية. **بيير كورني** (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) ب: (Pierre Corneille) شاعر مسرحي فرنسي كبير. [المترجم]

(٤) الباينت مكيال للسوائل. [المترجم].

القصبة

تقع القصبة، التي هي أكروبول طنجة، على ارتفاع يُشرف على كل المدينة. يوجد داخل سورها قصر الحاكم والسجن والمحكمة والقلعة، المُسلحة بتسعة مدافع وهي غير مستعملة منذ زمن بعيد.

المحكمة

دخلنا إلى المحكمة وهي عبارة عن رواق بأعمدة ذات طابع خرب، حيث يتم البث في القضايا الجنائية والجُنحية. لم تتح لي فرصة رؤية هذه المحكمة وهي تشتغل، ولا رؤية تنفيذ العقاب بالجَلد الذي يُعرض في مشهد فوري بعد النطق بالحكم. في قلب غرفة صغيرة ذات حيطان مطلية بالجير وخالية من أي أثاث، كان شخص ممددا على طوله على حُصر، قال لي **محمد** إنه الباشا بشخصه. قادني أمامه وعرّفه بجنسيتي، وأخبره بالهدف من رحلتي. نظر إليّ الوجيه بلا مبالاة وباستخفاف يليقان بباشا ووجّه كلمات إلى **محمد** ترجمها دون أن يقطب حاجبيه. قال إن الباشا يحثني على القيام برحلة داخل المغرب وزيارة فاس ومكناس. علمْتُ لاحقاً قيمة الباشا الذي كنت على صلة به.

السجن

على بُعد خطوتين من المحكمة يقع مبنى السجن. وهو بناية قديمة في حال يرثى لها، مسبوق برواق مسنود بأعمدة موريسكية. ينقسم داخِله إلى قاعتين: الأولى تأوي سجناء من أبناء طنجة، والثانية تأوي سجناء من أقاليم مختلفة من المغرب. الكل يتلقون نفس المعاملة غير اللائقة. باب كل محل مثقوب بفتحة دائرية تمكنتُ من خلالها من إلقاء

نظرة على الداخل. سبق لي أن زُرت عددا من السجون، لكن لم يسبق لي أبداً أن رأيت مكاناً جد مثير للاشمئزاز وجد منتن مثل هذا. يتخبّط السجناء السيئو الحظ في القذارة وفي اختلاط مخجل: ويوجد بذلك السجن من عاش هناك منذ سنوات داخل جمود مطلق تماماً. وأنا أنسحب بقلب تغمره الشفقة والتقزز، لم يخجل حاكم هذا الحبس المظلم القذر، من أن يطلب مني رشوة. أعطيته حفنة من هذه النقود المغربية التي تعادل ١٢٠ قطعة منها فرنكا، وشكرني بكل أشكال التبريك[١].

منظر عام للمدينة

بمغادرتنا للقصبة، توقفت لإمعان النظر في المنظر العام للمدينة الذي كان ينبسط تحت قدمي. هذه النظرة الخاطفة هي كل ما تمنحه كل مدينة عربية. تصوروا تكدسا مضطربا لبنايات صغيرة ذات أشكال مكعبة، بيضاء مثل الثلج، تنهيها سطوح مربعة الزوايا مطلية بالجير ومثقوبة بفتحات مربعة تمنح الهواء والضوء للفناء: شوّكوا حيطان هذه المساكن المتداعية الطباشيرية بمطلاّت صغيرة، دائماً بالبياض الناصع؛ انبثقت من بين هذه الخلية المعقدة، بعض أشجار النخيل القليلة ومئذنتان فارعتان تشيران إلى موقع بعض المساجد؛ وأخيرا، ارفعوا هذا التكتل داخل بناية منغلقة من جهة ببحر لا زوردي، ومن جهة أخرى بواسطة حزام من الحيطان المسننة وتسجنها مثل مِشَدّ، ستكوِّنون فكرة مبهمة عن هذه المدينة العربية الواقعة على بعد فراسخ من أوربا.

(١) ففي زنازن طنجة قيل إن هذا المغامر مات مؤخراً مسموماً، والذي تظاهر في باريس بأنه أمير مغربي.

لكن كيف يرجع الألق الخلاب الباهر لتشابك الأسطح هذا، المكسوة بقشر طلائها المائة، والذي لا تفسد أي سحابة فجاجته؟ ليست حقول الثلج بجبال الألب[1] مبهرة مثل طنجة المتملية في وضوح شمس المغرب هذه، والتي ليست لدينا أي فكرة عنها تحت سماواتنا الشاحبة. ومن جهة أخرى، يتمايز كل هذا المقطع الأبيض عن الزرقة الشديدة للبحر وعن القبة الزرقاء.

من لم يزر طنجة لا يمتلك أي فكرة لا عن الأزرق ولا عن الأبيض.

فضلا عن ذلك، فالمدينة ليست كبيرة. في بلاد تنعدم فيها الحالة المدنية والإحصاء، لا يمكننا تقدير عدد السكان سوى بشكل تقريبي: تضم طنجة، على أكثر تقدير، عشرة ألاف مسلم وسبعة آلاف يهودي، يزدحمون في ضيق داخل مكان جد محدد أكثر من الإمكان، بالكاد ما يبلغ ضعف سعة حديقة حقل **مارس**[2]. فيما يتعلق بالنسبة للساكنة الأوربية لا تتجاوز أربعين أو خمسين شخصاً.

الترجمان أبراهام

بعْد الزوال قُمْت بجولة على متْن حصاني بمَعية **أبراهام**[3]، وهو

---

(١) هي سلسلة جبال في أوروبا تمتد من النمسا وسلوفينيا شرقاً، مروراً بإيطاليا وسويسرا وليختنشتاين وألمانيا وحتى فرنسا غرباً. وكلمة ألب تعني أبيض باللغة اللاتينية. أعلى قمة في سلسلة الألب هي قمة مونت بلانك الواقع على الحدود الفرنسية-الإيطالية وتبلغ ٤٨١٠ متراً. [المترجم].

(٢) هو حديقة عمومية بباريس وهي واحدة من أكبر المناطق الخضراء بباريس، يعود اسمها إلى إله الحرب الروماني مارس. [المترجم].

(٣) **أبراهام سكس** (A.SUCCIC) كان يضطلع بمنصب الترجمان الأول بالقنصلية البلجيكية بطنجة منذ سنة ١٨٦٦م. [المترجم].

ترجمان ملحق بالبعثة. هو يهودي ذكي جداً، يتكلم، بكل طلاقة، الفرنسية والإسبانية والإنجليزية والعربية والعبرية. ورافق، باعتباره مترجما، السفارة المغربية التي زارت عدة دول أوربية سنة ١٨٧٥م[١]. كلّمني بحماسة عن القطارات البخارية التي بدت لي أنها أدهشته بشكل خاص. استطعت الخوض معه في كل المواضيع، شريطة أن لا أكلمه أبداً عن العرب، الذين يكرههم بإخلاص، شأنه في ذلك شأن كل إخوته في الدين. والعرب أيضاً يبادلونهم نفس الشعور.

بستان

جُبنا، ممتطيين حصانين عربيين مُسرجين على الطريقة الأوربية، سهل طنجة الخصب والذي بدا لي أنه ذو خصوبة قيِّمة. على بُعد نصف فرسخ من المدينة ترجّلنا من على حصانينا بقصْد زيارة بستان وزيرنا: والذي أعجبت فيه بنباتات كلها استوائية؛ أشجار المنغولية والنخيل والخيزران والموز والدفلى ونباتات لا متناهية لا تُرى لدينا إلا في الدفيئات الحارة. جعلني **أبراهام** أتذوق بعض المندرين، برتقال معطر، كبير مثل قبضة اليد، وبعض الفواكه العصارية، التي تُجنى تحت هذه السماء الجميلة في عز الشتاء. يتوفر كل القناصل المقيمين بطنجة على بساتين صيفية مماثلة في الضواحي حيث يقضون الفصل الحار. تقع هذه البساتين، دوما، في أماكن جميلة رائعة، حيث رأيناها على البحر وفي الجبال الأوربية. يمتلك **أبراهام** بدوره إقامة صغيرة حيث أكرم وفادتي: قدّم لي كوب ماء معدني مستقى من نبع في ملكيته: ممزوج باليانسون

---

(١) في الغالب هو يتحدث عن البعثة الطلابية المغربية إلى بلجيكا سنة ١٨٧٥م والتي رافقها الترجمان **أبراهام سكس** (A.SUCCIC). [المترجم].

وهذا الماء مشروب ممتاز. يوجد الماء المعدني في كل مكان في هذه المنطقة، ويزعمون أنه سيشتد الإقبال عليه لو كان معروفا بأوربا. يحتوي على كميات كبيرة من كاربونات الصودا. والماء الطبيعي لا يُفتقد كذلك في ضواحي طنجة، لكنه ناقص بشكل كبير داخل سور طنجة. فسّر لي **أبراهام** أنه فيما مضى كانت البلدة مجهزة بكثرة بالمياه، لكن حين فتحها البرتغاليون، قام العرب الذين كانوا يحتلونها آنذاك بتدمير كل القنوات المائية التي بُنيت أثناء الاحتلال الروماني. لم يتم أبداً إصلاح هذه القنوات منذ ذلك الحين، واليوم ما يزال الماء ينقل على ظهر الإنسان بطنجة، في قِرَب من جِلْد الماعز.

عبّرت عن الأحاسيس التي تعتري السائح الذي نزل حديثا بطنجة. كنا في البداية جد مرتبكين وجد منذهلين وسط هذا العالم الذي لا جامع بينه وبين أوربا، حين نعاني من بعض المصاعب في تنظيم الانطباعات العديدة التي تحاصرك دفعة واحدة. تمثُل الكثير من الأشياء الجديدة أمام الرؤية، ولا نعرف إلى أين نتجه، لا نرى جيدا، ولا نسمع جيداً، فنعتقد أننا في حلم يقظة. وقد تطلب مني الأمر يومين أو ثلاثة أيام للعودة إلى حالتي الطبيعية.

طابع الدروب

بمُجرد ما تأقلمت مع جو حكايات **ألف ليلة وليلة** هذا، شعرت بسحر حقيقي بالتسكع في الدروب، وبرؤية السكان، والتمعن في عاداتهم على الطبيعة، بالسير على غير هدى بحثاً عن اللون المحلي، الذي كنت أجده فضلاً عن ذلك في كل خطوة. بفضل وجود القناصل، يمكن للأوربي التجول وحيداً في طنجة وبأمان، دون خوف من أن يكون عُرضة لأن يعامل بعنف بدافع من التعصب الإسلامي. لن يمنعه

أحد من إلقاء نظرات فضولية داخل الدكاكين الصغيرة؛ بإمكانه التجول في الأسواق وأسواق التّحف؛ فلا يُمنع عليه سوى الدخول إلى المساجد.

دروب طنجة ليست سوى ممرات ضيقة وملتوية ووعرة، مبلّطة بشكل مخيف، مختنقة بين صفين من المنازل الواطئة، دون طابق، وتُدخل إليها أبواب خشبية، حيث توجد بخشونة بصمات يد مفتوحة (خميسة) مصورة بالأحمر، وهي رمز سري موجه لطرد سوء الطالع. لا وجود لنافذة على الدرب: فالنظرة من الخارج لبيت عربي لا يبدو فيها سوى حائط أبيض، مثقوب بباب مفتوح دائماً، بسبب أنه لا يوجد ما يُسرق في الداخل، لأن المغربي يخبئ ثرواته. تزدحم في هذه الدروب ساكنة رثة الثياب ومتباينة. يحتك المسلم باليهودي. والمرأة المسلمة تتسلل بشكل عجيب على طول الحيطان، تتقدم المرأة اليهودية ببطء ووليدها على كتفها. ويبرز الزنجي على بياض المنازل سحنته السوداء. حشد من السلالات من آسيا وإفريقيا ممثلة بطنجة، لكن العرق الموريسكي هو من يشكل أساس الساكنة. ينحدر أغلب هؤلاء الموريسكيين من العائلات العربية الأولى التي فرت إلى المغرب بعد طردها من إسبانيا. ما يزال بعضهم يحتفظ بصدق بمفاتيح منازلهم بطليطلة وغرناطة حيث عاش أسلافهم وحيث يأملون في العودة ذات يوم بمساعدة نبيهم.

دروب طنجة خالية تماماً من الأسماء، وليس بالمنازل أي أثر للترقيم، حتى أن أجنبيا ذات مرة يجازف داخل هذه المتاهة المستغلقة والمتقلبة، المخططة، دون تصميم، ينبغي عليه أن يصمم على ضياع طريقه، حتى تقوده الصدفة بشكل جيد إلى السوق الصغير [الداخلي] الموجود وسط المدينة، والذي نصل إليه أيضاً دائماً بعد عدد من

الدورات المعقدة إلى حد ما. المدينة، في الواقع، أصغر من أن نتيه فيها بكل بساطة. ومع ذلك كنت دائماً أجد أكبر الصعوبات في العودة إلى فندقي، الواقع تحديداً في الجزء الأكثر إرباكا لهذه المتاهة الخادعة.

السوق

الساحة المركزية الصغيرة التي أشرت إليها للتو هي كبيرة أشبه بمنتصف ملتقى طرق زكودفير بطليطلة. إن أشرت إلى هذا المثال، فذلك راجع لأنني لا أعرف ساحة جد صغيرة لأقوم بمقارنة دقيقة. توجد هناك حوانيت التجار اليهود والعرب. ليست لهذه الدكاكين أي واجهات زجاجية، لأن صناعة الزجاج غير معروفة بالمغرب: ستكون مربعات الزجاج، فضلاً عن ذلك، ترفا لا جدوى منه في ظل مناخ جد رائع. يظل التاجر في الداخل، مقرفصاً فوق كعبيه على طريقة الخياطين، والزبون يفحص ويشتري من الشارع. يتعامل البائع والمشتري برباطة جأش ثابتة. يعلن البائع بانتظام، عن ثمن جد مرتفع ثلاث مرات، ويعرض الزبون ثمنا منخفضا ثلاث مرات؛ لكنهما ينتهيان إلى التوافق، بعد تنازلات من الطرفين. هذه الدكاكين متسخة وبئيسة وخالية من كل أثاث وضيقة جدا: بالكاد ما تبلغ مساحتها أربعة أمتار مربعة. يقضي بها التاجر يومه مدخنا الكيف ومستمتعا بالتبغ الموضوع داخل علبة على شكل بيضة مثقوبة بفتحة صغيرة.

الدكاكين الصغيرة

في كثير من الدكاكين يُرى العامل في عمله. لا شيء أثار اهتمامي أكثر مثل هذه الورشات المفتوحة على الطريق. هنا إسكافي يصنع بلاغي

الجلد، ويزينها بتطريزات من سبيب؛ هناك خياط ينسج برانس، وهناك فنان يُنزِّه بمهارة ريشته على أشياء من خشب، صنعها جاره النجار، وتُشتم من بعيد رائحة الشحم المحروق نابعة من قلي في الهواء الطلق؛ وها هي مخبزة حيث يتم إعداد ذلك الخبز المنبسط، ذي اللون الأسمر، ذي الهضم الصعب على المعدات الأوربية؛ وهاهما شيخان موقران يلعبان الشطرنج، وهو لعب يحظى بمكانة هامة لدى المغاربة. أي شخصية وقورة هذه التي تكتب على ركبتيها حروفا عربية، مجوّلة من اليمين إلى اليسار ريشتها المصنوعة من قطعة من القصب؟ إنه موثق عمومي. ويوجد بالمغرب موثقون، لكن لا توجد سجلات الحالة المدنية تثبت المواليد والوفيات. إذا ما سألت مغربياً عن سنّه، سيجيبك بأنه يجهله؛ بإمكانه أن يقول لك، على أكثر تقدير، إنه رأى النور إبّان احتلال الإسبان لتطوان[١] أو حين قصفت فرنسا موكادور [الصويرة][٢]. يتم الزواج بإعلان بسيط لدى العدل. للزوج وللزوجة الحرية المطلقة في الطلاق بشكل متبادل بدون أي سبب.

---

(١) استولت إسبانيا على تطوان في مطلع ١٨٦٠، ورغم محاصرة الأهالي للمدينة المحتلة إلا أن إسبانيا سيطرت على تطوان، فاضطر المغرب إلى التفاوض، لكن إسبانيا تمادت فقصفت العرائش وأصيلة، وخططت للزحف نحو طنجة، واستمع المغرب إلى نصيحة انجلترا وأوقف الحرب، ودخل إلى مفاوضات الصلح مباشرة مع إسبانيا، وكان من نتائج المعركة أن اشترطت إسبانيا على المغرب تأدية تعويضات عن الحرب مقابل الانسحاب من تطوان. [المترجم].

(٢) في ١٨٤٤ قصفت فرنسا المدينة عقاباً للمغاربة على دعمهم لمقاومة **الأمير** عبد القادر الجزائري. [المترجم].

المدارس

لا شيء أبسط من الاستغراب من وضع التعليم الابتدائي بطنجة. لا يمكنك أن تقوم بأي خطوة دون سماع أصوات للأطفال منبعثة من داخل مدرسة. بما أن أبواب هذه المدارس مفتوحة دائماً، يمكننا أن نلقي نظرة على ما يجري داخلها من الطريق. يضع التلاميذ نعالهم بمدخل القسم. يوجد في أقصى الغرفة، أستاذ غارق في إغفاءة حالمة وممدد بكل طوله على الأرض، رأسه متكئة على يده. يتحلّق حوله اثنتا عشر صبي حليقو الرؤوس جالسون على كِعابهم، ويؤدون صلواتهم، يدندنون بتوازن متناسق. لماذا هذه الدندنة؟ هل هي واق ضد النوم أم هي أمر قرآني؟ لم أستطع معرفة ذلك، لكن بإمكاني التأكيد أن هؤلاء البؤساء ينخرطون في هذا التمرين، بلا توقف، من الصباح إلى المساء. المدارس كثيرة بطنجة: والمغاربة كلهم يعرفون القراءة.

باعة الماء

سُكان طنجة عموماً متسخون وبؤساء؛ لكن أكثرهم فقراً هم باعة الماء: وهم جد كثيرين، وتبقى مهنتهم هي الأقل ربحاً من بين كل المهن. يحملون على ظهورهم قِرباً من جلد الماعز، بضاعتهم المجلوبة من بعيد، ويعلنون عن حضورهم بقرعهم على نواقيصهم باستمرار. ويؤدَّى لهم كمقابل لكوب ماء واحدة من هذه القطع النقدية التي لا تبلغ ستة منها سوى فلس واحد. وهم في فاقة شديدة، لدرجة أنهم بالكاد ما يسترون عوراتهم. من المستحيل رؤيتهم دون أن يثيروا الشفقة.

طنجة على ضوء القمر

كنت غالباً ما أجوب دروب طنجة ليلاً، على ضوء القمر. تحت هذا المناخ الجميل، لقمر الليل ألق غير معروف في مناطقنا الباردة، ويبدو أنه على مسافة قصيرة من الأرض. منظر المدينة من أعلى القصبة يجعلها تبدو مغطاة بمعطف لامع من الغيم، إلى درجة أن السطوح البيضاء مضاءة بوضوح بفيض من النور الليلي. بدت ليالي المغرب تقريباً جدّ مضاءة مثل ليالي المناطق الشمالية في فترة لمعان شمس منتصف الليل.

ليست لدينا أدنى فكرة عن إضاءة الدروب بطنجة، فالقمر والنجوم تُعوضها. هناك بعض الحوانيت القليلة مضاءة ببعض مصابيح الدخان. في العاشرة ليلاً، تتخذ طنجة طابعاً غريباً. تلبس النساء الأبيض تماماً، وتكون وجوههن منقبة بعناية، وتسرن عبر الدروب مثل أشباح. في ساحة السوق تجلس عجائز رهيبات، بلا حركة، مثل تماثيل مقرفصات على الأرض أمام قطع خبز مسطحة. يتناثر فوق تبليط الدروب متسكعون ينامون في العراء، في كل خطوة كنا نخاطر بأن نصدم بأرجلنا هؤلاء النوام.

السوق الأسبوعي

عُدنا علانية وتجولنا في السوق. هناك حيث ترى العادات على الطبيعة. تصوروا سهلا تبلغ مساحته أكثر قليلاً من هكتار، يقع جنوب المدينة، ما وراء الباب الذي تذهب منه القوافل إلى فاس. نصب التجار القادمون من الداخل خيامهم هناك وبجانبهم بغالهم وجمالهم، هذه هي السكك الحديدية للمغرب. المكان مغطى بخيام واطئة منصوبة بأعمدة مغروزة في الأرض. تشتعل هنا وهناك نار من أغصان الأشجار اليابسة.

الجِمَال

في المرة الأولى التي زرت فيها ذلك السوق العربي، كان يحتشد به أكثر من مائتي جمل، ملتصقين ببعضهم البعض، وباركين على الأرض، أرجلهم مطوية تحت أجسامهم المحدّبة. كان وقت أكل هذه الحيوانات، كان بعضها يعلف القمح والبعض الآخر يجتر. كان الجمل دائماً يثير اهتمامي. عينه الذكية ذات عذوبة لا توصف. صبره بلا حدود، وشعرت بأنني تأثرت حتى أعماق روحي برؤيته كيف يُترك يُعذب كثيراً باستكانة من قِبَل سيده الفظ. لقد ثُرت على قسوة المغاربة على الحيوانات. ومن دون سبب ينهالون عليها بضربات عصي مبرحة. الحصان وحده، الذي يعتبرونه حيوانا شريفا، ينفلت من سوء معاملتهم.

حكواتي عربي

لنَدَع جِمالنا من أجل إمعان النظر في ذلك العربي الوقور ذي اللحية البيضاء، وقد التف حوله حشد شديد الانتباه. يروي حكاية عربية، ويلزمني الكثير من أجل فهمه. كان كلامه يفيض حركة وحزنا؛ يتم التنبؤ بما يقول ليس سوى بالنظر إلى لعب أعضاء جسده وحركته ونبرات صوته. بإمكان حكواتيينا أن يذهبوا ليأخذوا دروسا لدى هؤلاء المرتجلين العرب، الذين يمتازون بهذه الصفة الأساسية لفن الإلقاء الطبيعي. أيضاً بأي انتباه يتابع خطابه مستمعوه العديدون المقرفصون حوله! إنهم معلقون بشفتيه، ومأسورون، لدرجة أنهم لم ينتبهوا لحضوري. يمسك الحكواتي بعصاً بيده اليمنى، وتقوم هذه العصا بدور مهم في حركاته التعبيرية. يتكلم هؤلاء الحكواتيون لساعات دون أن يكلّوا، ودون أن يسأم منهم مستمعوهم الذين يتزايد عددهم بقدر ما تزداد أهمية الحكاية. تمتد الحكاية غالباً العديد من الأيام، ويعتني الحكواتي دائماً بإيقافها في اللحظة التي يُثار فيها الانتباه في أعلى درجة

على الأحداث التي ستأتي. في كل يوم كنت أجد هذا الحكواتي يواصل، بلا شك، حكاية اليوم السابق. وجدته في يوم ما مصحوباً بزنجي. كانا يلعبان معا نوعا من الكوميديا المرتجلة. وكان يبدو أنهما منخرطان في حوار لا أعرف أي نقاش مضحك، كان يثير في كل لحظة، المرح الصاخب للسمع، وبشكل خاص، حين كان يظهر الزنجي المنتصر رافعاً عصاه فوق رأس الشيخ العربي متظاهراً بضربه.

بينما كان هؤلاء الأبطال يتجادلون في اللغة، كان هناك على بُعد خطوات بَطلان قويان يتصارعان بالعصا بمهارة ورشاقة تثيران إعجاب مهرتنا المبارزين بالعصا.

موسيقى زنجية

وكانت هناك جماعة من الزنوج منخرطة في موسيقى صاخبة من أجل الحصول على قليل من الفلوس من بعض النفوس المحسنة. كان واحد منهم ينفخ في آلة غير قابلة للوصف؛ وآخر يقرع قراقب من حديد تحدث ضجيجاً مثل ضجيج بيانو رديء، وآخر مزود بعصاً مقوسة إلى زاوية يمنى، يضرب بقوة على صندوق ضخم. تقوم الموسيقى الزنجية فقط على إحداث الكثير من الصخب.

مروض الثعابين

ويوجد في مكان آخر مروض أفاعي استرعى انتباه المتفرجين الذين التفوا حوله: يمسك الثعابين من ذيولها ويطلق ألسنتها، ويحيطها بعنقه، ويجعلها تعضّ ذراعه حتى يسيل الدم، يتم كل هذا على نغمات قرع نوع من الطبول. حين يضع الثعابين على الأرض تشرع في الزحف تماماً

نحو الجمهور، فتتسع الحلقة فجأة بمرونة رائعة. لكن المروض يمسك بالثعابين ويثبت ذيولها تحت حجرة ضخمة.

اليوم الكبير للسوق

يلتئم السوق [البراني] كل يوم خميس. وحينها تعرف المدينة حيوية رائعة؛ في الطريق المؤدية من السوق إلى ساحة السوق الداخلي، يوجد هرج ومرج للعرب، للحمير، وأيضا تُرى الجمال: ولا يمكن أن نشُقّ طريقاً بها دون أن نستسلم تقريباً للازدحام بالحيوانات والناس. رأيتُ بالسوق ذاته أكثر من ألفي فرد، بما في ذلك الحيوانات، محتشدين داخل مساحة تبلغ هكتارا. إنه اللمحة السريعة الخلابة، وإنه أيضاً اللاّنظام الكامل الذي يمكن تصوره. يتزاحمون ويدوسون بعضهم البعض. ويتكلمون بصوت مرتفع، يصرخون ويومئون، ويهيمن على كل هذا الضجيج نقر نواقيس يُصدره باعة الماء الكثيرون وأيضا الموسيقى الزنجية النشزة: إنها غرفة سقط متاع حقيقية. رأيت هناك كل منتوجات المغرب معروضة للبيع؛ القمح، الصوف، أكوام من البرتقال، التمر، العنب، التين، خضر من كل الأنواع، اللحم، خبز الشعير والعديد من منتوجات الأهالي أجهلها تماماً.

هناك مشهد لا يمكنني نسيانه، وهو منظر هذا السوق تحت ضوء القمر: هؤلاء العرب ناصبين خيامهم في العراء، وتلك النيران المشتعلة هنا وهناك، تلك الجمال التي كانت تبدو كبيرة زيادة على حدّها المعتاد تحت ضوء القمر الأبيض. منح صمت الليل هذا المشهد، لست أدري، مهابة، وفي لحظة بدا لي أنني وسط قافلة عربية في الصحراء. وفجأة هاجمني رهط من الكلاب أتوا لسحبي من حُلمي: كانوا حراس المخيم وكانوا يطّلعون بمُهمة إبعاد الدخلاء. لم أترك نفسي أقولها مرتين.

القاضي

اقترح علي أبراهام في يوم ما تقديمي، باسم وزيرنا، إلى الموظفين الرئيسيين للمدينة، من أبسط القضاة إلى الباشا، حاكم طنجة. من غير المجدي أن أقول إنني اغتبطت بهذا اللطف.

ذهبنا أولاً لمتابعة جلسة للقاضي. يعقد هذا الموظف جلساته أمام المسجد الرئيسي، بقاعة مغرقة في البساطة، قُبتها مسنودة بدعامات ذات طراز مغربي. حضرت إليه، وسيراً على الآداب العربية، صافحته. كان جالساً على منبر، على طريقة الشرقيين، الأرجل مربعة فوق حصير، لا يوجد بجانبه لا مساعد ولا كاتب محكمة؛ توجد على الحصر، التي مُدَّت فوقها زربية خضراء، قصبة مقصوصة على شكل ريشة ومحبرة طين سوقية. يقوم القاضي نفسه بتدوين أحكامه ويرسلها إلى الموثِّق العمومي الذي يتكلف بمُهمة توثيقها. والقاضي هو الحاكم المدني. يطلع بأدوار جد مهمة، أكثر من قضاة الصلح لدينا، البيع والشراء والزواج والطلاق هي اختصاصه. وهو بالإضافة إلى ذلك يلبس بطريقة كهنوتية. ويتم اختيار هؤلاء الموظفين من بين «الطلبة»[1] أو فقهاء متضلعين في معرفة القرآن.

المترافعون العرب

بمجرد ما دخلنا إلى قاعة الجلسة، تقدم مسكين أمام القاضي، وضع ركبة على الأرض، وعرض حالته. كان الأمر يتعلق بأرض تم اغتصاب

(١) طلبة جمع طالب.

ملكيتها. بأمر من القاضي، ذهب المترافعان لدى الموثق العمومي، وهناك علا بينهما أعنف نقاش: كانا يصرخان صراخا يخرق طبلة أذن أصم. امتد هذا النقاش المصحوب بكل أصناف الحركات المهددة، أزيد من نصف ساعة. أما بالنسبة للموثق العمومي، فكان يكتب هو الآخر غير مبال، وكأنه لم يفهم ما يجري حوله من كلمات قبيحة كانت تتقاطر حوله. قال لي أبراهام إن هذه المشاجرات بين المترافعين هي عادة جاري بها العمل، ولو من أجل مبلغ زهيد، ويكون الحق لمن يصرخ بشكل أقوى. وعلاوة على ذلك فالعدالة تظل مجرد وهم في هذا البلد السعيد؛ فالقضاة لا يقاومون إغراء قطعة نقدية بسيطة.

الخليفة

من عند القاضي ذهبنا إلى الخليفة. هذا الأخير هو القاضي العسكري؛ يحكم بالسجن وبالجلد، بالنسبة للجرائم العادية، وبالبتر بالنسبة للجرائم الجسيمة. وقد مكنوني من رؤية الأداة المستعملة في التعذيب بالجلد. هي ليست عصا، كما يمكن أن نعتقد، وإنما هي سير من الجلد يمزق اللحم بشكل رهيب. لا يمر يوم السوق دون جلد. أراد الخليفة، أن يسرني، فمنحني إمكانية متابعة حادثة كانت عرضة للأنظار، عجلت برفض هذا اللطف العربي. وجد هذا الخليفة المتميز من الطبيعي أن يجلد فقيرا إمتاعا لأجنبي، مثلما كان ملك متيسا[1] يقطع رؤوساً على شرف الكولونيل **شاليلونغ**[2].

(١) هو الملك امتيسا أحد ملوك الباجندا المشهورين بأوغندا خلال القرن التاسع عشر. [المترجم].

(٢) هو **شار شيلي لونغ** (١٨٤٢-١٩١٧) مستكشف أمريكي لإفريقيا الوسطى. [المترجم].

عند الباشا

مكنني **أبراهام**، بعد ذلك من حضور جلسة لأكبر شخصية في طنجة، وهو الباشا. يسكن بقصر كائن بالقصبة. لكي نصل إلى قاعة الجلسة عبرنا بهوا جميلا، مبلطاً بالزليج ومحاطاً برواق موريسكي مدعوم بأعمدة من رخام أبيض تاجية العمود على الطراز الكورنثي، تعود إلى الفترة البرتغالية[1]. هذا البهو مزيَّن بنافورة جميلة من الذوق العربي الرفيع، كلها مغطاة بالزليج الأزرق. فُتِحت في أقصى الساحة القاعة حيث يجْلس الباشا.

حينما انحنيت، احتراما له، مدّ لي يده، فاكتفيت بلمسها؛ قبّل **أبراهام** يده كعلامة على الخضوع. بعد التحية، عرض عليّ الباشا الجلوس على أريكة مخصصة للزوار الأوربيين، لأن المسلمين لا يستعملون أبداً المقاعد. كان الشيخ مستلقيا بلامبالاة على وسادة عريضة مغطاة بزربية فاسية. كان يمسك بيده سبحة من عاج[2].

بورتريه القائد الجيلالي بن علمو [حم][3]

تخيلوا وجها مهيبا مزينا بلحية فضية، وجبهة متغضنة، وعينين جد سوداوين حولهما إطار أسود من الكحل يمنح انطباعاً غريباً، وسُحنة

---

(١) انتقلت طنجة على التوالي إلى هيمنة الرومان والعرب والبرتغاليين والإنجليز وفي الأخير ظلت تحت حكم العرب.

(٢) تتكون سبحة المسلمين من ٩٩ حبة مرتبطة بأسماء الله التسعة والتسعين، العادل، المحسن، الحافظ، الخ.

(٣) الباشا **الجيلالي بن حم البخاري المكناسي** كان فقيها ماهرا جعله **السلطان عبد الرحمن** في سلك حاشيته إلى أن أصبح رئيسا للمشور. عينه الحسن الأول عاملا على طنجة. توفي سنة ١٢٩٥هـ. [المترجم].

مُسمرة، وأنف أفطس، وشفتين سميكتين، ولُفّوا هذا الرأس الخلاسي بعمامة من ثوب أرقّ من النسيج المخرم، وستكونون فكرة عن هذا الباشا المغربي.

كان يلبس كسوة حريرية حمراء، وكان يتوارى جزء منها تحت حايك ناصع البياض. كانت قدماه مكسوتين بجوارب من صوف أبيض؛ وتجدر الإشارة إلى أنه في المغرب الرجال السامون هم وحدهم الذين يلبسون الجوارب.

بما أنه لا توجد سجلات للحالة المدنية بالمغرب، سيكون من الصعب تحديد السن المضبوط لهذا الباشا؛ لكنه قال لي إنه عاصر حكم خمسة سلاطين، ويمكن أن نستنتج أنه يبلغ من العمر حوالي ٩٣ سنة، فطول العمر معروف جداً لدى العرب. اسمه **الجيلالي بن علمو [حم]**. كان فيما مضى أحسن جنرال بالمغرب وشغل لمدة طويلة مكانة سامية ببلاط السلطان؛ لكن تم إبعاده من العاصمة بسَبَب اختلاف في الرأي مع وزير الشؤون الخارجية. علاوة على ذلك، لم تتم ترقيته إلا بفضل مواهبه العسكرية. التفاصيل التي جمعتها حول شخصه هي قليلة التأثير. يزعم أنه أوقع ١٥ ألف رأس من الرعايا المغاربة في الزمن الذي كان يحظى فيه بنفوذ في البلاط. وإليه كان يلجأ السلطان حينما كان يتطلب الأمر إرهاب بعض القبائل المتمردة الممتنعة عن أداء الضرائب. هذا الخادم الجدير الشديد المستبد كان يهلك سكان بعض القبائل بأكملهم: كانت الرؤوس المقطوعة تملّح في الحين وتُرسَل تكريماً للملك؛ وتزيِّن خلال أيام عديدة أسوار العاصمة.

هذه، باختصار، نبذة عن الشخص الذي شرّفني بالقبول بأن أكون أمامه. لا يفهم هذا الجنرال السابق أي كلمة بالفرنسية ولا بالإسبانية؛

ويبدو أنه حتى العربية لا يُحسن التكلّم بها، لأنه خارج فنّ تقطيع الرؤوس، يعيش في جهل مطبق، مثل أغلب موظفي هذا البلد الجميل.

قاعة المحكمة

أثناء تحدّث الباشا بالعربية مع أبراهام تمكّنت من إمعان النظر على مهَل في كل تفاصيل القاعة. لا تقِل قيمة أبدا، بسبب غنى معمارها، عن قاعات قصر الحمراء[1]، ولم يكن يلزمني جهد كبير، من الخيال لكي أعتقد أنني داخل قصر غرناطة العجيب، في الفترة التي كان فيها مأهولا بالملوك الموريسكيين. جعلني هذا الباشا العجوز المخنّث، الممدد باسترخاء على فراشه الشرقي، أتذكر بشكل لا إرادي الملك **بوعبديل**[2].

لاحظت في أقصى القاعة سريرا ذا أعمدة صغيرة، مؤثث بستائر حريرية حمراء. يرى هذا الباشا أنه من الطبيعي جداً أن يستقبل زواره في

(١) قصر الحمراء هو قصر أثري وحصن شيده الملك المسلم أبو عبد الله محمد الأول محمد بن يوسف بن محمد بن احمد بن نصر بن الأحمر بين ١٢٣٨-١٢٧٣ في مملكة غرناطة خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي. وهو من أهم المعالم السياحية بأسبانيا ويقع على بعد ٢٦٧ ميلاً (٤٣٠ كيلومتر) جنوب مدريد.تعود بداية تشييد قصر الحمراء إلى القرن الرابع الهجري، الموافق للقرن العاشر الميلادي، وترجع بعض أجزائه إلى القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي. [المترجم].

(٢) **أبو عبد الله محمد الثاني عشر** (١٤٦٠ ـ ١٥٢٧) هو آخر ملوك الأندلس المسلمين الملقب بالغالب بالله. وكان ملكاً على غرناطة من بني نصر من ملوك الطوائف واستسلم **لفرديناند وإيزابيلا** يوم ٢ يناير ١٤٩٢. وسماه الإسبان el chico أي الصغير وBoabdil أبو عبديل، بينما سماه أهل غرناطة الزغابي أي المشؤوم أو التعيس. وهو ابن أبو الحسن علي بن سعد، الذي خلعه من الحكم وطرده من البلاد سنة ١٤٨٢، وذلك لرفض الوالد دفع الجزية **لفرناندو الثاني** ملك أراغون كما كان يفعل ملوك غرناطة السابقين. [المترجم].

غرفة نومه. كان وراء العجوز مخدع مفتوح، حيث كانت ثلاثة بناديل عتيقة أوربية الصنع ملصقة بالحائط. هذه البندولات التي كانت تسجل كل واحدة منها ساعة مختلفة، كانت تشكل بالإضافة إلى ثلاثة كراسي كل الأثاث. كانت الحيطان مزينة بفسيفساء أنيقة ممزوجة بنقوش عربية. كان السقف يُظهر رسماً معقداً، مماثلاً بالضبط للذي يعجبنا في القصور التي تركها الموريسكيون بإسبانيا. كان يأتي ويذهب عبيد سود من غينيا في الرواق، وكانوا يُظهرون أحيانا، بمدخل القاعة، رؤوسَهم الصغيرة الفضولية، السوداء مثل السخام.

بعد ربع ساعة من الاستماع قمت برفقة المترجم. صافحني الحاكم مرة أخرى. في الوقت الذي كنا نجتاز فيه البهو، تمكنت خفية من رؤية، ثلاث نساء من الحريم، يلعبن الورق في قاعة مجاورة. إنه في حاجة إلى الحريم، هذا التسعيني الذي يتخلخل رأسه.

احتيال محمد

بمغادرتنا لهذا القصر، بقيت لفترة طويلة متأثرا بما كنت رأيته للتو. لقد لمحت رونق الداخل الشرقي. ثم في هذه المرة، رأيت باشا حقيقياً، وليس باشا خيالياً، مثل الذي جعلني **محمد** منذ أيام سابقة أتحمَّله. نتذكر فعلا أن **محمد** حين قادني إلى القصبة، وقدمني لشخص يبلغ من العمر أربعين سنة، وقال لي إنه الباشا. ولن تتاح لي كل يوم الفرصة للنظر بإعجاب لقسمات باشا، و**محمد** يستغل مهنته كدليل. لقد اكتشفت الاحتيال حين عرفتُ سن الباشا الحقيقي، ولن أفوت توبيخ ماكري بسبب لعبه بسذاجتي. أجابني **محمد**، دون أن يفشي ورطته، التي كنت أسأت فهمها: لم يكن يتعلق الأمر أبداً بالباشا وإنما بنائب الباشا. من هو نائب الباشا؟ حسب قول **محمد** هو وزير العدل. من أجل

إيضاح الأمر، استشرت وفيي **أبراهام**، فأكد لي أنه لا وجود لوزير للعدل في جميع أنحاء المملكة المغربية.

في هذه المرة، كنت أعتقد أنني أخلط هذا المنافس الجدير بالكذب المميز بعبقرية **كورناي**؛ لكنه عربي أكثر حِذْقاً مما نتصور. حينما لُمت **محمد** على خُدعته الجديدة، استل من القضية بقوله إنه كان يستعمل هذه الكلمة ليعني بها الخليفة، مع العلم أن أوربيا يتوفر على فكرة واضحة عن وزير العدل أكثر من خليفة. يا للمصيبة! كنت أتجول رُفقة العزيز **أبراهام** في نفس اليوم، وقابلت الشخص آنف الذكر، ولم يكن لا خليفة ولا وزيراً أو باشاً؛ ليس هذا الرجل الباسل سوى أخ الخليفة، لكنه لا يزاول أي وظيفة على الرغم من نسبه السامي. أتعتقدون أن **محمد** كان مدفوعا في حيله الأخيرة؟ آه. لا. الفرد المنحدر بالفعل في الدرجة كان يمارس في هذه اللحظة وظيفة الخليفة في غياب أخيه. لكن ها هو ما يصير مؤسفا: في اليوم الذي تلا هذا التفسير الجديد، صافحت الخليفة الرسمي، هو الذي أراد أن يريني مشهد جلد، ولم يغادر طنجة منذ مدة طويلة. ربما رآه **محمد**، ولهذا السبب لم أره مرة أخرى. تُصوِّر هذه القصة بما يكفي العربي.كان أولئك الناس يرجعون إلى الحيل المنحدرة من **عوليس**[1].

---

(١) يوليسس أو «عوليس» كان ملكاً إغريقياً أسطورياً على عرش مملكة إيثاكا نسبة إلى جزيرة إيثاكا اليونانية في البحر الأيوني- خُلِّد كأحد أبطال حرب طروادة التي سُطِّرت فصول منها في ملحمة «الإلياذة» للشاعر اليوناني الملحمي هوميروس، كما كان بطل «الأوديسة»، الملحمة الشعرية الأعظم في تاريخ الأدب الغربي لهوميروس أيضاً التي روت وقائع عودة يوليسس إلى وطنه بعد الحرب، في رحلة من التيه والضياع والأسر امتدت سنوات عشر، وقفت قوى الطبيعة مع البطل تارة وعاندته تارة أخرى. اكتسب يوليسس مكانته في سجل الأبطال الأسطوريين لدوره الاستثنائي في حرب طروادة، من خلال قصة «حصان طروادة» الشهيرة التي رواها الشاعر الروماني فيرجيل في ملحمة «الإلياذة» الشعرية. [المترجم].

قرية عربية

فيما بعْد عشاء رائع، قُمت بجولة سيراً على الأقدام لوحدي بالبادية، وغامرت حتى مسافة فرسخين من المدينة. لم ألْتق في طريقي سوى بأناس لُطفاء وغير مؤذين. تبدو، بكل تأكيد، ضواحي ملقة أقل أمنا منها.لكن، وأنا أعبُر قرية انقضّ علي رهط نابح من الكلاب الجائعة طاردني مدة ربع ساعة.لهذه القرى طابع إفريقي بامتياز: بيوتها مبنية بالطين ومُغطاة بالقش؛ تنمو بينها حواجز من الصبر والصبار. وهي بكاملها رائعة وتُذكِّرنا جيداً بالقرى الزنجية التي رسمها لنا مستكشفو وسط إفريقيا.

بمغادرة القرية، نزلْت بواد بهيج، في أقصاه يجري نهر صغير (نهر اليهود)، مُدّت فوقه قنطرة عربية جميلة. في تلك اللحظة بالضبط كان يعبر القنطرة فارس مزهو، يعتمر عمامة. حاولت ريشة **ديكمب**[1] رسم هذا المشهد. بدت بعْد القنطرة البقايا المتصدعة لقناة مائية رومانية قديمة. بعد أن تركت النهر خلفي، تسلقت المنحدر المقابل للوادي، حيث تتدرج فيلات جميلة، الواحدة فوق الأخرى، بُنيت بذوق موريسكي؛ تلك الفيلات هي الإقامات الصيفية للقناصل الأوربيين.

طريق رأس سبارتيل

لم يكن دليلي سوى الصدفة، اكتشفت طريقاً رائعة تحاذي البحر بارتفاع كبير، كنت أسير أحيانا تحت ظل أشجار الصنوبر الكبيرة

---

(١) هو جان بابتيس ديكامب (Jean-Baptiste Descamps) (١٧١٤-١٧٩١) فنان تشكيلي فرنسي. [المترجم].

الملتفة، وأحيانا تحت سماء مفتوحة، تحت أشعة الشمس الإفريقية الحارقة. فُتحت على اليمين فُرجات رائعة على الطبقة المائية الزرقاء للمحيط الأطلسي وعلى الجبال الإسبانية البعيدة. تؤدي هذه الطريق إلى رأس سبارتيل، الحد الأقصى لإفريقيا الشمالية، والتي لم يتجرأ **هيرقل** على المغامرة ما وراءها. استُبدل اليوم العمود الأسطوري بمنارة، تم نصبُها مؤخراً على نفقة الدول التي لها ممثلين بطنجة.

مسار

عُدت من نفس الطريق؛ لكن بالقرب من المدينة، تُهت في السهل الخصب. إنها الحقول المزروعة والبساتين، حيث ينبسط نبات أرهم على الرغم من وجود جفاف دائم.

شريف طنجة

الجفاف هو مصيبة هذه المناطق الجنوبية. المطر قليل تقريباً بالمغرب كما في مصر. خلال إقامتي كانت الأنهار جافة تقريباً. في يوم ما رأيت في الطرق مرور موكب لا محدود للرجال والنساء لابسين جلابيبهم البيضاء، مسبوقين بأعلام وبموسيقى متوحشة، يصدرها المزمار والطبل. كان كل أولئك الناس البواسل ذاهبين إلى الشريف حاملين له كبشا وهدايا أخرى، من أجل الحصول على المطر. الذي لم يسقط منذ عدة شهور. تابعتهم حتى مخرج المدينة. هناك توغل الموكب نحو البادية، بتعرجاته الطويلة الممتدة في طريق محفوفة بالصبار مؤدية إلى إقامة الشريف.

من هم هؤلاء الشرفاء إذن؟ من هم سادة المطر والجو الجميل؟

إنهم المنحدرون من سلالة النبي. يشكلون الشرف الوحيد للبلد. يعيشون من الهدايا التي يقدمهما لهم المؤمنون، ويمتلكون عموما ثروات ضخمة. وشريف طنجة[1] واحد من أكبر السادة الأغنياء بالمغرب. وقَع منذ سنوات في عشق حاكمة إنجليزية جميلة[2] بجبل طارق، وتزوجها وهو ما أثار فضيحة بين إخوته في الدين، بعد أن طلّق كل نساء حريمه. والغريب أن سلطته الدينية لم تتقلص.

تعصّب المغاربة

أفعال مثل هذا نادرة بالمغرب، حيث إن كراهية المسيحيين جد محتدة أكثر من أي أمة محمدية أخرى. في الجزائر، بإمكان المسيحيين زيارة المساجد، بإزالة أحذيتهم على طريقة المسلمين؛ لكن دخولهم للمساجد ممنوع بالمغرب، وإلا كان جزاء الداخل الموت، ولن ينال المتهم العفو إلا باعتناقه الإسلام وأن يختتن.

قصة مصلح الساعات

لا يمتنِع المؤمنون[المسلمون] من اللجوء إلى بعض النجسين المسيحيين في نظرهم، في الوقت المناسب. تؤكد ذلك الواقعة التالية؛ منذ سنوات مضت تعطلت ساعة مسجد طنجة الكبير. غير أنه لم يكن بالمدينة كلها، سوى رجل واحد بإمكانه إصلاحها لكنه كان مسيحيا. دخل فقهاء المسجد في جدال بغية التوصل إلى ما إذا كان جائزاً

(١) المقصود هنا شريف وزان مولاي عبد السلام. [المترجم].

(٢) **إيميلي كيين** (Emily Keene) أو قل شريفة وزان، جاءت إيميلي إلى المغرب في مهمة عمل عينتها فيها الإدارة البريطانية بالمغرب، مرت من طنجة. [المترجم].

لمسيحي عبور المسجد والصعود إلى المئذنة. وقرروا أنه يجوز للكافر الدخول إلى البيت المقدس، بشرط أن يزيل نعليه مثل باقي المؤمنين. لكن الكافر الذي أصدروا من أجله هذه الفتوى، أجاب بأنه غير متعود على خلْع نعليه في كنيسته ولا يمكنه أن يقوم بذلك في المسجد. وبعد مداولات طويلة، برؤيتهم أن مصلح الساعات كان عنيداً. قدّم «طالب» منهم الخطاب التالي: «حينما نبني مسجداً، نترك الحمير تدخل إليه محمّلة بالجير والآجر وبمواد أخرى، ومع ذلك لا نزيل لها أبداً حوافرها. اعتبروا أن مصلح الساعات هذا واحداً من الحمير الأكثر تصلباً، وليس هناك ما نناله منه، ونظراً للضرورة الملحة، أرى أن نتركه يدخل كما يشاء».

اليهود

يهود طنجة الذين ينحدر أغلبهم من اليهود المطرودين من إسبانيا، هم أيضاً كلهم متعصبين مثل المسلمين. لقد اشتهروا، فضلاً عن ذلك، بكونهم أكثر ذكاء. إذا ما أوشك هذا العنصر على الانقراض، فأكيد أن المغرب سيسقط في بؤس عميق بسبب الخمول والكسل الإسلاميين. فبين أيديهم ترتكز التجارة، وهم يشغلون أغلب وظائف الحكومة. عهَد إليهم الإمبراطور تحصيل الضرائب واستخدمهم في المفاوضات مع المسيحيين.

عدد المسلمين واليهود بطنجة متساو تقريباً، وليست واحدة من أدنى الطرائف لهذه المدينة بأن نرى هذين العرقين اللذين يكرهان بعضهما البعض مختلطين بإخلاص. يعتبر المسلمون اليهود مثل الحيوانات القذرة؛ إذا أطلقوا على المسيحيين نعت «النجسين»، فقد ذهبوا إلى إنكار مشاعر الطبيعة الإنسانية عن اليهود.

في مدن المغرب الأخرى، اليهود دائماً مُبعدون في حي معزول، الملاح، حيث يدخلون إليه لقضاء الليل دون أن يسمح لهم بالخروج منه حتى الساعة التي يتفرغون فيها لاهتماماتهم. لكن لا يوجد حي لليهود بطنجة: يعيش فيها أبناء إسرائيل وسط أتباع **محمد**، ولا تختلف منازلهم عن منازل المغاربة، إذ لا تأوي الكثير من العائلات التي لها شُقق، وأن أفنيتها تقوم مقام مكان اجتماع كل السكان: هناك حيث يطبخون ويأكلون ويتحدثون ويصبّنون.

يتم التعرف على اليهود من خلال لباسهم. فلباسهم في الغالب الأعم، ذو لون أسود؛ يلبسون فوق قميص مزين بتطريزات جلباباً طويلاً محكماً بحزام، ويضعون فوق رؤوسهم شاشيات وينتعلون بلاغي. لا يمتطون أبداً الخيول: يسمح لهم فقط بامتطاء البغال؛ فالحصان بالنسبة للمسلمين حيوان شريف جداً ولا يمكن أن تمتطيه كائنات تُعَد وضيعة في نظرهم.

الدفينة(١)

يخلُد المسلمون إلى الراحة يوم الجمعة واليهود يوم السبت. ذات سبت استضافني أبراهام لآكل معه الدفينة، وهي كلمة عبرية تعني: «هذا ما طبخناه ليوم السبت». لا يمكن لليهود لمس النار يوم السبت، يضعون الدفينة تغلي في الليلة السابقة، ويتركونها في الطنجرة مدة أربعة وعشرين ساعة. أخذني أبراهام إلى بيته في الحادية عشرة صباحا، وقدّم لي زوجته، التي كانت ترتدي لباس السبت، وهو عبارة عن جلباب

(١) أو السخينة. [المترجم].

فاخرة مطرزة بأكملها بالذهب. دار الحديث باللغة الإسبانية وهي لغة يتكلم بها كل يهود المغرب. في بداية الوجبة غمس **أبراهام**، حسب العادة العبرية، قطعة من الخبز في الملح، ومنحني نصيباً. وبعد ذلك صب النبيذ، دون أن يتظارف معي بأي مراسيم. ثم توالت الأطباق المختلفة التي سبق أن طبخوها في نفس الطنجرة، والتي تشكل الدفينة، الواحد بعد الآخر. إنها ليست طبقاً واحداً، وإنما هي سلسلة من الأطباق جد مغذية، توالت باستمرار مخيف. لن أصفها. يكفيني القول إن ذلك ذكرني بـ بيشرو (puchero)[١] الإسبان، وبما أنني شبعت ابتداء من الطبق الثاني لم أتمكن من بلوغ باقي اللحوم، إلا بصعوبة. في وجبة الفواكه تم تقديم مربى من غينيا ذا مذاق قوي جداً وغريب ويطّلع بوظيفة هضم الدفينة. أنهى كوب قهوة رائعة وجبة كاركنتيا (Gargantua)[٢] هذه، وهذه هي الطريقة التي تتم بها ممارسة التعفف بالمغرب.

المستعمرة الأوربية

خلال الأيام العشرة التي قضيتها بطنجة، تمكنت من التعرف على الجالية الأوربية. والتي تشمل إلى جانب الهيئة الدبلوماسية، بعض الفنانين، ومن بينهم اكتشفت واحداً من بلدي. شرّفني بالدخول إلى مرسمه بطريقة حضارية جميلة، وأراني دراسات لا تحصى عن تطوان وطنجة وفاس. اندهشت من أن بلد الضوء والألوان الحارة هذا لم يتم

(١) اسم مجموعة من الأطباق في إسبانيا وأمريكا الجنوبية. [المترجم].

(٢) كاركانتيا (Gargantua) هو شخصية من رواية للكاتب الفرنسي **فرانسوا رابلي** ألفها سنة ١٥٣٤م تحمل نفس الاسم وهي شخصية أسطورية أكولة. [المترجم].

اكتشافه بعد. ففي المغرب ينبغي الذهاب لرؤية السماء الزرقاء والشمس الساطعة التي تمنح كل الأشياء ألوانها الساخنة والبراقة، والتي كنا دائماً نسوّل لأنفسنا الاعتقاد بأن الأمر مبالغ فيه حينما كنا نراها مصورة عن طريق اللوحات التشكيلية.

لم يمر يوم دون أن أُستضاف لقضاء أمسية لدى هذا العضو أو ذاك من الجالية. كانت القهوة والسجائر ونبيذ ملقَة والمشروبات المحلاة مع الماء الساخن والحامض والموسيقى والمحادثة تأخذني كل يوم حتى منتصف الليل. كانت لليالي طنجة هذه ميزات خاصة، فكان يتم التحدث فيها بكل اللغات. كان أغلب المقيمين يعبّرون، على السواء، بالفرنسية والإسبانية والألمانية والإنجليزية: العربية وحدها لم تكن لهم الجرأة على تعلمها. وهي علاوة على ذلك لغة جد حُلقومية تتحدى محاولات حنجرة أوربية.

ألا يتم التحدث بالكثير من اللغات بطنجة من أجل التعاطي الجيد للقيل والقال؟ يوجد على أكثر تقدير خمسون أوربيا[١]، من ضمنهم النساء، وبدلاً من أن يسود انسجام داخل هذا العالم الصغير المخفي وسط المسلمين المتوحشين، وهو ما يجعلهم يطعنون بعضهم البعض بواسطة اللغة. يُرون يشربون الشاي، الواحد لدى الآخر، ويقومون بألف برهنة على الصداقة، لكن كل هذا لا يمنع النمامين من أن يأخذوا مجراهم. سأتحاشى هنا نشر كل الفظائع التي سمعتها تُحكى من قِبَل أجمل الأفواه في العالم حول أفعال وحركات الغير.

---

(١) يبدو أن هذا الرقم محدود جدا، بل هو أكثر من ذلك العدد. [المترجم].

مناخ طنجة

هذا واحد من السلبيات الصغيرة للإقامة بطنجة. ومع ذلك تنعم طنجة بجو رائع. قال لي واحد من المقيمين، الذي سبق أن أقام بالقاهرة، إنه يفضّل ألف مرة مناخ المغرب على مناخ مصر. فمعدل درجة الحرارة في الشتاء هو ١٦ درجة مئوية، وفي الصيف لا يتجاوز المحرار ٣٣ درجة. الإقامة بطنجة جد صحية بالرغم من الاتساخ اللايتصور للمدينة. فالقرب من البحر، وبشكل خاص، تردد الريح الشرقية هما اللذان يجعلانها صِحّية. بدون الريح الشرقية التي تكنس الهواء المتعفن، كانت المدينة ستتعرّض لفتك الطاعون، وكانت عدوى الطرق ستكون عظيمة جداً.

ستكون طنجة محطة جيدة بالنسبة للمرضى في فصل الشتاء، لو كان بها المزيد من أسباب الراحة. لكن أبشع نُزْل بإسبانيا أحسن من فنادق هذا المكان حيث كنا بالرفقة الرائعة للجرذان وحيوانات أخرى جد صغيرة.

لكي أختصر انطباعاتي، سأقول عن طنجة إنها واحدة من المدن في غاية الطرافة التي تتم زيارتها في أسرع وقت ممكن وتُغادر بلا ندم.

الفصل الثالث:

موكادور

سنتان بعد زيارتي الأولى لطنجة، قادني مِزاجي الرحلي إلى المغرب. كنت رسوت هذه المرة بهذا البلد من الجنوب. ليس في الشتاء وإنما في عز الصيف، وتحديداً في شهر غشت. كنت أتيت من جزر الكناري[1]، وكنت أريد، قبل العودة إلى أوربا، زيارة موكادور وآسفي ومازغان [الجديدة] والدار البيضاء والرباط وسلا. لا تعطي كل هذه المدن العربية المثيرة، ومنها طنجة، سوى نظرة مسبقة. كانت تثيرني، بشكل خاص، موكادور التي أصبح اسمها متداولا منذ أن فجّرتها فرنسا، ومع ذلك كان كثير من الناس متضايقين في تحديد موقعها على الخريطة. تقع هذه المدينة في أقصى غرب إفريقيا المسلمة على تخوم الصحراء الكبرى، وهي بكل تأكيد أقل شهرة من بكين.

كاب زيم [سيم][2]

بعد مواجهة دامت عدة أيام لريح معاكسة على بحر مضطرب، لاح

---

(١) تلا محكي الرحلة هذه «**رحلة إلى جزر فورتيني، قمة تنريفي والكناري**» منشورات بلان و.. باريس، ١٨٨٠.

(٢) كاب سيم قريب من مدينة الصويرة. [المترجم].

لنا أخيراً الساحل الإفريقي، الذي كان يبدو غامضاً وغير محدد وسط الضباب. كان الوقت قد فات للرسو بمرفأ موكادور، وأن أرصفة بالكاد ما تُرى تصبح خطيرة خلال الليل. بحثنا عن ملجأ في جون صغير يشرف على كاب زيم. لم يكن النهار قد حل تماماً، وقد شرعتُ في اكتشاف الساحل بنظاراتي: لقد كان أحزن مكان يمكن تصوره. جبال رملية، حيث تنمو بعض جذوع الجولق المشجر التي نجدها في صحاري إفريقيا القاحلة، كما في المنحدرات الخصبة لقمة تنريفي[١]. في طية أرضية لاحت قبة نصف خربة، برزت حيطانها المطلية بالجير، بحيوية على اللون الأصفر للأرض.

في فجر اليوم الموالي أدلى القبطان الشراع، وفي السادسة صباحاً كنا قد أرسينا أمام موكادور.

مظهر موكادور

سيكون من الصعب إعطاء فكرة دقيقة عن مشهد غريب رأيته يجري أمام عيني حين صعدتُ إلى سطح المركب. وجدْنا أنفسنا في مأمن من جزيرة الحجر الصحي، التي لاحت بمدخل المرسى. في كل ما حولنا كانت تنبثق كثبان رملية ذات ارتفاع غير متساو بين الفُسحات الموجودة بينها كانت تظهر في البعد أولى السلاسل الجبلية للأطلس. انبثق من قلب شِبه جزيرة منخفضة ورملية، على مرمى بندقية، مجموع من الأبراج المربعة، ومن الأسوار المسننة، ومن الحصون، ومن الأبواب،

(١) تيد مونت هو أعلى قمة في جزيرة تنريفي بجزر الكناري، يصل ارتفاعه إلى ٣٧١٨ متر فوق مستوى سطح البحر، و٧٠٠٠ متر فوق قاع المحيط. [المترجم].

ومن وراء هذه البنايات ذات المنظر الميال إلى الحرب كانت تتدرّج سطوح لا عدّ لها تشرف عليها مآذن المساجد الشاهقة.

بالكاد ما تمكّنْت من رؤية هذا المشهد الجديد جداً، الذي جانبناه بالزوارق العربية كانت قد أتت لاستلام جزء من حمولتنا. كانت عبارة عن زوارق ثقيلة، عريضة ومنبسطة، كان على متنها عرب وزنوج. كانوا يجدّفون وهم يغنون غناء رتيباً وغريباً: كانت مجاديفهم المقدودة بخشونة جد قصيرة، ولاستعمالها كان عليهم أن يوجهوها بشكل قائم بالتناوب ويجعلوها تسقط بانتظام على مقاعدهم.

قوارب عربية

ارتميت في واحد من هذه الزوارق بمعية رفيقَي عبور، كناريين راغبين مثلي في زيارة المدينة التجارية للمغرب. تمكّن مجدّفونا بأمان من تجنب الأرصفة العديدة التي رصّعت المرسى؛ خلال ربع ساعة عبرنا تحت قنطرة مقببة تربط المرسى بميناء صغير يوجد داخل الأسوار، وأرسينا بجانب باب ذي طراز معماري دوري من المدهش جداً أن يستخدم كمدخل لمدينة مغربية: من حينها عرفنا أن موكادور لم يبنها مهندسون معماريون عرب.

الدليل عبد الله

كان لنا مرشد عربي يُسمى **عبد الله**، لم أكن أستطيع النظر إليه دون ضحك: كان أقصرنا يتجاوزه برأس. لم نكد نخطو خطوتين حتى انفرد بي وقال لي بإنجليزية مقيتة بأنه ينبغي علي أن أمده ببعض النقود من أجل أبنائه: وحين اعترضته بأن الوقت لم يُحن بعد لكي أكافئه على

خدماته، كان يلح، ويقول لي إن المجاعة التي اجتاحت المغرب خطفت منه ثلاثة أطفال وبنت. لحظات بعد ذلك سمعته يحكي نفس القصة لـ [رفيقي] **راميريز**، وهذه المرة بقشتالية سيئة، وبهذه الصيغة، أن المجاعة أودت له بثلاث بنات وولد.

حين ندخل إلى موكادور سنميل إلى محاولة الاقتناع بقول الرحالين ذوي الخيال الحماسي الذين تحدثوا بحماس عن ساحاتها الرائعة، وعن قصورها الفخمة. عبَرْنا أولاً ساحة شاسعة مفتوحة على الميناء، بإمكانها أن تقبل المقارنة مع ساحاتنا العامة، لم تكن سوى أرضها التي كانت غير منتظمة تماماً، معراة تماماً، ومغطاة بالأحجار وبقايا من جميع الأصناف. ثم دخلناها عبر بناية ضخمة سماها دليلنا **عبد الله** «ساحة منزل الحاكم». صادفنا بها شيوخاً يهود ذوي لحي بيضاء طويلة، وذوي مشية فخمة، وكسوة طويلة مسترخية، ذكرونا، لا إرادياً، بالبطارقة. قادتنا ممرات ضيقة محصورة بين أسوار عالية عارية إلى مبنى الجمارك، حيث تشرف المئذنة المهيبة المربعة للمسجد الكبير. ثم عبرنا درباً مختنقاً بين صفين من المنازل العالية البيضاء، ووصلنا إلى النزل الذي يحمل الاسم الإسباني فوندا ريال. يديره يهودي يطّلع بمهام تُرجمان بالبعثة الإسبانية. وهو النُّزل الوحيد بموكادور، بل هو النزل الوحيد الموجود على كل الساحل المغربي، من أكادير حتى طنجة[1]. فعلى باقي مواقع الساحل المسافر مُجْبر على المبيت في السفينة أو أن يطلب ضيافة بعض المقيمين الأوربيين.

---

(١) لقد كانت هناك نزالات بدل النزل. [المترجم].

الفوندا ريال

الفوندا ريال على الرغم من اسمه الفخم، لا يوجد فيه أي شيء ذي أبهة، وإنما توجد فيه أسرّة حديدية، ومطبخ على النمط الإسباني، وهذا كثير في بلد مثل هذا. أحسَنَت المضيفة تحضير بيض بالطماطم من أجلنا، ولحم البقر بالفطريات وقهوة رائعة أخذناها إلى غرفة ذات طابع عبري. كانت الحيطان مزينة بأشياء توراتية ومغطاة بحروف عبرية موضوعة على شكل شمعدان ذي سبعة فروع.

حالما حصلنا على مأوانا المتواضع، شرعنا في التجول بالمدينة، رفقة **عبد الله**. صُدمنا منذ الوهلة الأولى بانتظامها الكامل، الذي يتباين بشكل فريد مع مظهر باقي المدن المغربية. شوارعها مستقيمة، تتقاطع بزوايا قائمة، وتحديداً مثل المدن الأمريكية. من كان يتوقع أن يرى اجتياح عدوى الخط المستقيم في البلد الطريف! ومن يتصور أنها مدينة عربية، التي نحب أن نستحضرها مثل متاهة من الدروب الملتوية، من الممكن أنها مبنية بشكل شبيه برقعة الضامة! سأفشي بعد قليل سرّ هذا؛ توقّفت حاليا عن الاحتجاج على المدن العربية الشبيهة برقعة الضامة، حيث لا ينقص سوى بعض العرب بلباس رسمي.

تنظيم المدينة

هناك شارع عريض جد حيوي يعبُر المدينة بأكملها: إنه برادواي المكان. لكن هذا الشارع غير مبلط، ولا يوجد فيه تراماواي ولا عربات الحصان، وبحثنا فيه بلا جدوى عن العمارات التي تحدّ شارع نيويورك: كحوانيت لم نر سوى دكاكين متسخة بلا واجهات زجاجية متموقعة على بُعد قدمين من الطريق العمومي ومجهزة بدرجة خارجية من الخشب،

يقف عليها الزبائن لفحص البضائع المعروضة بالداخل. لا شيء أكثر غرابة من التباين بين التخطيط الفخم للطرق والمظهر الدنيء والقذر للأكواخ التي تحدّها.

القصبة والملاح والمدينة

المدينة مقسمة إلى ثلاثة أحياء ذات مظاهر مختلفة تماماً: القصبة أو الحي الأوربي، الملاح أو الحي اليهودي، والمدينة أو الحي العربي. تحتل المدينة طبعاً مساحة كبيرة: يسكنها على وجه الخصوص المغاربة، باستثناء ثلاث أو أربع عائلات أوربية تسكن فيها دون قلق، لأن المغاربة لا يرون بعين حسنة تجرؤ الأوربيين على الإقامة بينهم. ففي هذا الحي توجد الحوانيت وترتكز أغلب الصناعات: يوجد هناك سوق التحف، وهو مكان كبير مستطيل تحفُّه أروقة، ويحتل تقريباً وسط المدينة.

السوق

ذهبنا إلى سوق التحف في وقت التئام السوق. أمتنع عن وصف ازدحام الناس والحيوانات، عرب ويهود وزنوج وكلاب وحمير وجمال تزدحم هناك في هذه اللحظة: لا يمكن أن تتقدم خطوة دون أن تصطدم بالمصابين بالقرع والجرب والجذام، بحيث لا أحد يبدو أنه يهاب مجاورتهم. يطلق كثير من هؤلاء البؤساء على صدغهم قطعة صغيرة من الثوب سوداء اللون مثل قطعة نقدية من فئة فرنك ويعتقد أنها تحميهم من الآلام العصيبة ومن كل أنواع الأمراض. من وسط هذا الحشد النصف العاري علا تنافر الأصوات الأكثر إفزاعا أصمّ أذني أكثر من أي وقت مضى. يُعلن التجار بصوت عال عن أثمنة ما يعرضونه من بضائع

وسط الناس؛ يقرع باعة الماء بقوة أجراسهم: الأطفال يتعاركون والرجال يصرخون، ويتصارعون ويتشاتمون ويومئون مثل فاقدي الصواب حول نصف فلْس، لكنهم من النادر ما يعمدون إلى الاعتداء، لأنهم مسلحون بشكل دائم، وأقل عُنف يؤدي غالباً إلى صراعات دموية: رأيتهم عدة مرات يرفعون أيديهم مهددين، ولم يسبق لي أبداً أن رأيتهم يضربون. تتكون شرطة السوق من جنود يتجولون وسط الحشود: يراقبون التقيد بالتعليمات. والتجار الذين يفاجؤون بالغش في الميزان يتم جلدهم مباشرة بعين المكان: يقتاد الجنود الغاشَّ في الميزان إلى موظف خاص يترأس تنفيذ الأحكام ويحصي عدد الضربات على حبات سبحته.

جَلْد

عاينّا الإمساك بواحد من أولئك البؤساء. كان لمرافقي جرأة محزنة لمتابعة التنفيذ. تمّ تمديد المتهم أرضا وجهه مواجه للأرض، بعد أن تم تجريده من ملابسه: أمسكه مساعد من العُنق وآخر من الساقين ونزل عليه جلادان مسلحان بسياط الجَلْد على الظهر عدد الجلدات المحددة. ما هو مميت، فضلاً عن ذلك، بالنسبة للمجلود، هو أن يفرضوا عليه تأدية أجرة اللذين تكفلا بجلده: وإذا لم يكن له مال، يخضع لجلد إضافي.

المذبح

حين غادرْنا ساحة السوق، قابلْنا بشكل متتابع عدة بنايات مربعة لكل واحد منها وجهته المميزة. هنا يوجد سوق الفحم وهناك سوق القمح، وهناك سوق اللحوم؛ وبنايات أخرى مخصصة لصناعات

مختلفة: الفخار وصناعة السكاكين والنجارة والصياغة، لكل واحدة مكان محدد، حيث يعمل الصناع التقليديون أمام أعين المارة. ويشغل المذبح أيضاً مربعه المفتوح على كل قادم: وللدخول إليه ينبغي عبور جداول الدم حيث تتغذى آلاف الذباب والجوارح. كانوا يحاولون ذبح الثيران. وكانوا يحرصون، قبل الضغط بالسكين على الحنجرة، على التوجه نحو القبلة، كما لو أنهم يضحون من أجل النبي. كان زنوج شبْه عراة، مزودين بعصي، يضربون بقوة سواعدهم البهائم المذبوحة من أجل تسهيل عملية سلخ جلدها. لم تلاحظ أي تعليمات صحية داخل هذا المكان النتن الغارق في دم الأضحيات الخافقة، والمعروضة تحت كل نيران الشمس الإفريقية.

الحاكم

التقينا الحاكم بسوق التحف. كان ما يزال شاباً. كان يلبس قفطانا من قماش جميل وحايك من حرير ذي بياض ناصع. من خلال عزة نفس شخصه نكشف عن ذهنه الثاقب والمليء بالمكر. كان لواحد منا فكرة فريدة بأن يعبّر له عن الرغبة في رؤيته يصدر حكما أمامنا. أجابه بأنه لا يحكم إلا على الاعتداءات: وكان حينها رمضان؛ منذ أربعة أيام دخل كل الناس في صوم كبير، وفي الصوم يضعف الجسم ويكون المحبون للنزاع في عطلة: هذا هو السبب، قال بابتسامة ساخرة، كان يتمنى أن تكون كل الأيام رمضان. أعجبت بفلسفة هذا الحاكم؛ لكن ما أعجبني أكثر، وكان نعمة، النبل الذي صافحنا به. لم يكن يفعل لنا أحسن منها في قصر **لويس الرابع عشر**[1]. أبسط الحركات لدى المغاربة مطبوعة

---

(١) **لويس الرابع عشر** (١٦٣٨-١٧١٥) ملك فرنسا منذ ١٦٤٣ حتى وفاته. وهو أحد أبرز=

بنوع من المهابة. يُخجِل متوحشو المغرب هؤلاء بعاداتهم المتفردة الأوربيين.

الحي اليهودي

حي اليهود أو الملاح، هو واحد من الجوانب الأكثر غرابة في موكادور؛ لكن ينبغي توفّر قدْر من الشجاعة للمغامرة بالدخول إليه. إنه فوضى شاسعة من الدروب الضيقة والمظلمة والنتنة، حيث تعجّ داخل القذارة ساكنة تُقدّر بأكثر من سبعة آلاف يهودي. وهذا الحي، الذي تُغلقه الشرطة ليلاً معزول تماماً عن باقي المدينة، ولهذا السبب ربما النقاء مُبعد من هناك تماماً. فيهود المغرب، علاوة على ذلك، هم أعداء منذ الولادة للنظافة، ويصارع ناسهم القذارة ببيوتهم. يدير شؤون سكان الملاح قائد من دينهم وحاكم مغربي، الأول خاضع للثاني، وهذا الأخير هو نفسه موضوع تحت سلطة القايد.

قذارة المنازل

دروب الملاح أقل نتانة من دواخل المنازل. قُمنا بعمل بطولي بالدخول إلى تلك الأكواخ، التي يأوي كل واحد منها خمس أو ست عائلات: الفناء الذي ينفتح في وسط كل مسكن هو بمثابة موضع تجمّع أزبال كل الزوجات اللواتي تعشن في المنزل. توجد على السلالم، المطلية بالجير والمؤدية إلى الطوابق العليا، بعض القاذورات والنفايات

=ملوك البوربون، تولى الحكم وهو في سن الخامسة إلا أنه لم يكن يملك السيطرة الفعلية حتى توفي رئيس الوزراء «الكاردينال مازارين» في١٦٦١م. كان يلقب **بملك الشمس** وذلك لاهتمامه بالأدب والفن. وهو الذي قام ببناء قصر فرساي في فرنسا. [المترجم].

من كل الأصناف، والتعفّنات تسمم الجو، بعض الأشياء التي لا يمكن أن نسميها سوى باللاتينية. زرنا كل هذه الأشياء سيراً على أصابع الأرجل مغلقين أنوفنا. يعد ملاح موكادور، بلا شك، المكان الأكثر اتساخا في العالم: من المحتمل أن بالمدن الصينية، تبلغ هذه القاذورات البابلية، إلى هذه الدرجة القصوى منها يثير الاشمئزاز والانحطاط المنفر.

منازل المدينة اليهودية كلها متشابهة. تتوفر كل واحدة على ساحة داخلية. ويتم الصعود إلى الطابق بواسطة سلم ضيق الدرجات، بحيث أن القدم لا يمكن أن توضع إلا عرضاً. الغرف المختلفة ذات بساطة مماثلة: هناك مصباح معلّق بالسقف؛ الأرضية مثل الحيطان مطلية بالجير ومغطاة بحصير من السمار؛ وتوراة بحروف عبرية يشكل كل المكتبة، والناس ممدون بإقدام على الأفرشة الممدة على الأرض. حين دخلنا إلى هذه الأكواخ القذرة المخيفة، كنّا على الفور محاطين بكل أهل المنزل: كان رجال ونساء وأطفال يتناقشون التفضل بمنحنا كوباً كبيراً من الروم ممزوجا بالماء: تعالت صيحات متوحشة وأصوات حُلقومية أصمت آذاننا. كان ينبغي علينا أن نوزع بعض النقود عليهم كلهم.

ليس الناس الذين يقطنون بهذه المساكن مغرقين في الفقر كما يمكن أن نتصور: لكن لا يوجد مكان لا يخاف فيه اليهود إلى درجة كبيرة من الكشف عن ثرواتهم، خوفا من أن تجردهم منها الحكومة. يُخفون كل ما يملكون، ويعيشون في عوز مصطنع. التأنق وحده يُمكن أن يصارع بخلهم. رأينا في واحدة من تلك الدواخل ذات القذارة العجيبة، عروساً شابة ذات جمال رائع، مكسوة بأفخر الثياب. كان يغطي شعرها الأسود

حجابٌ من الحرير الأخضر، وشدّ قوامها حزام أحمر مطرّز بالذهب؛ وكانت تلبس قرطين من ذهب وتطوق عنقها قلادة من لؤلؤ، وكانت قدماها حافيتين وكانت يداها موشومتين برسومات حناء معقدة.

زواج يهودي

أتيحت لنا فرصة حضور حفل زواج يهودي. دخلنا إلى البيت حيث كانت تُقام الحفلة. شكّل حشد الأقارب والأصدقاء، المرتَدين أجْمل ما لديهم من ثياب، حلقة حول مائدة مُغطّاة بشرشف أبيض. أبْدت النّساء في هذه الاحتفالات ترفاً مفرطاً: لم تكن ترتدين سوى كِسوات مخملية أو من حرير، مطرزة بالذهب والفضة وقلادات ودمالج وخواتم وتيجان مرصعة بأحجار دقيقة. كانت العروس جالسة على الطريقة الشرقية على كرسي مرتفع، بين أبيها وأمها؛ كانت يداها مطليتين بالحناء ووجهها مغطى بحجاب شفاف: ظلت ثابتة وصامتة مغمضة العينين، لا يظهر عليها الفرح. كان زوجها المستقبلي جالساً قُبالتها من الجهة الأخرى من المائدة، ولا شيء بدا لي مضحكاً سوى هذين الخطيبين علانية أمام مائدة ولا يتسليان أبداً فيما بينهما. كان هناك بعض الموسيقيين يلعبون بالقطارة والطبل الباسكي، ويغنّون غناء رتيباً على إيقاع غريب. طلبْنا من والد العروس أن يكشف لنا عن وجه ابنته، إن أراد، وما إذا كان سيوافق على ذلك العريس. أجاب بقشتالية: «كما تحب». وأزال لحظتها حجاب العروس. أغلقت هذه الأخيرة عينيها، احتشاماً طالما بقي وجهها مكشوفاً؛ لكن حالما سقط الحجاب على وجهها، فتحت جفنيها بحيوية، لأنه ممّا لا شك فيه أننا هيّجنا بدرجة كبيرة فضولها الأنثوي. بإشارة من رأس بطل الحفل، أُحضِر طبق، ولكي يعطي المثل للحضور

وضع فيه دوكات[1]. قُدّم لنا الطبق، ووضع كل واحد هديته. وحينها قُدّم لنا الروم وبعض الحلويات، وشرع الموسيقيون يغنّون لنا مقاطع كان معناها: «مرحبا بالمسيحيين بيننا».

كان هذا الحفل مُسلّياً إلى حدّ ما، دام ثمانية أيام كاملة. يبدو أننا كنا ما نزال في اليوم الأول: حيث اقتصر على النظر: تواصلت في الأيام الموالية الموسيقى والرقص والولائم بلا توقف؛ في اليوم الثامن تم إنزال العروس من على كرسيها، وتمت قيادتها على شكل موكب إلى بيت زوجها المستقبلي. عندما يكون الجو جميلا، تقطع المسافة راجلة؛ وحين يكون رديئاً يتم رفعها فوق كرسي ويتبعها الموكب مغنياً مزامير **داوود** على ضوء مشاعل.

كنيس يهودي

لا يُظهِر اليهود أي صعوبة في السماح للأجانب بزيارة معابدهم. ويحتوي ملاح موكادور على العديد منها. كلها مبنية على نفس التصميم: صعدنا إليها عبْر سلم مغطى، كما في كل مكان، بطبقة سميكة من الجير، ودخلنا إلى غرفة صغيرة، حيطانها مكسوة بخشب الجولق؛ انبثق في الوسط عمودان مخددان يسندان منبراً. يوجد في أقصى القاعة بيت القربان المقدس، رواق معبد من خشب الجولق، مزين بأوراق النخيل وتعلوه موائد القانون: فهناك تم إيداع القانون وأقوال الأنبياء، مكتوبة على رقوق جلدية. عُلّق أمام رواق المعبد قنديل من زجاج مدعوم بواسطة مثلث مزدوج على شكل سطل **سليمان**.

---

(١) عملة ذهبية. [المترجم].

الأرضية من فسيفساء. أدوات التعبد والألبسة الكهنوتية محفوظة في خزانات بلا أقفال: وهي ذات وفرة لا مثيل لها، ولم تعرف أبداً أي حادثة سرقة. حين سألت عن السبب، أجابني حارس المعبد بأنه لا يوجد واحد من بين إخوته في الدين ليس له اعتقاد حميم بأنه سيفاجأ بالموت في اللحظة نفسها التي سيرتكب فيها تدنيساً مثل ذلك.

الحي الأوربي

بالإضافة إلى المدينة والملاح، تتوفر موكادور على حي ثالث يسمى القصبة. وهناك يوجد نُزلنا؛ وهناك يقيم التجار والقناصل الأوربيون. شوارع هذا الحي عريضة وتنعم بالتهوية بشكل جيد؛ منازله عالية وتُبدي ملمحاً نصف أوربي.

قصة مبشر إنجليزي

أجمل منزل بالقصبة كان يسكنه م. ج. وهو مبشر إنجليزي أثار ضجة خلال زيارتنا لموكادور. سبّب حضوره في فتنة صغيرة، فتم حبسه في بيته بأمر من القايد.

تكلموا لنا كثيراً عن هذه الشخصية، الذي كان لدينا فضول لزيارته. وجدناه رجلاً خمسينياً، ينعم بصحة جيدة، يتباهى بشاربين أصهبين. كان يتكلم الفرنسية والعربية بطلاقة.

اجتهد في جعْلنا نهتم بحديثه راوياً لنا كل المضايقات التي زعم أنه كان ضحية لها منذ أيام. خلال فترة المجاعة التي اجتاحت المغرب مؤخراً، أنقذ أسَراً كثيرة؛ إذ كان يوزع، يومياً، الخبز على ٣٠٠ طفل؛ وأنشأ، علاوة على ذلك، في بيته مدرسة للأولاد وأخرى للبنات: كانت

هاتان المدرستان مسايرتين بشكل جيد، وبشكل خاص من قبل الأطفال اليهود، كما أسس في بيته صيدلية، حيث كانت توزّع الأدوية مجانا، بالرغم من الاستياء الكبير للطبيب الأوربي للمنطقة.

حين لاحظ الآباء أن أطفالهم كانوا يستطيبون التردد على المدرسة والصيدلية، استيقظ تعصبهم، وعزموا على التخلص من هذا الأجنبي. ثار الحشد أمام منزله وأراد اقتحامه، حتى تطلب الأمر تدخّل الحاكم، الذي أودع الصيدلي السجن وكل خدم المبشر: أمر هذا الأخير بالبقاء محبوساً في بيته، في حين كان بيته تحت حراسة جنود مغاربة.

كانت المشكلة هناك، والسؤال المحلي الأكبر كان معرفة كيف ستنتهي. كان الإنجليزي يتذمر من قنصليّي النمسا وإنجلترا، كان الاثنان يهوديين معا، وكان يزعم أنهما اللذين ألّبا ضده إخوتهما في الدين. بعد استنفاد جميع الوسائل، وُضع نفسه تحت حماية قنصل إسبانيا بفضل تدخل هذا الأخير أصبح شخصه موضع احترام.واتتني، فيما بعْد، مناسبة ملاقاة وفد مؤلف من يهود ذي نفوذ كبير في موكادور على متن قارب. كانوا ذاهبين إلى طنجة من أجل إحالة أمره على وزير إنجلترا والمطالبة بإيقاف المبشر الذي قدموه لي كيهودي مرتد تظاهر بأنه إنجليزي، لكنه في الواقع واحد من الرعايا الروس كان في خدمة وكالة هداية إنجليزية. جاء إلى موكادور في فترة المجاعة، حاملاً معه مبلغاً ضخماً زوَّدته به الوكالة، بِنِيّة إدخال الأطفال اليهود إلى البروتيستانتية، وكان قد استمالهم بهباته ووعوده، وبصيدليته المجانية، وآلاف الإغراءات الأخرى: من هناك اندلع غيظ السكان اليهود. كان قد أمر بإيقافه لأسباب متعلقة بالنظام العام: كان يُخشى أن يُحمل اليهود على العنف، وكان هذا ما سيخدم، دون قصد، مصلحة المغاربة [المسلمين]؛ هؤلاء، الذين لهم عداوة متأصلة لليهود، سيستغلون أتفه

سبب ليقتلونهم جملة. وتاريخ المغرب يثبت ذلك. لا أعرف أي أمر أعطي بناء على طلب الوفد اليهودي: لا يبدو أنه من غير شك أن المبشر الإنجليزي أو الروسي عُرض عليه مغادرة البلاد.

هناك ظاهرة غريبة: إذا ما كان قد وُضع رجل في ظروف مواتية للنجاح، فهو ذلك المبشر الذي كان قد وصل إلى المغرب في أوج المجاعة، ويديه مملوءتين ذهباً بين يهود فقراء وطماعين. وكان متسربلاً بالعار ومحتقراً، وفشلت قوة الذهب أمام التعصب.

وهناك ظاهرة أخرى: لم يزعج هذا التعصب نفسه أربعة فقراء فرانسيكانيين كان لهم منذ مدة طويلة معبد بموكادور، وكانوا يحظون باحترام اليهود والمسلمين. التناقض مدهش جداً.

قنصل إسبانيا

يقطن قنصل إسبانيا واحداً من أجمل المنازل المغربية بالقصبة. قادني إليه رفيقاي الإسبانيين، وقضينا ساعة طيبة في الاستماع لمحكي قدّمه لنا عن أسفاره. لا يوجد رجل مثله قد عرف الشرق واكتسب عاداته. لقد أقام بالتناوب بمصر وسوريا وبلاد فارس، وبلاد العرب، وصرَّح بأن مناخ موكادور هو الأحسن في العالم، ادعاء سمعت بشدة اعتراضات كثيرة عليه من قِبَل مقيمين آخرين. وأسّر لنا بأنه لم يأت من هناك ليقيم هنا إلا من أجل الانعزال والتفرغ لتحرير كتاب كبير حول بلاد فارس، التي جاب فيها خلال سنتين ٥ آلاف فرسخ، على متن حصان. كان قد أغلق على نفسه داخل بيته، من الساعة السابعة صباحاً إلى الخامسة مساء، حيث كان يكتب محكي رحلته: في تلك الساعات لم يكن يستقبل أي شخص بذريعة أنه كان ببلاد فارس.

يوجد عدد كبير جداً من الأوربيين بموكادور، أكثر من أي مدينة مغربية أخرى، واغتنى كثير منهم بسرعة. بالفعل، تقيم موكادور تجارة مهمة مع وسط إفريقيا: فمن هناك تُصدّر السلع الأساسية للبلاد، التمر واللوز والتين والصمغ والزيت وريش النعام والزرابي، وخصوصاً الجلود والجلد المعروف باسم المغربي. وبحكم موقعه جنوب المغرب، على أبواب الصحراء، فميناء موكادور هو المنفذ الرئيسي الشمالي الغربي لإفريقيا: وتربطه طرق القوافل مع المدن الداخلية، مراكش وفاس ومكناس وواحات تافيلالت[1] وعين صالح[2] والصحراء وجنوب إقليم وهران والسودان. وعبر هذا الميناء تُجري فرنسا وإنجلترا تقريباً كل تجارتهما مع المغرب.

تُعدّ موكادور أجمل مدينة بالمملكة: لكني بحثت فيها بلا جدوى عن التحف التي وصفها الكتاب بأسلوب كان مفخرة لخيالهم. فبفضل أزقتها المستقيمة على الوجه الأكمل نالت هذه الشهرة التي أعطاها لها المغاربة.

أما بخصوص قصورها الرائعة، فقد تقلصت إلى صرح نصف مهدم، معروف باسم دار السلطان (قصر السلطان) والذي لا تسكنه

---

(١) منطقة تاريخية في الجنوب الشرقي للمملكة المغربية. ينعت ساكن المنطقة بالفيلالي تتكون من مجموع الواحات التي كانت تعد، تقليديا، نقطة وصول القافلات العابرة للصحاري إلى المغرب. [المترجم].

(٢) **عين صالح** مدينة تاريخية عرفت بمقاومة الاستعمار الفرنسي. أصبحت دائرة منذ عام ١٩٥٨م تعرف باسم منطقة تدكلت وهو الكف وسط اليد. تعتمد في مصدر الرزق على الغاز الطبيعي بالدرجة الأولى ثم التمور. وتقع في وسط الجزائر. [المترجم].

سوى العصافير. يوجد أيضاً منزل الباشا ومصلحة الجمارك والسجن، والتي ليس فيها أي شيء مميز. وتوجد أخيراً خمسة مساجد كلها متشابهة؛ يُعد المسجد الموجود بساحة الجمارك المسجد الأساسي، فكل جمعة يذهب إليه الحاكم لأداء الصلاة.

تتخذ المدينة شكل مثلث. كلها حديثة بحيث أنها لا تتجاوز سنة ١٧٦٠م. وإليكم الظروف التي تم فيها تأسيسها. كان يوجد، فيما مضى، الميناء الرئيسي للتجارة بأكادير[١]، وهي بلدة تقع في القسم الجنوبي للمغرب تُعرف باسم سوس. وكانت قبائل سوس دائماً مميزة باضطرابها وبرغبتها الشديدة في الاستقلال. وكانت الرسوم المحصلة من تجارة أكادير واحدة من الموارد الرئيسية التي كانت تمون الخزينة الملكية: وإذا بقبائل سوس في يوم من الأيام ترفض أداء الضريبة السنوية. وعِوض أن يشن عليهم السلطان **محمد**[٢] حرباً مدمرة، ابتدع طريقة أخرى لمعاقبتهم على تهديد مداخيل الخزينة: انتهى إلى إغلاق ميناء أكادير في وجه التجارة الأوربية، وأنشأ ميناء جديداً على الموقع الذي تشغله موكادور اليوم. وقد وظف في أشغال بنائه بعض الأسرى المسيحيين، وتم وضع تصميم المدينة من قبل مهندس فرنسي يُدعى **كورني**[٣]: وهذا هو السبب الذي جعل منظر المدينة جد منتظم.

---

(١) أكادير أو سانتا كروز، تم التنازل عنها لإسبانيا بعد حرب سنة ١٨٦٠: إنها ميناء مرفأ بالنسبة لصيادي جزر الكناري.

(٢) المقصود هنا محمد بن عبد الله. [المترجم].

(٣) هو تيودور كورني (Cournut Théodor) رياضي ومهندس معماري عاش في القرن الثامن عشر. [المترجم].

أصل موكادور

أنشأ **كورني** مدينة مغربية على تصميم أمريكي. يُطلق عليها المغاربة اسم الصويرة (الصورة)، لأنها في نظرهم صورة كاملة لمدينة مبنية بشكل جيد. واسم موكادور المعروفة به عموماً، منحه لها الأوربيون. تم الانتهاء من أشغال بناء المدينة في عشر سنوات ١٧٧٠م؛ فأمر السلطان التجار الأوربيين بالاستقرار فيها. وبذلك حجبت موكادور بشكل كامل أكادير التي لم تعرف كيف تنبعث من أطلالها. هكذا بلغ **محمد**[بن عبد الله] هدفه: فجعل من موكادور بؤرة التجارة المغربية، وقضى على متمردي سوس[١].

موكادور محاطة بأسوار محمية بمدافع رائعة. تقي المدينة من الهجمات الحربية لجبليّي الأطلس الكبير. تعيش هذه القبائل البربرية من الحرب ومن النهب، إذ تنهب سكان السهول، وهي بشكل دائم في تمرّد على السلطان الذي تتحدى سلطته في جبالها الوعرة. يُزعم أنها تعتنق ديانة سابقة على الإسلام.

تفجير المدينة سنة ١٨٤٤

لا يمكنني بشكل جيد مقارنة الأسوار المسننة المحيطة بموكادور سوى بتلك التي كانت تحيط بمدن القرون الوسطى، والتي ما تزال ترى في أفيلا (Avila)[٢] وكاركاسون (Carcassone)[٣] لم يجِد العرب عن

---

(١) -Lempiere, **Voyage dans l'empire de Maroc et le royaume de Fez**, fait pendant les années 1790 et 1791, Paris, an ix, 1801.

(٢) مدينة إسبانية تعود إلى القرون الوسطى. [المترجم].

(٣) مدينة بجنوب فرنسا ذات بناء قروسطي. [المترجم].

نظامهم القديم في التحصين. يعلم الجميع أن هذه الأسوار تم تفجيرها سنة ١٨٤٤م بواسطة الأسطول الفرنسي تحت أوامر الأمير **جوانفيل**[1]. فهرب كل السكان إلى البوادي، وتم احتلال المدينة دون مقاومة. يوجد بجانب الأسوار والحصون عدد من كرات المدافع والقنابل اليدوية؛ المدافع التي لا تشتغل مرمية من أعلى بطارياتها ما تزال فوق الرمل. لم يكلِّف المغاربة أنفسهم عناء رفعها أو استبدالها؛ هذا الصنيع سيحدّث طويلاً عن اللامبالاة المزمنة لهذه السلالة التي كانت قديماً أكثر بسالة وبطولة.

رمضان

تزامن وجودي بموكادور مع حلول رمضان[2]. خلال هذه الفترة من الصيام الذي يدوم شهراً قمرياً، لا يمكن للمغاربة، من الفجر إلى غروب الشمس لا الشرب ولا الأكل ولا التدخين ولا التمتع ولا الدخول على نسائهم. وبالمقابل بإمكانهم التعاطي لكل الشهوات ابتداء من اللحظة التي لا يستطاع فيها التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود. تدوّي في كل مساء طلقة مدفع من أعلى مئذنة المسجد الكبير معلنة لسكان المدينة عن اللحظة المحددة التي تختفي فيها الشمس. يمسك المغاربة، المجتمعون حول المسجد وأنوفهم مرفوعة نحو السماء في اتجاه قمة المئذنة، بيد غليون الكيف وبالأخرى عود ثقاب: ما أن

---

(١) هو الأمير **فرانسوا أورليان** (**prince François Ferdinand d'Orléans**) (١٨١٨-١٩٠٠) هو ابن الملك **لويس فليب**. [المترجم].

(٢) يعني رمضان «النار المطهرة» سنّه محمد [النبي]. الجلد هو العقاب المخصص لكل من ينتهك تعليمه. وأيضا كل الناس يلتزمون به بإجماع مؤثر.

يروا بريق طلقة المدفع، بل قبل قرع صوت الطلقة طبلات آذانهم، يشعلون أعواد الثقاب ويستنشقون أنفاس الدخان بتلذذ. بالنسبة للمغاربة، كما هو الشأن بالنسبة للأتراك فالغليون يأتي قبل الطعام. أما المغاربة الأكثر زهداً، فقبل أن يفطروا، يذهبون إلى المسجد يتوضؤون ويصلون.

جولة ليلية

كنا نأمل في أن نزهة ليلية ستكشف لنا عن أسرار رمضان؛ لكن خُيّب انتظارنا. كانت الدروب مقفرة وغارقة في الصمت. وبما أن القمر كان محجوباً كنا نصطدم في كل خطوة، في الظلام، ببعض الأجسام الصلبة أو الرخوة من كل الطبائع. من خلال فرجات الأبواب كنا نستطيع رؤية المغاربة نائمين خلط ملط في أكواخهم، لكن لم يكن رمضان أبداً مشكلة. صاح بنا مرتين من هناك بعض الحرس الذين كانوا يراقبون الشوارع: لا شك أن الإسبان استعاروا من المغاربة هذا السلوك. كنا نقابل بين الفينة والأخرى مغربياً مميزاً بسيره على ضوء مصباح يدوي أنيق. كان الجو بارداً في تلك الليلة، بشكل لم أستطع توقع ارتفاع مماثل له في شهر غشت بجنوب المغرب وبأبواب الصحراء. كان يسقط على أكتافنا طلّ بارد جداً، وكانت الأحجار المبلطة بما فيها دروب الملاح جد باردة مثل ضبابنا الكثيف في الشتاء.

البراغيث

عُدنا إلى النزل مجمدين ومتعبين. فكرنا في النوم عاجلاً؛ لكننا لم نُعر الاعتبار للبراغيث والمؤذن. تقتسم البراغيث العربية، على الأرجح، مع المسلمين كرههم للمسيحيين. كانت تمتص دماءنا بحيوية

متصلبة وكانت لسعاتها تجعلنا نغتاظ. كانت تبدو لنا هذه الوحوش المخيفة أكثر من ألف، أُرهقنا تماماً، فبعْد جُهد جهيد لإبعادها سقطنا في نوم عميق.

بوق المؤذن

لم يتأخر ضجيج غير مألوف في سحبنا من بساط النوم في منتصف الليل. لقد كان الصوت الحاد لبوق. ارتأى [رفيقي] **راميريز** الذي كان يشاركني الغرفة، أنه إن لم يكن بوق يوم الحشر، سيكون إنذاراً للسكان لحمل السلاح لصد هجوم شنته قبائل من الصحراء. لكنني تذكرت جيداً في حينه أننا كنا في رمضان، فافترضت أن بين البوق ورمضان شيئاً مشتركاً.

كان الصوت يرتفع وينخفض بشدة، وفهمنا أنه المؤذن الذي كان منتصبا فوق مئذنة المسجد، كان يؤذن بالتناوب من البوق نحو الجهات الأربعة الأساسية.

نفَخ هذا النذل في البوق هكذا ساعة كاملة، كما لو أنه وجد لذة جهنمية في حرماننا من النوم. ثم بعد ذلك عمّ صمت عميق، واعتقدنا أخيراً أنهم سمحوا لنا بالنوم.آه! حسناً أجل، لم يترك المؤذن البوق إلا ليضع في فمه آلة تجعل النبرات شبيهة بنبرات مزمار القربة. كان [رفيقي] **راميريز** المغتاظ يريد، بأي ثمن، أن يجرّني معه للذهاب لإسقاط المؤذن من أعلى مئذنته، الذي كان يبدو أنه أقسم على أن يحرم بعض المسيحيين الشرفاء من نوم مستحق تماماً.

إليكم سبب هذه الجلبة. خلال رمضان يتناول المغاربة وجبتهم

الرئيسية[1] في منتصف الليل، ويبدو أنهم يتعاطون لولائم ضخمة استعداداً لصوم النهار. يؤذن المؤذن بالبوق ليوقظهم من نومهم ويلعب بمزمار القربة طوال فترة الاحتفالات.

صوم غريب هذا الذي لا يفرض أي حرمان، لكنه يجعل من الليل نهارا، ويسبب في ضرر كبير للصحة العمومية بأن تقوم بما تقوم به خلال أربعة وعشرين ساعة في بضع ساعات.

منظر الجو

لن يتأخر الأجنبي الذي يرسى بموكادور في رؤية أن الجو له طابع كدر، وذلك بسبب وضع المدينة وسط سهل رملي: تطفو جزئيات من الرمل ذات رقة قصوى في الهواء بشكل دائم تحملها الرياح الصابيات؛ تتنفس الخياشم الرمل مع الهواء. تم إغلاق الشقق بإحكام، لكن العدو يتسرب عبر فجوات الأبواب والنوافذ: لا شيء يوقفه، وهذا الغزو الدائم للرمل هو واحد من أخطر عيوب الإقامة بموكادور.

سلامة المناخ

ويبدو، علاوة على ذلك، أن مناخ هذه المنطقة جد صحي بشكل لا يُصدّق. تهُب بها الريح الشمالية الشرقية، بشكل دائم، من أبريل إلى أكتوبر وتبدد الأبخرة العفنة المرضية المسممة للجو، تلطف الريح إلى هذه الدرجة الجو وهو ما يجعل موكادور، التي تقع على الرغم من ذلك، في أقصى جنوب المغرب، تخلو من الحرارة الشديدة.

---

(١) يقصد السحور. [المترجم].

تحمي جبال الأطلس العليا المدينة من الرياح الصحراوية الخانقة. لن أصدِّق هذه الحقيقة التي تم تأكيدها لي، وهي أن صيف موكادور يكون أكثر برودة مثل الشتاء، إن لم أر بها في شهر غشت ضباباً كثيفاً يجمِّد العظام. كان المحرار يسجل في هذه الفترة من ١٨ إلى ٢٠ درجة مئوية: إنها نصف معدل درجة حرارة الصيف تحت نفس خط العرض بالجزائر.

انقسمت آراء المقيمين، علاوة على ذلك، بخصوص مناخ موكادور. يعلن البعض أنه الوحيد في العالم، بينما يرى البعض الآخر أنه سيء.

الأمراض المألوفة لدى المغاربة

قال لي نائب قنصل إسبانيا إن الرطوبة تسود بموكادور طوال السنة مع مرافقيها من الروماتيزم والآلام العصيبة: لا يوجد أي أوربي، وفقاً له، أصابه بموكادور هذا الداء أو ذاك؛ لكن كل الناس يوافقون على أن الإقامة بموكادور ممتازة بالنسبة للمصابين بالسل، بفضل اتساق حرارتها.

تظهر في الغالب الكوليرا هنا كما في باقي المملكة؛ لكنها لا تصيب سوى الأهالي. بسبب استهانتهم المطلقة بالإرشادات الصحية، فالمغاربة، فضلاً عن ذلك، هم موضوع لحشد من الأمراض مثل الجذام والفيال ومرض العيون والفيلة والقرع. ولا يستعملون التلقيح، على الرغم من النموذج الذي يقدمه لهم اليهود والنصارى الذين يعيشون بينهم. ليس هناك مرض يتردد كثيراً مثل أمراض العيون، التي تسبِّبها الشمس الحارقة والتي لا يستطيع المغاربة الاحتماء منها: فاستعمال

المظلات، في الواقع ممنوع في كل المملكة. لأن المظلة رمز للسيادة، والسلطان وحده هو المخول له الاستمتاع بها[1].

ضواحي المدينة

مكنتنا جولة في ضواحي المدينة من معرفة صحراء الرمل المتحرك المخيفة التي هي ضاحيتها. أثبتت آخر جريمة قتل رسام المناظر الشاب ابن فيينا **جوزيفلادان** (Joseph Ladein) أنه ليس آمنا أن يغامر المرء وحيداً خارج المدينة. خرجنا مصحوبين بالدليل **عبد الله**، من باب آسفي، وبمُجَرد ما غادرنا أسوار المدينة حتى استقبلنا غبار يعمي العيون. لم تكن هناك أي شجرة في الأفق. لا يوجد شيء نتصوره أكثر حزنا من هذه البادية القاحلة: كانت هي بداية الصحراء، ففي هذا البلد المخيف عنّ لمستبد أن يبني الميناء الرئيسي للتجارة بالمغرب. بعد أسوار شمال المدينة، يوجد هنا وهناك، بستان بئيس ينتج بصعوبة الذرة والكرنب والتين الهندي القرمزي وأشجار الموز: وتلك البساتين أكثر عرضة للإتلاف بشكل دوري من قِبَل رُحّل الصحراء.

مقبرة اليهود

غير بعيد عن باب آسفي رأينا مقبرة اليهود. قبورها مقدودة على شكل متوازيات السطوح يبلغ طولها مترين؛ نقشت عليها كتابات بحروف عبرية. هذه المقبرة التي لا تظللها ولا شجرة واحدة، مجتاحة بالرمل، ولاحظت أنها تقع فوق مستوى البحر. توجد مقبرة المسلمين

---

(١) علي باي، **رحلات عبر المغرب**، ترجمة مزوار الإدريسي، منشورات ليتوغراف، طنجة، ٢٠٠٨، ص.١٦٥. [المترجم].

قُرب باب مراكش؛ الدخول إليها ممنوع على المسيحيين، لكننا تمكننا من تكوين فكرة عنها عن بعد. هنا لا يوجَد أثر واحد: أوتاد مغروزة بالأرض هي الوحيدة التي تحدد مكان القبور؛ لا يوجد بها أي نباتات أخرى سوى نبات الجولق النحيل. في كل ليلة تضرب كل بني أوى النواحي موعداً بها.

قبة سيدي موكادور

قادنا عبد الله بعد ذلك إلى قبة سيدي موكادور[1]. سِرْنا لمدة بمحاذاة أسوار المدينة، وكانت شرفاتها تنشر بجلاء ظلالها على التربة المكلسة المتصلبة بسبب الجفاف. ترقد بجانب هذه الحيطان المحصنة بأبراج جبال من القاذورات تسمم الجو: وذلك هو المكان الذي تتراكم فيه كل أزبال المدينة.

بعْد ساعة من المشي وسط الرمال، وصلنا إلى المكان المقدس الذي استقت منه موكادور اسمها. وهو بناية صغيرة مربعة تعلوها قبة مثل كل القبب. وهي قبر شخصية مقدسة قصته ليست طويلة، بحيث أن لا أحد يعرف من هو وإلى أي ديانة كان ينتمي. يتصارع المسلمون واليهود عليه بنفس الحدة. يفترض كاتب إسباني جدير بالتقدير، أنه قائد سفينة دنمركية هلك على الساحل المغربي[2].

---

(١) القطب الشهير ذو الكرامات الظاهرة سيدي مكَدول بن عبد الجليل الركَراكَي، كان عالماً صالحاً وله القدم الراسخة في الشجاعة ومن المجاهدين الأعلام. بعد وفاة سيدي مكَدول، أصبح ساحل هذه البلاد يعرف باسمه. أحمد الركَراكَي، **الشموس المنيرة**، ص.٥٢. [المترجم].

(٢) **Description historica de Marruecos,** por el P.Fr. Manuel Pablo Castellanos.

قصة معجزتين

رُوِيَ لي أن أحد الكبراء اليهود بموكادور، اسمه **دانيال**، وهب إليه يوماً أضحية باذخة واحتفالية في ظروف تبرز كيف أن الصدفة تسنح غالباً بطريقة عجيبة لتصلح مادة لتعصب المسلمين.

كانت سفينة تجارية قد جنحت إلى الساحل وحاول اليهودي **دانييل** تعويمها. اشتغل دون نجاح يذكر عدة أيام، وحين كان ناسك ماراً من هناك أجرى معه هذه المحادثة:

«ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ تعويم هذه السفينة.

ـ لن تنجح أبداً وإلا ستهبُني ثوراً على قبر **سيدي موكادور**».

كان الجواب الوحيد هو أن هزّ اليهودي كتفيه وبدأ يشتغل. كل يوم يعاود الناسك الكرة. بعد خمسة عشر يوماً في أشغال لا طائل منها، خضع اليهودي لإلحاح الناسك. ولكي يعرف كيف ستسير الأمور، قرر أن يهبه ثوراً كأضحية، وقد كلّفه هذا الفصلَ من الطائفة اليهودية التي سيعود إليها بواسطة قدر من المال.في اليوم الموالي شرع في العمل أمام كل السكان المجتمعين، وتحققت نبوءة الناسك. صرخ المسلمون للمعجزة.

لكن **دانييل** لم ينعم كثيراً بثروته الجديدة: في اليوم نفسه الذي عادت فيه السفينة إلى البحر، قُذفت مرة أخرى إلى الساحل بهبّة ريح. وفي هذه المرة انشطرت إلى قسمين. لكي يفسر المسلمون هذه المعجزة الجديدة، ادعوا أن الباخرة تعلقت بالوليّ فعادت إليه.حكى لي مؤتمن شركة بّاكي بموكادور، واقعة من نفس النوع. في يوم من الأيام جاء حجاج للبحث عنه للاشتكاء من تأخّر السفينة التي كانوا سيركبونها

للذهاب إلى الحج بمكة. أكّد لهم أن الباخرة المنتظرة ستصل في اليوم الموالي على أبعد تقدير. لكن في اليوم الموالي لم تأت الباخرة، ولم يردّ المتعصبون شيئاً أقل من قتل المؤتمن المسكين. قبْل تنفيذ خُطتهم، واتتهم فكرة الصعود إلى صومعة المسجد: وهناك دعوا الله، ولم تكتمل صلاتهم حتّى لاحت لهم مدخنة الباخرة في الأفق.

بسبب وقائع مثْل هذه يُبْقِي الأولياء على تعصُّب المسلمين.

الفصل الرابع:

الساحل المغربي

المشاريع الفاشلة

موكادور هي نقطة انطلاق القوافل الذاهبة إلى مراكش التي هي واحدة من العواصم الثلاثة للمملكة. كنت أرغب بشدة في استكشاف داخل المغرب. روادَتْني بشكل خاص الرحلة إلى مراكش التي لا تستغرق سوى خمسة أو ستة أيام على متن حصان: هذه المدينة غير معروفة كثيراً مقارنة مع فاس، التي تمت زيارتها في العديد من المرات من قِبَل السفارات الأوربية، وكان من بينها كاتب ظريف، هو **إدموند دوأميشي**[1]، الذي كان قد قام مؤخراً بوصف رشيق للمغرب، والسيد **هوكر** عالم النبات الإنجليزي الذي كان قد أتى للتو من رحلة إلى مراكش وأصدر عنها محكياً مثيراً[2]، وكان يريد أن يمدّني قبْل انطلاقي بمعلومات دقيقة عنها.

---

(١) اسمه الكامل إدموندو دو أميتشي (Edmondo De Amicis) (١٨٤٦م-١٩٠٨م) رافق أول سفير إيطالي إلى المغرب ستيفانو سكوفاصو (Stefano Scovasso) خلال مباحثاته مع السلطان الحسن الأول سنة ١٨٧٥م. كاتب وصحفي له كتاب يحمل عنوان **المغرب**. [المترجم].

(٢) **journal of a tour in morocco and the great atlas.**

لكنني حينما وصلت إلى موكادور تخلّيت عن هذه المشاريع الكبرى. لقد كانت مجاعة مخيفة قد أودت بحياة ثلاثة ملايين نفس، حوالي ثلث ساكنة المملكة؛ خلال هذه المجاعة تمت رؤية الجياع يزاحمون الكلاب في طعامها؛ وكان الأموات يتعفنون في الطرقات بلا قبور. كانوا يتصورون أن الكوليرا تُتبع، لا محالة، بنكبة. كان الوباء يجتاح بشدة داخل المغرب، وخصوصاً، مراكش. كانت اللحظة سيئة الاختيار لزيارة هذه المدينة التي كان كل الناس يهربون منها. وتمّ نصحي بالذهاب بالأحرى إلى فاس، انطلاقاً من طنجة، لكنني توقفت عند هذه الأخيرة.

كيف يهدئ المغاربة الأمواج

غادرت موكادور في جو غارق في الضباب جدير بطرق كلاسكاو. يعتقد في أعين الأهالي أن الإبحار في الضباب نذير شؤم، لأن عجوزاً مسلمة كان ابنها على متن القارب الذي سيأخذنا إلى السفينة، صبّت بالبحر قليلاً من الزيت، رافعة عينيها نحو السماء: سلّت هذه الطريقة في تهدئة الأمواج كثيراً رفاقي؛ لكن المرأة المسكينة كانت جد مقتنعة، وكانت تبدو جد متأثرة، لدرجة أنني لم أكن أملك الشجاعة للضحك على قلقِها الأمومي.

جزيرة الحجر الصحي

لم نتمكن من الإبحار إلا بعد ساعات من الانتظار، بعد أن انقشع الضباب قليلاً. درنا حول جزيرة موكادور التي تحمي الخليج من جهة الشمال. ليس بهذه الجزيرة سوى بعض الأرصفة باستثناء الجهة المقابلة للمرسى: وهي محمية بواسطة بعض المدافع. لكن المدافع تمت إزالتها

من قِبَل الفرنسيين سنة ١٨٤٤م. منذ أن أجبرت القوى الأوربية الحكومة المغربية على إخضاع الحجاج العائدين من مكة للحجر الصحي، أصبحت جزيرة موكادور محجراً صحياً: وهناك ينزل الحجاج بعد عودتهم من المدينة المقدسة. إذا لم تسجل حالة وفاة أثناء العبور، ولم يُعلن عن أي مرض مُعْد على متن السفينة يكون بإمكان الحجاج الرّسُو على البر خلال ثلاثة أو أربعة أيام، ويستقبلهم إخوتهم في الدين بمظاهرات كبيرة تعبيراً عن الفرح مصحوبة بموسيقى؛ وعلى العكس إذا خضعت الحالة الصحية لأي ضرر يُجبر الحجاج المساكين على حجر صحي بالجزيرة يدوم ١٥ يوماً.

الحُجّاج

حينما غادرنا المرسى كنت ألاحظ العابرين. كان أغلبهم حُجاجاً كانوا ذاهبين إلى مكة، وبعضهم كانوا عائدين منها. بعد أن يقضوا هذا الحجر الصحي بالجزيرة، كانوا يعودون إلى بيوتهم. حسب عادات المسلمين، كانوا يسافرون ومعهم عدة نومهم، وكانوا يقضون كل وقتهم في النوم بكسل على الأفرشة والأغطية التي كانوا قد مددوها فوق جسر سطح السفينة. وأكثرهم فطنة كانوا مزودين بخيمة تحميهم من حر الشمس خلال النهار، ومن الرطوبة خلال الليل. في بعض الساعات كانوا يؤدون صلواتهم مولين وجوههم نحو القبلة: كانوا يصلّون على النبي مقرفصين على مؤخرات أقدامهم وبعْد فاصل كانوا يسجدون ثلاث مرات وكانوا يقبّلون أخشاب الجسر. كانوا يقومون بهذه المراسيم، دون أن يعيروا أي اهتمام بأي طريقة لحضور المسيحيين الكلاب. في بعض الأحيان كانوا يُروْن تحت ضرورة محزنة يقطعون فجأة ممارساتهم الورعة بالجري إلى درابزين السفينة من أجل الانصراف إلى ما كان يسببه

لهم البحر من آلام. ألم البحر متنافر تماماً مع الكرامة الإسلامية. حين كان يمضي وقت الصيام كانت الغلايين تشعل في نفس الآن؛ ثم يتم تحضير الشاي لأن كل واحد كان يحمل معه عدة المطبخ. ما كان يستهلكه أولئك الناس من الشاي كان مذهلاً: يبتلع مغربي يحظى باحترام ثلاثين كوباً من الشاي في اليوم. وليس أبداً أقل من ثلاثة أكواب في وقت واحد.

كان من بين هؤلاء الحُجاج رجل مسكين كان عائداً من مكة، لم يكن له من ملابس سوى قميص أوربي بال. كان هذا الرجل يعرف بضع كلمات إنجليزية وإسبانية، كان ينطقها بالطريقة الأكثر إثارة للضحك. فور غروب قُرص الشمس انخرط في حركات ساخطة، كان يعبِّر عن فرحته بتقطيبات وجْه بعيدة جداً عن المعقول، وأخذ يلتهم بنَهَم كل ما كان يسقط بين يديه. دين غريب! وحُجاج غريبو الأطوار!

الحُجاج اليهود

وكان أيضاً على متن السفينة حجاج يهود كانوا ذاهبين إلى القدس. كثيرون كانوا يسافرون في الدرجة الأولى، لكنهم لم يكونوا يريدون أبداً الأكل من مائدتنا. لأنهم يحرصون على عدم استعمال الأواني المدنسة من قبل المسيحيين؛ وكانوا يحملون معهم أوانيهم الخاصة، وكانوا يستعملونها على حدة، وهذا ما كان يجعلنا جد مغتبطين، لأنهم كانوا متسخين أكثر من الحجاج المسلمين. أعلمني صاحب الفندق، بشكل سري، بخوفهم المقدس من لحم الخنزير: وأكد لي أن أبناء إسرائيل هؤلاء كانوا يحبون فخذ الخنزير المملح، وكان يأتيه واحد منهم أو آخر أحياناً ليطلب منه قطعة وكان يلتهمها خُفية بشهية.

من بين العابرين اليهود لاحظت امرأة كان وجهها محروثاً بتمزقات عميقة: حُكي لي أن العجوز كانت قد فقدت للتو ابنها، وقد ندبت وجهها بنفسها. وبالمغرب حين تفقد يهودية ابنها، تذهب إليها صديقاتها ويقمن لها تأبينا للمتوفى: خلال كل مدة هذا التأبين، تنفجر بكاء، تنتف شعرها وتغرس أظافرها في خذيها.

خط بّاكي

كُنت على متن سفينة تابعة لخط باكي. إنها عبّارة قديمة، من النموذج الصغير جداً، والتي كانت في شبابها تقوم بالرحلة من لشبونة إلى ريو[١]. اشتُرِيت شركة باكي مؤخراً من قِبَل شركة برتغالية وتم تسميتها باسم فوسك. كانت مهيأة بشكل جيد بحيث كنت أُفضّل القُمرة على سطح المركب، لأن الجو الداخلي في هذه السفن خانق جداً. يحلّ خط باكي الساحل المغربي مرتين في الشهر، في تنافس مع خط إنجليزي لشركة المغرب للنقل البحري ليس لهذه ولا لتلك انطلاق قار: إنها خطوط تجارية؛ تتوقف بكل ميناء يوماً أو عدة أيام، حسب عدد الطرود التي تحملها أو تنزلها، وأيضا بحسب حالة البحر: وفي الواقع يحدث غالباً أن التموج يجعل الاتصال مستحيلا مع الساحل، وفي هذه الحالة، يتم حل ذلك بانتظار تحسُّن الجو في عرض البحر. ولهذا السبب فالرحلة من موكادور إلى طنجة، والتي يمكن أن تتم في ثلاثة

(١) ريو دي جانيرو **Rio de Janeiro** نهر يناير أو ريو اقتضابا، ثاني مدن البرازيل سكانا بعد ساو باولو، تأسست في ١٥٦٥. تعتبر من أجمل مدن العالم من قبل الكثيرين. تقع في ولاية ريو دي جانيرو وهي عاصمة الولاية، وكانت المدينة العاصمة السابقة للبرازيل قبل بناء برازيليا العاصمة الحالية. [المترجم].

أيام، تمتد في الغالب إلى أسبوعين أو ثلاثة، خصوصاً في الشتاء، يمدد الضباب وصعوبة اختراق الحواجز التي تحجُب أغلب الموانئ المغربية بواسطة الزوارق، بشكل غريب العبور، بما يرضي صاحب الفندق.

أخطار الإبحار

يبقى الإبحار على طول الساحل الأطلسي المغربي واحداً من الإبحارات الأكثر خطورة في العالم. فالبحر متموج تقريباً بشكل دائم، حتى في فصل الصيف. وكل الساحل متناثر بالصخور البارزة، فلا يمكن أن نبحر إلا في النهار، لأن السواحل عموماً منخفضة جداً، ولا وجود لمنارات بها. ما جدوى أن تنصِب الحكومة المغربية منارات، بينما هي لا تتوفر على أي سفينة! تمّ التأكيد لي أن أكبر قارب مغربي يمكن أن يسع ١٤٠ برميلاً من السكر. نحن بعيدون عن الزمن حين كان القراصنة المغاربة مروعي المسيحية يتجرؤون على الإبحار حتى المياه الإنجليزية.

مظهر الساحل

علاوة على ذلك فالساحل لم يُدرس بما يكفي على المستوى المائي. تتوقف المؤشرات عند ٢٣ قامة: غير أن كاب سيم موّجنا إلى ١١ قامة. لا يمكن، إذن، أن نندهش أبداً لتردد الكوارث. من كاب سيم إلى كاب سبارتيل كل الساحل متناثر بحطام السفن، وفي الغالب فبهذه الحطامات كان يتم التعرف على وجود صخور تتكسر عليها الأمواج. غرقت في هذه السنة ذاتها سفينتان في نفس الأسبوع أمام ميناء مازكان: فُقدت سفينة الأمازون التابعة للخط الإنجليزي، على رصيف بسبب تضبب الجو: وسفينة المغرب التابعة للخط الفرنسي، كان لها ممر مائي وكان ينبغي عليها أن تجنح نحو الساحل من أجل إنقاذ الطاقم.

تُقدم رحلة بحرية على طول الساحل المغربي قليلاً من المسليات، خارج التوقفات. ويُعد هذا الساحل هو الأكثر كآبة ورتابة الذي يمكن أن نتصوره، لا يوجد، على مسار يبلغ ٢٠٠ فرسخ، سوى توال ممل لكثبان رملية ذات قحولة مطلقة: خط أصفر قارنْتُه عن طيب خاطر بالساحل المنخفض لهولاندا، باستثناء لون السماء، أو أفضل من ساحل الولايات المتحدة الأمريكية، بنواحي خليج شيزابيك[1]. كنا نرى من حين لآخر قُبة بيضاء هي بمثابة قبر لولي؛ وأحياناً أيضاً قلعة مخصصة لحماية المسافرين والحجاج من هجمات قُطّاع الطرق الذين يعيثون في البلد فساداً. تلك القلاع والقبب هي نزالات[2] القوافل التي تسير براً من طنجة إلى موكادور. تلك الرحلة طويلة وشاقة، والرقاص الذي يسلكها جرياً على الأقدام، دون استراحة ولو للحظة، لا يعبر هذا المسار في أقل من ستة عشر يوماً.

القرش

في هذه النواحي المحيط كثير الأسماك للغاية. كانت خنازير البحر السابحة بقفزات محكمة تصارع بسرعة السفينة، ولا شيء كان جد مسلّ

---

(١) **خليج تشيزبيك** يقع قبالة الأراضي الأمريكية تبلغ مساحته قرابة ١٦٦٥٣٤ كم مربع ويرفده أكبرمصب نهري في الولايات المتحدة، يجاور الخليج ولايتي ميريلاند وفرجينيا وبعضا من ولاية فيرجينيا الغربية ونيويورك وبنسلفينيا وديلوار وهناك ما يبلغ ١٥٠ نهراً ونهيراً تصب في الخليج، يبلغ طوله في أقصى مدى يبلغه ٣٠٠ كم طولي بدأ من نهر سسكوينا وحتى المحيط الأطلسي، ويعبر الخليج جسر خليج تشيزبيك. [المترجم].

(٢) كانت «النزالة» محطة استراحة توفر للمسافرين والقوافل الأمن والمبيت والأكل والشرب، مقابل رسم على الدواب لا على الأفراد. كانت المسافة بين نزالة وأخرى حوالي ٤٠ إلى ٤٥ كلم. [المترجم].

من رؤيتها تقفز خارج الماء، وتشق الهواء. كنا نميز حينها، تماماً، رأسها الفضولي المستدق والمخروق بثُقب. كنا، أيضاً، محروسين بجمع غفير من أسماك القرش من النوع الذي يطلق عليه البحارة اسم المطارق. كانت تظل مختبئة تحت الماء، حسب عادتها، ولم تكن تفضح حضورها سوى بطرفين مستدقّين يشكلان حدود زعانفها الظهرية، ولأذيالها. وخصوصاً حين كنا بالمرساة والتي كانت تبدو أنها ترصد ضحية.

يعرف العرب [المغاربة] عبر السباحة تجنب فكها الرهيب: حين كنا راسين على مسافة قريبة من الساحل، كثيراً ما رأيت عابرين عرب [مغاربة] يتخلصون من ملابسهم ويعودن إلى البر سباحة، ويعودون إلى متن السفينة بنفس الطريقة، دون أن يخافوا من أسماك القرش التي لا يتمتعون برشاقتها الخارقة.

بحار يعضّه قرش

في يوم ذي حرارة رهيبة حين كنا بالمرسى أمام الدار البيضاء، أراد واحد من بحارتنا أن يسبح في البحر، بعد أن طلب من زملائه إنذاره بقرب أسماك المطارق. بالكاد ما أن غادر سُلم السفينة حتى صرخوا له: سمك قرش! هو الذي كان يظن ذلك مقلباً، أجاب بمزحة. ولكن ما كاد يتم جملته حتى أطلق صرخة واصطبغ البحر بالدم حوله. أُرجع المسكين إلى السفينة: انتزع القرش المفزع جزءا من فخذه. جرى كل هذا دون علم القبطان، الذي حذر في اليوم نفسه من خطر السباحة. وبعد ساعة كقدر، سقط الفحام بعنف في عنبر السفينة وكسرت ساقه.

تم اصطياد القرش بواسطة قطعة لحم مشدودة بصنارة: ارتمى على

الطعم بنهم شديد، فابتلع الصنارة واللحم: ولم يتبق سوى رفعه إلى متن السفينة. كان سمك قرش صغير، يبلغ طوله قدمين على الأكثر، كنا بالكاد نظن أنه قادر على الإساءة، فتم جعله يؤدي الثمن غالياً، بقطع ذيله أولاً، وبعد ذلك تم تسديد ضربة فأس على رأسه. حينما رأيته جامداً، أردت الاقتراب منه لأفتح فكيه؛ لكن بحاراً أوقفني في الوقت المحدد وأقنعني بأنه لسلامتي ينبغي علي القيام بإدخال حربة صيد في فم الحيوان: وعلى الفور أُغلق القرش الفكين على الحربة، بينما لم يبد أي إشارة تؤكد بقاءه على قيد الحياة.

آسفي

آسفي هي أول مدينة مهمة نجدها على الطريق من موكادور إلى طنجة. هناك تجلبب البرتغاليون بالمجد منذ ثلاثة قرون. حين أرسينا بها كان البحر جد هائج، وكان موجُهُ جد مضطرب، حيث كان علينا الاكتفاء بالإعجاب من بعيد بهذه المدينة العتيقة، المشيدة بشكل متدرج على هضبة. اجتازت الزوارق العربية موج البحر المتكسر بصعوبة كبيرة، وجلبوا لنا حمولة من الصوف واللوز.

خلال حمل هذه البضائع، تهوّرتُ بترك الكوة المضيئة لقمرتي مفتوحة، استغلها عربي ممن كانوا بالزورق ليمرر يده عبر الكوة وسرق مجموعة من ملابسي. أرسل القبطان الذي حكيت له الواقعة شكاية إلى حاكم المنطقة. في اليوم الموالي أبلغنا الحاكم أن المذنب تم كشفُه، وأنه يريد أن يتلطّف معنا على الطريقة المغربية، فاقترح علينا قطع يده اليمنى، وهي العقوبة المخصصة للسارقين. اندهش الحاكم المحبوب حين أجبناه بأننا نرفض اقتراحاته وأننا نريد منح العفو للمذنب.

العدالة الإجرامية جد مرعبة بالمغرب أكثر من الصين ذاتها. هذا ما يشهد به العدد المروع للناس المبتوري الأعضاء. لا يمكن أن نخطو عشر خطوات داخل مدينة مغربية دون أن نلتقي ببؤساء تنقصهم أذن أو أصبع أو عدة أصابع أو ذراع أو يد أو رجل. وعقوبة أدنى سرقة هي قطع الأيدي. وتعاقب جريمة الزنا بقسوة شديدة؛ لكن على المتهم أن يثبت الواقعة بأربعة شهود، وإن لم يستطع ذلك يخضع هو نفسه للجلد: وهو ما يجعل هذا النوع من التهم قليلاً جداً. القتل العمد جزاؤه القتل: شاهدان كافيان لإثباته؛ لكن ينبغي أن تجتمع بعض الشروط، وأن لا يكون الجاني مخموراً أو آكلاً للحم الخنزير. والقتل غير المتعمد تؤدى عنه دية لأقارب الضحية. حينما لا يستطاع الكشف عن الجاني، يفرض على القبيلة أو القرية التي تم فيها القتل أداء غرامة يحددها السلطان. العقوبة المفضلة لدى المغاربة هي القصاص، ويسعون دائماً إلى تطبيقها. في باقي الحالات هوى السلطان ومساعديه هو من يختار نوع العقوبة. بالنسبة للذين تم اتهامهم بالتمرد على السلطان يخضعون لتعذيب فيه تفنن: يتم أحيانا طلي المدان بالعسل والزيت ويترك لهيجان الحشرات، ويتم أحيانا إدخال البارود في فمه ومناخره ويوضع في النار، وأحياناً أخرى يتم دفنه حتى العنق، بطريقة يبقى فيها الرأس هدفاً للجلاد، أو يتم حرقه على نار هادئة أو تقطيعه إلى قطع[1]. يعاني المغاربة من هذه العقوبات البشعة بتشجيع من الخضوع والقدرية. ليس من النادر أن نجد في الساحات العمومية وبالأسواق رجالاً مقطوعي

(١) هذا الحس الإغرابي هو سمة مميزة للكتابات الرحلية عن المغرب. [المترجم].

الآذان أو الأيدي ويدخنون في هدوء الكيف. حينما يتم قطع يد ينتشلونها من الأرض، ويغمرون بقية العضو المبتور في قطران ساخن ويشرعون في الجري[1].

(1) Don serafin Calderon, **Manuel del Oficial en Marruecos.**

الفصل الخامس:

مازكان

البرتغاليون بالمغرب

حين تجاوزنا كاب كانتان[1] الخطير، حيث ستنتصب منارة في اليوم الذي سيسقُط فيه المغرب تحت حماية دولة متحضّرة، توقّفنا عن الإبحار في اتجاه الشمال بُغية اتّباع انحراف الساحل نحو الشرق. أول مدينة مهمة وجدناها في هذه النواحي هي مازكان [الجديدة]، بريجة العرب، احتلها البرتغاليون من سنة ١٥٠٢ إلى ١٧٦٩م. يُجْهل كثيراً أن البرتغاليين كانوا يحتلون المملكة المغربية، التي تطمع فيها القوى الأوربية الكبرى اليوم: كانوا فيما مضى سادة على كل الساحل المغربي، من سبتة إلى أكادير؛ وكان إقليم الغرب[2] خاضعاً لهم لمدة طويلة، وبسبب هذا الظرف غير المعروف فعاهل هذه الدولة ما يزال يحمل اليوم اسم ملك البرتغال والغرب.

فبمازكان وضع البرتغاليون أسس استعمار المغرب؛ وهناك أيضاً

---

(١) رأس كانتان أو «كاب كانتان» أو رأس «البدوزة» تبعد عن مدينة آسفي بحوالي ٣٠ كلم شمالا. [المترجم].

(٢) هو إقليم ممتد من القنيطرة إلى العرائش على الساحل الأطلسي. [المترجم].

فقدوا سيطرتهم عليه بسبب خطأ الماركيز **بامبال**[1]: لا نستطيع أن نصف بقسوة هذا السلوك اللاوطني لرجل الدولة هذا.

حصار مزاكان

كان حُلم السلطان **مولاي عبد الله**[2] هو الاستيلاء على آخر شارع للمسيحيين بمازكان. في ليلة ٤ دجنبر من سنة ١٧٦٨ م، نصب خيامه على بُعد فرسخ من المدينة بجيش يتكون من خمسة وسبعين ألف رجل. على افتراض وجود جيش قوي وحده سيرعب البرتغاليين، اقترح عليهم الاستسلام؛ لكن المدافعين عن المكان ردوا على هذا الأمر بغضب واستنكار، وأجابوا برفض شكلي. أطلق العدو النار: سقطت أكثر من ألفي قنبلة على المكان دة خمسة أسابيع.

بينما كان المحاصرون يدافعون بشجاعة، ذهبت زوجة الحاكم لطلب العون من لشبونة؛ لكن الملك **جوزيه الأول**[3]، استجابة لنصيحة وزيره **بومبال**، كان بعيداً عن إعطاء العون الملتمس، قرر أنه ينبغي إركاب كل المحاصرين والتخلي عن المكان. انطلقت بعض السفن من لشبونة. بُغية تنفيذ ذلك الأمر بمازغان.

حين رأى المحاصرون السفن تلوح في الأفق، وعرفوا الراية

---

(١) **دي سيباستياو جوزيه دي كارفالو إي ميلو، الماركيز الأول لبومبال، الكونت الأول لأويرس** ماركيز دي بومبال (١٦٩٩-١٧٨٢) هو رجل دولة برتغالي في القرن الثامن عشر، شغل منصب وزير المملكة (أي ما يعادل اليوم رئيس الوزراء) في حكومة جوزيف الأول ملك البرتغال من ١٧٥٠م وحتى ١٧٧٧م. [المترجم].

(٢) يقصد محمد بن عبد الله. [المترجم].

(٣) **خوسيه الأول** أو **جوزيف الأول** أو **يوسف الأول** (١٧١٤-١٧٧٧) هو ملك البرتغال والغرب من أسرة براجانزا من ١٧٥٠م إلى ١٧٧٧م.

الوطنية، فرحوا كثيراً واستعادوا الشجاعة، معتقدين أن العون الذي طلبوه قد وصل أخيراً. ولكن ما أشد ما كانت دهشتهم عندما أخبروهم بإرادة الملك! على إثر هذا الخبر ثارت الساكنة بأكملها، دون تمييز أي طبقة، ضد أمر من حط من قيمة اسم البرتغال وأفنى في يوم واحد الامتيازات المحصل عليها بفضل تضحيات قرنين ونصف من الزمن.

توجّه المتمردون نحو قصر الحاكم العام، عازمين على قتله مع كل الذين كانوا يريدون معارضة استمرار الدفاع. وكانوا سينفذون مخططهم، إن لم يتمكن بعض رجال السلطة من تهدئة النفوس مبرزين لهم ما يهددهم بسبب عدم انصياعهم لأوامر الملك، الذي راعى، علاوة على ذلك، ما أسدوه للأمة من خدمات؛ فلم يكونوا يشكون في أنهم لن يستقبلوا بشكل جيد بلشبونة وأنهم لن يعوضوا ضياع ثرواتهم، كما تم تعويض سكان طنجة حينما تخلّوا عن هذه المدينة. هكذا تمت تهدئة المتمرّدين، وأعلم الحاكم السلطان بالأمر الذي تلقّاه من الملك بإخلاء المكان.

خروج البرتغاليين

تمت الدعوة إلى هُدنة لمدة ثلاثة أيام، تم القيام خلالها بالإركاب. كان السكان يبكون بمرارة تخليهم إلى الأبد عن بيوتهم. قبْل أن يركب هؤلاء البؤساء أضرموا النار في أثاثهم وألقوا بمذابحهم إلى البحر؛ حملوا فقط الأشياء المقدسة وكتب الحالة المدنية، التي ما يزال يحتفظ بها اليوم في مدينة بارا[1] الصغيرة بالبرازيل؛ قطعوا عراقيب

(١) **ولاية بارا** ولاية برازيلية تقع في وسط شمال البرازيل، ويحدها سورينامي وأمابا من=

الخيول، وقتلوا كل البهائم التي كانت بالمكان، وأتلفوا الأسلحة، وسمروا أكثر من مائة قطعة مدفع، ولغموا كل الشوارع.

تركوا، سهواً، حداداً اسمه **بيدرو لاروزا**، أرسله السلطان، فيما بعد، إلى لشبونة على متْن مركب حربي إنجليزي عابر لمازكان. روى هذا الرجل أنه أضرم النار في الألغام، حينما دخل المغاربة إلى المكان؛ ومات منهم ٥٥ فردا من ضمنهم ابن عم السلطان، وشوّه عدد كبير بشكل بشع. إذا كان الناس، في حالة يأس، استطاعوا ارتكاب فظاعات مماثلة، فإن المسؤولية تعود كاملة إلى الوزير **بومبال**، وأنها تجثم بشكل ثقيل على ذاكرته.

أيام بعد ذلك، أرسى المنفيون بلشبونة، حيث كانت تنتظرهم خيبات أمل جديدة. باستثناء بعض العائلات النبيلة التي كان لها أقارب بالقصر، تم اقتيادهم بأمر ملكي إلى حوانيت الدير القديم لهيونيست ببيليم(١). تلقى هؤلاء السكان البؤساء المنهكون والخائرو القوى طعاماً غير كاف وغير صحي؛ وسقط أغلبهم مرضى، والكثيرون ماتوا وهم يلعنون في آخر ما تبقى من أعمارهم الوزير الطموح الذي سبّب في مصائبهم. ومن بقوا على قيد الحياة تم إرسالهم إلى البرازيل، حيث أسسوا مستوطنة تُذكّرهم على سبيل الذكرى بوطنهم، المدينة الجديدة

=الشمال ومن الشرق الشمالي المحيط الأطلسي وولاية مارانها من الشرق وتوكانتينز في الجنوب الشرقي وماتو غروسو من الجنوب، ولاية الأمزون من الغرب وولاية رورايما وغويانا في الشمال الشرقي وعاصمة الولاية مدينية بيليم. وهى منطقة حارة رطبة. [المترجم].

(١) **بيليم** أو بالعربية (بيت لحم) عاصمة ولاية بارا وسط شمال البرازيل تعتبر من أهم المدن في البرازيل، تبعد عن برازيليا ٢١٢٠ كم. [المترجم].

لمازكان[1]. هكذا انتهى المنحدرون من هؤلاء المحاربين المشهورين الذين كان الملك **دون بيدرو الثاني**[2] فخوراً جداً بهم، وهتَف بأنه لم يكن له فرسان جيدين مثل إقطاعيي مازكان[3].

رصيف المرفأ

بهذه الرأس الطافحة بهذه الذكريات أرسيت، بمعية رفاقي المعتادين، على رصيف ملائم، بناه البرتغاليون: وهو الميناء الوحيد بالمغرب الذي يتوفر على رصيف مرفأ. بعْد سيْرنا بمحاذاة الأسوار الخارجية، دخلنا إلى مبنى الجمارك، الذي كان معرقلاً بواسطة حمولة من الحجر رفضها السلطان بحجة أن بعض الأحجار كانت مكسورة في الطريق: يعرف السلاطين الجمع بين اقتصاد الحكمة والأبهة.

جمارك مغربية

تبقى مصلحة جمارك مغربية مشهداً جد مثير للفضول. تحت سقيفة

---

(١) ويوم تمّ إجلاء البرتغاليين عنها؛ لم يَخلُ لأهلها المُقام في أرض سواها، فنزلوا ناحية من لشبونة مدة قصيرة؛ ثم رحلوا إلى البرازيل فأقاموا «مازكان» جديدة بكل تجلياتها المعمارية التي كانت لها في بلاد المغرب، وظلت أرواحهم تهيم عبر المحيط لتعانق «مازكان» القديمة هناك، كما بنوا في المكسيك مدينة تحمل اسم زامورة ZAMORA؛ إذ لم يستطيعوا نسيان آزمور. [المترجم].

(٢) **دون بيدرو الثاني** من مواليد مدينة ريو دي جانيرو في ٢ ديسمبر ١٨٢٥ وتوفي في ٥ ديسمبر ١٨٩١في مدينة باريس، كان ثاني وآخر إمبراطور على البرازيل. [المترجم].

(٣) حول تاريخ مازكان يمكن الرجوع بالأسبانية إلى: Castellanos, **descripcion de Marruecos.** وبالبرتغالية إلى: Luis Maria de Couto, **Memorias para a historia da praça de Mazagao.**

ذات شرفة بأقواس مغربية يقيم الباشا شخصيا بوقار، في جلسة شرقية، وساقاه مشبوكتين وهو يدخّن الغليون[١]؛ وكان بجانبه كاتبان يدونان بواسطة عود خيزران بيانات السلع والأوزان والمبالغ المؤدّاة. يقوم زنوج صارمون بإجراءات الوزن، بحضور هذه الشخصيات: وبما أننا كنا في رمضان، فإنه لم يكن لهؤلاء الرجال ما يشربونه وما يأكلونه، طوال النهار، كانوا يستعملون دون أدنى صعوبة، وفي حرارة شديدة أوزانا ثقيلة للغاية من تلك التي نستعملها في جماركنا: ليست تلك الأوزان سوى كُتل لا شكل لها، وكانوا يمسكونها بأيديهم العريضة بقوة رياضية. تُقيّم السلع عشوائياً بواسطة دلال يحدد مبلغ الرسوم الجمركية. فمن المتصور أن كل هؤلاء الوكلاء، ذوي الوظائف المجانية، يتفقون بالإجماع لتحصيل حصة كبيرة من المبالغ المسددة، وأن حصيلة الجمارك ينبغي أن تقلّص بطريقة فريدة، حين تصل إلى الخزينة الملكية، وهي تشكل مع ذلك المورد الرئيسي.

منظر مازاكان

تعود الهيمنة البرتغالية على مازكان إلى زمن قريب، بحيث أن المحتلين الجدد لم يستطيعوا إزالة مظهرها الأولي: على غير العرف المغربي فمنازلها ذات نوافذ وهذه الأخيرة محمية بواسطة مصاريع خضراء. حتى اعتقدت أنني بمدينة مينو (Minho)[٢] الصغيرة، ففي كل خطوة كنت أجد بنايات لا تُرى أبداً في البلد العربي، أبراج وكنائس

(١) لا شك أن في الأمر تناقضاً كيف له أن يدخن الغليون في رمضان. [المترجم].
(٢) هي إقليم تاريخي برتغالي استمد اسمه من نهر مينهو الذي يفصل هذه المنطقة البرتغالية عن منطقة غاليسيا الإسبانية. [المترجم].

وثكنات مخربة. الكنيسة التي كانت فيما مضى بمثابة كاتدرائية أصبحت بيتا لتاجر يهودي وما تزال تحافظ على طابعها السابق.

أسوار المدينة

دخلنا من باب واطئ مقوسي الظهور، إلى بيت يهودي مسند على أسوار المدينة، وبعد أن وصلنا السطح رفعنا بعضنا البعض على الأكتاف من أجل بلوغ قمة الأسوار.

تحكي هذه الأسوار مجد بلاد **فاسكو دا كاما**[1] **وكامويس**[2]: لها طابع من العظمة والمتانة، جعلتها متباينة مع البنايات المغربية الصغيرة؛ الذين شيدوها كانوا رجالاً ذوي كفاءات عالية. يجعل عرضها البغال والجمال تسير عليها مثل سور الصين العظيم.

يسود من كل جهة خندق عريض وكان في الحقبة البرتغالية، متصلا بالبحر وكان بمثابة حوض بالنسبة للبنايات الصغيرة: ليس هذا الخندق سوى مأوى للنتانة، حيث توجد مياه آسنة وفاسدة: رأينا أطفالاً يتمرغون فيها عراة. حتّ الصدأ المدافع البرتغالية المزينة بريجات جهة البحر وجعلها تسقط في الاهتراء.

لا شيء يمكن أن يقدم فكرة جيدة عن المدينة سوى القيام بجولة في

---

(١) **فاسكو دا غاما**: (Vasco da Gama) ولد في ١٤٦٩ م في البرتغال وتوفي في ٢٤ ديسمبر ١٥٢٤ م فيكاليكوت بالهند) يعدّ من أنجح مستكشفي البرتغال في عصر الاستكشاف الأوروبي وهو أول من سافر من أوروبا إلى الهند بحراً. [المترجم].

(٢) **لويس دي كامويس** (Luis Vaz de Camoes,) (١٥٢٥-١٥٨٠) شاعر النهضة البرتغالية وقرنها السادس عشر، أبوه **سيماوفاز دو كامويس** حفيد الشاعر الغنائي الغاليسي **فاسكو بيرس دو كامويس** وأمه من عائلة تنتسب للبحار **فاسكو داغاما**. [المترجم].

التحصينات. تقع مازغان في موقع رائع للدفاع: في أقصى حدّ يتقدم في المحيط الأطلسي، ويشكل مربعا كاملاً، ومحصن من كل زاوية ببريج بارز. إن لم يتخلّ البرتغاليون عن المدينة سوى نتيجة لنزوة وزير، لكانوا ربما ما يزالون يوجدون بها.

الباحات المغربية

بما أن الأسوار أكثر علواً من المنازل، تمكّننا من إلقاء نظرات فضولية على الباحات المغربية؛ فوجئنا في كثير من الأماكن بوجوه نساء غير محجبة؛ ما أن رأيننا حتى شرعن في إطلاق صراخ خوف، وكن يهربن ويرسلن كل لعنات الله على الكفار الكريهين الذين تجرؤوا على دوس الأرض المقدسة للمغرب.

السجن

في ساحة صغيرة مجاورة لحمام رأينا بعض البؤساء الذين كانوا يرفعون إلينا أعيناً متوسلة. إنهم سجناء: كان سيئو الحظ أولئك، يعيشون هناك في الهواء الطلق، في تشرّد؛ باب الساحة ذو فتحة كبيرة جداً، ولم تكن محروسة سوى بجنديين، وقلنا إنه لا شيء أسهل لهؤلاء السجناء سوى الهرب: لكنهم لا يفكرون في أي شيء، سواء بسبب خوفهم من العقاب القاسي أو بسبب هذه الاستكانة المطلقة التي تولدها القدرية الإسلامية. رمينا لهم بعض القطع النقدية فجمعوها معبرين لنا عن كبير الامتنان. فبصدقات الأصدقاء المشفقين يحصلون على ما يعتاشون به: لأن الحكومة لا تدبر بأي طريقة إعالتهم. والذين لا يتلقون أي مساعدة من أحد سيكون مصيرهم الموت جوعاً. من الصعب تصديق وقائع رهيبة مثل هذه.

بمواصلتنا جولتنا حول المدينة، درنا حول حي لم يكن سوى كومة من الأطلال: فهناك بلا شك كانت تقع المنازل والمخازن التي خرّبها البرتغاليون قبْل التخلي عن المدينة للمغاربة. توجد من بين هذه الأطلال بناية ضخمة، يبلغ علوها أكثر من أربعين متراً، يبدو أن داخلها كان باذخاً: تسلّقنا الدرجات الحجرية لسُلّم متداع، ووصلنا إلى قاعة رحبة تطل نوافذها على البحر، وسقفها منهار. ضربنا أخماساً في أسداس بخصوص غاية هذا الصرح، من الأكيد أنه كان قصر الحاكم.

الخزان المائي الكبير

بما أن البرتغاليين كانوا في حرب مستمرة مع المغاربة، كانوا يجدون أنفسهم في الغالب ممنوعين من الخروج من المدينة لجلب الماء من الينابيع الموجودة في نواحي المدينة. لهذا فكروا في بناء خزان مائي ضخم، حتى يكون بإمكان السكان التزود بالماء الصالح للشرب في أي وقت. هذا الخزان، الواقع وسط المدينة، ما يزال اليوم واحداً من التحف النادرة لمازكان: وهو محفوظ بشكل جيد. نزلنا إليه بواسطة سلّم. قُبّته مسنودة بدعامات قوطية ضخمة: جعلتنا نعتقد أننا داخل سرداب مغمور بمياه الفيضان. كان عدد الأقواس ستة على الجهات الأربع، ويبلغ عرضها حوالي سبعة أمتار. والجوانب ليس لها أقل من ٥٠ مترا في الطول، والذي يغطي مساحة تبلغ ٢٥٠٠ متراً مربعاً. كان هذا الخزان مملوءاً دائماً بالماء؛ لم نُبحر فيه زمناً طويلاً على متن قارب لم نر منه إلا بقايا نخرة؛ لكن سيكون من الصعب الإبحار فيه اليوم،

لأنه جاف تقريباً: ذلك هو إهمال المغاربة، فصار بالوعة متعفنة، تستقبل كل قاذورات المدينة.

دوار

بأبواب مازكان ذاتها زُرنا دواراً، حيث تعيش الساكنة الفقيرة في أكواخ من القش، لم أتمكن من مقارنتها سوى بأكوام زرعنا: ينطبق القش على بنية قوية لعصي قصب السكر مغروزة في الأرض ومضمومة على مستوى القمة. دخلنا إلى واحدة من هذه المنازل الإفريقية، ورأينا فيه نساء مغربيات غير محجّبات مثل جاراتهن بالمدينة: لا يجِدن أي صعوبة في أن يبقين مكشوفات الأوجه أمام المسيحيين. كانت أعناقهن وصدورهن وأرجلهن مزينة بالحناء: كن يلبسن خلاخل.

لا يوجد بهذه الأكواخ أثاث آخر غير بعض الحُصر التي تطلع بعدة أدوار؛ فهي مقاعد للجلوس وأسرة للنوم وموائد للأكل.

لا توجد بضواحي مازكان قحولة بادية موكادور: وإنما وجدنا فيها بساتين مفصولة بواسطة حواجز من أغصان الأشجار اليابسة: تظلل شجيرات الفلفل وأشجار التين والرمان والزيتون والموز وبعض الأشجار الأخرى النصف استوائية نباتات الكرنب واللفت والباذنجان والبطيخ والخرشف البري. نظام السقي عندهم جد طريف، فكل بستان يتوفّر على خزان مائي مزود بطاحونة الري يحركها جمل أو بغل محروم من استخدام بصره: تدور هاته البهائم المسكينة حول نفسها من الصباح إلى المساء. يبدو أنه ليس للمغاربة أي فكرة عن تنظيم البساتين: فالأغراس موضوعة بلا نظام وبلا ذوق، وزراعة الزهور مجهولة تماماً لديهم.

السوق

قدّم لنا سوق مازكان نفس المشاهد التي رأيناها بسوق موكادور. رأينا فيه خيولاً عربية رائعة، ذات رقاب قوية. وتبعاً لعادتهم يتم شكلها من الساقين بواسطة سلسلة مثبتة على الأرض. تباع هذه الخيول بمبلغ زهيد بحوالي ٤٠ أو ٥٠ ذوقة (من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ فنرك). ويُباع العبيد بأثمنة بخسة أيضاً: شاهدنا بيع زنجي (ب ١٦ دوقة) يبلغ من العمر ١٨ سنة: والأطفال بقيمة سبع دوقات.

معاملة الزنوج

تُمارس تجارة الزنوج بالمغرب على نطاق واسع: وأغلب الزنزج من أصول سودانية. حظهم ليس تعيساً جداً كما يمكن أن يعتقد: فهم أحياناً جزء من عائلة أسيادهم، ومثل هؤلاء يعاملون بلطف، وهم جد متعلقين بهم. إذا ما عامل مغربي السود الذين هم في ملكيته بشدة قد يُجبَر أحياناً على بيعهم. لا يوجد في هذا البلد أي تحامل على اللون؛ الزواج بين المغاربة والعبيد جد مألوف، والأطفال الذين يولدون عن هذه الزيجات هم أحرار وينعمون بنفس حقوق الأطفال الشرعيين. لا يمكن أن نقارن عبودية السود بالمغرب أبداً بالعبودية التي كانت موجودة فيما مضى بالولايات المتحدة.

تشابه المدن المغربية

إذا ما نشر **موراي** أو أقرانه دليلاً للمسافر إلى المغرب، أريد أن أعهد إليهم بوصف منهجي ودقيق لكل المدن التي أرسيت بها على المسار من موكادور إلى طنجة. ستكون مهمة شاقة، لأن هذه المدن، إن صح القول، هي نسخ لبعضها البعض نوعاً ما: نفس الأكواخ المربعة

المطلية بالجير، نفس السطوح، نفس الدروب الضيقة والملتوية، نفس المساجد ذات الهندسة الثابتة، نفس الساكنة القذرة والطريفة: وما هو متغير هو القليل، هو القذارة أيضاً، التي نحن على يقين أننا سنجدها ما أن تطأ أقدامنا أرض المغرب. برؤية هذه المدن من البحر، عن بُعد، تبدو في نظرة خاطفة، كلها جذابة بمنازلها ذات البياض الساطع، وبمآذنها السامقة، وبأسوارها التي تبرز بوضوح خطوطاً مسننة على السماء اللازوردية: لكن هذا الوهم يتبدّد بمجرد ما أن ندخل إليها: تلك هي حال كل المدن الإسلامية.

حرارة شديدة

كازبلانكا، الدار البيضاء لدى العرب، هي المكان الأشد حرارة في الساحل: يوقظ هذا الاسم لدي ذكريات مؤلمة. كنا في نهاية حر شديد: كانت الحرارة شديدة جداً، لدرجة أن الكناريين اللذين كانا يرافقاني على الرغم من أنهما ولدا تحت سماء استوائية، لم يستطيعا البقاء على الأرض وعادا إلى السفينة حيث وجدا قليلاً من الرطوبة: وحتى على متن السفينة كان الجو غير رحيم. مددنا المائدة على ظهر السفينة، وبينما كنا نتعشى تحت الخيمة، كنا نتلقى لفحات حرّ حارقة لريح السموم، محمّلة بذرات من الرمال قادمة مباشرة من الصحراء: كان يبدو لنا أن وجوهنا عُرضت لنار حارقة.

في كل مرة كانت تهب ريح السموم الرهيبة تلك، كانت الحمى الإفريقية تخلف أضراراً كبيرة في صفوف السكان. حين مررنا من الدار البيضاء، كان عدد الوفيات فيها مخيفاً جداً. صحيح أن الحمى لا تهاجم إلا الأهالي، بسبب العادة السيئة في تناولهم للفواكه. فكانوا لا يتغذون في الصيف سوى بالتين والبطيخ وكانوا يلتهمون هذه الفواكه في عز الحر.

ليس للدار البيضاء رصيف مرفأ سوى رمال الشاطئ، نزلنا بها على أكتاف العرب الذين يمسكون بساقيك بخروجك من المركب.

لهذه المدينة الصغيرة لون محلي أكثر وضوحاً من مازكان: منازلها ذات طابع مغربي خالص، أبوابها مصفحة بسدائد عتيقة عربية ومسامير ضخمة تزينها مثل النوع الذي نراه في أبواب المنازل العتيقة بطليطلة. سوقها هو الأروع، لكنه أيضاً هو أكثر الأسواق التي رأيتها اتساخا: لم نكن نستطيع التجول فيه - دون غلق أنوفنا وكنا ندير وجوهنا عن كل ما يمكن أن يسبب الغثيان. كانت هناك أيضاً جوقات من الذباب الكثيفة جداً، كان الهواء محجوباً تماماً، وبحكم جنسيتها العربية، بدت أنها مثابرة، وبشكل خاص، ضد المسحيين. بقدر ما كنا نبعدها حتى كانت تعيد الكرة. لكي نتخلص من هجماتها اللاذعة، بحثنا عن ملجأ بسوق التحف، وهو ساحة كبيرة مربعة، محاطة بحوانيت اختارتها آلاف طيور السنونو مسكنا لها. هناك رأينا تلك الزرابي المغربية الجميلة التي تختص الدار البيضاء بصناعتها. يبلغ سعر تلك الزرابي، التي يمكن أن تنافس زرابي سميرن (Smyrne)[1]، حسب الأبعاد، من ٧ إلى ١٧ دوقة.

يعود اسم كازبلانكا للبرتغاليين الذين تخلوا عنها بعد زلزال مفزع هدّم المدينة برمتها[2].

---

(١) هو الاسم القديم لمدينة أزمير التركية. [المترجم].

(٢) أصل تسميتها أتى من البرتغال والذي يعني الدار البيضاء. وقد بدأ تأثير البرتغال على المدينة من القرن ١٥ فالمقر الأصلي كان هو أنفا، حيث هوجم وتم احتلاله من قبل البرتغال سنة١٤٦٨ بحجة أنها تحوي القراصنة الذين كانوا يستعملون الميناء كقاعدة للتحرش بالبواخر البرتغالية. وقد استمرت الدار البيضاء تحت حكم البرتغال لغاية سنة ١٧٥٥ حيث وقع الزلزال الذي دمر المدينة وكذا لشبونة عاصمة البرتغال. [المترجم].

الفصل السادس:

الرباط وسلا

طابع المدينتين الأختين

في صباح أحد الأيام استيقظت أمام المدينتين الأختين الرباط وسلا، الواقعتين على مصبّ نهر أبي رقرارق. تحتل الرباط الضفة اليسرى، وتحتل سلا الضفة اليمنى للنهر. أرسينا بكيلومتر عرضاً. امتدّت كلتا المدينتين أمامنا في حزامهما الرائع من الأسوار المحفوفة بأبراج مربعة الشكل. أثناء استكشافي للساحل بواسطة المنظار، رأيت في الأعالي المشرفة على الرباط، قصر السلطان، وهو بناية ضخمة بيضاء تشكل مربعاً كاملاً محصّناً بثمانية أبراج. كانت تنبثق فوق سطح البحر تحصينات حديثة مسبوقة برواق ذكرتني تقوّساته المغربية الأنيقة بقصر الأسود بالحمراء. في مكان بعيد بدت صومعة مدهشة وشاهقة شبيهة بصومعة الخيرالدا باشبيلية، كانت ترسم ظلالها المهيبة. كانت تنبسط في الضواحي بوادي مخضرة. ذكّرني هدير المحيط وانكساره أمواجاً مزبدة على شط رملي يعوق مدخل النهر بالصوت العظيم لنياكرا (Niagara)[١] الذي كنت دائماً اعتقد أنني أسمعه على هذا الساحل المتناثر بالصخور.

---

(١) كلمة تعود إلى كلمة أونغيار «onghiar» تنطق أونغيارا وتدل على هدير المياه، ولقد كان=

كان المشهد من النوع الذي لا يُنسى، لقد سحرني كثيراً إذ صمّمت على الفور على الرغبة في الذهاب للتأكد ما إذا كان هذا الكل العجيب شيئاً آخر غير ديكور بسيط لمسرح.

صعوبة الرسو بالرباط

رُعِبنا مدة يومين. لكن حينما أظهرتُ للقبطان نيتي في الذهاب إلى البر، قطب حاجبيه. لأنه منذ عشر سنوات وهو يقوم بهذا الإبحار، ولم يتجرأ أبداً على زيارة الرباط، خوفا من عدم التمكن من العودة إلى البحر. الجرف الرملي الذي يحمي مدخل أبي رقراق ليس قابلا للاجتياز سوى في حالة الهدوء التام للبحر: غير أنه بما أن حالة البحر تتغير في هذه السواحل من ساعة لأخرى، لم نضمن أبدا، بعد عبور الجرف، عبوره أثناء العودة: لذلك رأينا بعض القوارب محصورة مدة ستة أشهر في النهر دون أن تتمكن من العودة إلى عرض البحر.

لاعتراضات القبطان أجبت أن الجو جميل لكي ننتهز الفرصة، وفي أسوأ الحالات، إذا لم أستطع العودة على متن السفينة سأذهب إلى طنجة برا. تمكنت من جر زميلين إسبانيين إلى صفي، وارتمينا في واحدة من تلك القوارب العربية الثقيلة ذات اثنتي عشر مجداف، كانت تستعمل لنقل حُزم الصوف.

كنا نوشك على الإبحار، حتى دخل مجدّفونا في صراع مع زنجي بئيس، وبعد أن أبكوه، غيروا الاتجاه لإيقافه. وعاد المسكين إلى السفينة باكيا مثل طفل. ثم تقدم القارب بصعوبة بصيحة «أومة» أطلقها

=هو الكلمة الهند أمريكية التي تعني سقوط المياه. وقد اتخذه في وقت لاحق المستوطنون الأوربيون. [المترجم].

المجدفون. سار كل شيء على ما يرام حتى اللحظة التي اقتربنا فيها من مصب أبي رقراق؛ هناك رمينا في دردور عنيف: اهتز قاربنا الثقيل المحمّل بحُزم الصوف مثل عود ثقاب بأمواج ضخمة، كانت قد عاودت بشكل لولبي مزبد. وأخيراً بلغنا مياه النهر الهادئة جداً؛ لكننا صارعنا دردوراً جديداً بجانب بُريج بارز حيث كان البحر يتلاطم بعنف: كنا نسير والصخورَ العالية التي كانت الأمواج تهدد بتحطيمنا عليها. كانت التيارات جد عنيفة بذلك المكان، وأنه بالرغم من مجهودات المجدفين المخيبة للآمال بقينا تقريباً ثابتين.

لمحة خاطفة عجيبة

يا لها من نظرة ساحرة حين ظهرت الرباط، عند صخرة ناتئة، في أقصى جون صغير، بكامل جمالها الفاتن! امتدت المنازل المتدرجة وصوامع المساجد والقصور المغربية، على شكل نصف دائرة حول الجون الصغير. بعد ذلك ظهرت القصبة جاثمة فوق صخور منيعة بأسوارها السمراء النصف مهدمة بحُلّتها الخضراء من الصبار المشجر. يُقدّم الجون نفسَه، الذي يُشكّل حوضاً شاسعاً دائرياً، تشرف عليه المدينتان التوأم، بواسطة نباتات سامقة تؤطره، منظراً ذا رونق بهيج ولا مُتوقع أبداً بعْد السواحل القاحلة وانعدام خضرة جنوب المغرب.

السيد ديكور

حالما أرسينا، ذهبنا عند **السيد ديكور**، نائب قنصل فرنسا، ووكيل شركة باكي، وهو الأوربي الوحيد المقيم بالرباط الآن. برؤيته لم نشك أبداً أننا على صلة بأوربي: في الواقع لقد تبنّى بالكامل عادات وتقاليد وطريقة عيش المغاربة؛ كان يرتدي القفطان والطربوش والبلغة؛ كان

رأسه حليقاً على الطريقة العربية. كان يسكن منزلاً مغربياً جميلاً، فُتح في وسطه فناء تظلله شجرة موز مُعمّرة وتنعشه نافورة.وكانت الشقق التي تستمد ضوء النهار من الباحة، مزينة بدواوين وأرائك جلدية مطرزة، وزرابي فاسية، ووُضِعت على الرفوف المغربية المعلّقة على الحيطان عدة تحف نادرة من البلد؛ فخار رباطي وأعمال جلدية وسيوف عربية ذات مقابض من عاج، وسيوف تركية وبنادق ذات سبطانة مرصعة بالذهب، حواضنها مرصعة بعرق اللؤلؤ والمرجان.

مناخ الرباط

من الطبيعي ألا تتوفر مدينة، لم يزرها تقريباً الأوربيون، على نزل. فالسيد **ديكور** هو من استضافنا.

وصلنا للأسف في لحظة محزنة: أخبرنا أن واحداً من خدمه وعماله مات بالتيفوس ومات آخر بالكوليرا وثالث بالحمى، واستقبلنا أيضاً بشكل جيد على الرغم من أنه كان في ظروف كهذه. عُرفت الرباط بأنها من المدن غير الصحية بشكل كبير بالمغرب، بسبب المستنقعات الموجودة في ضواحيها: وحرارتها الخانقة جداً في الصيف.

أصل المدينة

قبل أن نستكشف المدينة قرأنا ما قاله عنها المؤرخ الإسباني **كاستيلنوس**. تأسست الرباط نهاية القرن ١٢م من قِبل **يعقوب** ذائع الصيت والذي يسمى عموماً بـ **المنصور**[١].

---

(١) **أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور بالله** أو اختصاراً: «يعقوب الخليفة الموحد»=

يسمّيها العرب رباط الفتح: تشغل في الواقع، مسرح المعركة حيث هزم **يعقوب** السلويين. يُجهل الدافع وراء بنائه لهذه المدينة قُبالة سلا: من المحتمل أنه خاف من أن سلا، التي كانت تأوي عدداً كبيراً من السكان، لن تخلع النير في أول مناسبة، وأنه أراد أن يعزز مقابل أسواره جيشا محترما، وصارت خيامه مدينة؛ وحسب البعض الآخر عَمِل **يعقوب** على بناء الرباط تذكارا لانتصاره وبهدف واحد وهو أن يقيم فيها قصره. ونحن نعلم أن بناء المدينة انتهى في سنتين. ما كان يثير الإعجاب فيها هو قنواتها وحدائقها الجميلة ومساجدها الفخمة وبناياتها الرائعة، ومدارسها وحماماتها. كانت نفقات بنائها مسرفة، وبكى **يعقوب المنصور** وهو على فراش الموت على واحد من ثلاثة أشياء ندم عليها، كان هو إنهاك الخزينة العامة ببناء مدينة الرباط.

يعقوب المنصور

تبعاً لتقليد عربي، استعمل الطاغية لبناء أسوار وقصر المدينة ثلاثين ألف أسير كان قد جلبهم من إسبانيا، بما فيهم أسرى معركة الأرك[1]؛ فكر سيؤو الحظ أولئك في انتقام رهيب: تداولوا ليشيدوا بنايات هشة ودون أدنى صلابة يمكنها أن تنهار على السكان في اليوم الذي لا

=سلطان وثالث خلفاء الموحدين ببلاد المغرب. خلف والده أبو يعقوب يوسف حكم من ١١٨٤ حتى وفاته في مراكش عام.١١٩٩ تميز عهده بالمشاريع الكبيرة. بنى مسجد الكتبية في مراكش وأزمع في بناء أكبر مسجد بالعالم مسجد حسان في الرباط إلا أن المنية وافته والإنشاء في بداياته تاركا صومعة حسان. [المترجم].

(١) **معركة الأرك** هي معركة وقعت في ١٨ يوليو ١١٩٥ م بين قوات الموحدين بقيادة السلطان **أبو يوسف يعقوب المنصور** وقوات ملك قشتالة **ألفونسو الثامن**. كان للمعركة دور كبيرٌ في توطيد حكم الموحدين في الأندلس وتوسيع رقعة بلادهم فيها. وقد اضطر **ألفونسو** بعدها لطلب الهدنة من السلطان الموحدي **أبي يوسف المنصور**. [المترجم]

يفكرون في ذلك. وحصل الحدث الذي تم التنبؤ به: بمُجرد ما دخل المغاربة إلى بيوتهم الجديدة، حتى طُمر أغلبهم تحت خرابها. لكن المسيحيين لم ينعموا كثيراً بانتقامهم. وكعقاب لهم على خيانتهم حُكم عليهم بالإعدام.

التحصينات

على الرغم من أن الرباط انحطت كثيراً عن رونقها السابق، ما زالت تعطي الانطباع عما كانت عليه السلطة المغربية في يوم ما. يبدو أن التحصينات تقاوم أضرار الزمن. توجد على جانب البحر بريجات تقابل نيرانها نظيراتها بسلا، تحمي مدخل النهر. الحاجز محمي بواسطة مدفع منيع ومؤمن بمدافع حديثة، يمحق في لحظة السفن الحربية التي تريد الدخول إليه. ومن جانب البر، المدينة محمية بصفين من الأسوار، واحد منها يكمن دوره في إبعاد هجمات رُحّل السهل. فبداخل الحيز الموجود بين الأسوار، بنى السلاطين قصرين كبيرين، حيث راكموا كل الغنى الفني الذي استطاعت العبقرية العربية إبداعه. للأسف لم نتمكن من زيارة هذين القصرين، لأن دخولهما كان ممنوعا على المسيحيين.

صومعة حسان

لكن توجد خارج السور، بصفة خاصة، أهم المعالم. على بُعد كيلومترين شرق المدينة، على ضفاف أبي رقراق تنتصب أطلال مسجد وقصر المبنية، حسب **لومبريير**[١] (Lemprière)[٢]، من قِبل **يعقوب**

(١) هو **وليام لامبريير** رحالة وطبيب قام برحلة إلى المغرب سنة ١٧٩٠-١٧٩١، ذهب من أجل علاج ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله. [المترجم].

(٢) **Voyage dans l'empire du Maroc et le royaume de Fez.**

المنصور. خصّنا مضيفنا بدليل قادنا عبْر طريق مُغبرة محفوفة بشجر الأغاف العملاق والقصب الطويل والكثيف مثل الخيزران، وصبار الهند والكروم وأشجار التين المحمّلة بفواكه ناضجة: تملكتنا فرحة طفل وسط إسراف النباتات الاستوائية هذه. كانت الطريق تحاذي أبي رقرارق بواسطة حافة. كنا نستنشق من أعلاها هبات هواء رطبة كان قد حملها لنا النهر من المحيط. كانت مدينة سلا المقدسة تمتد على الضفة الأخرى بمسجدها وبأسوارها العتيقة المسننة. انتصبت أمامنا بشموخ صومعة: إنها صومعة حسان، اقتربنا منها بواسطة ممر مشقوق وسط غابة من الصبار المشجر.

تُعدّ هذه الصومعة واحدة من أجمل المعالم الأثرية للفن العربي، لا يقل ارتفاعها عن ٢٥ متراً، على الرغم من أنها ظلت غير مكتملة. سبق لي أن رأيت مؤخراً صومعة الخيرالدا باشبيلية، وفوجئت بتشابه الصرحين. هما معا تندرجان في نظام هندسي مماثل، لهما تناسبات متطابقة، تتخذان نفس الشكل المربع والضخم، ولهما نفس عدد الطوابق، ومزينتان بنفس الفسيفساء ويبدو أنهما تعودان إلى نفس الحقبة. وتوجد بمراكش صومعة أخرى مماثلة لهما تماماً، معروفة باسم الكتبية. نسب الجغرافي الإسباني **أنطونيو بونز**[١] بناء صومعة حسان والكتبية والخيرالدا إلى المهندس المعماري الشهير والرياضي العربي الذي أطلق اسمه على علم الجبر[٢].

بينما كان واحد من مرافقي يقوم بإنجاز رسم تخطيطي للمعلمة،

---

(١) انطونيو بونز (Antonio Ponz Piquer) (١٧٢٥-١٧٩٢) كاتب ورحالة إسباني. [المترجم].

(٢) جابر ولد باشبيلية.

جلست على ضغت أعشاب رتمة، وشرعت في التفكير في المصير المختلف جداً للخيرالدا وصومعة حسان. الخيرالدا بناها مسلم وصارت برج جرس لكاتدرائية مسيحية وحولها تنبسط المدينة الأكثر صخباً ومرحاً بإسبانيا؛ ترتفع صومعة حسان فوق أطلال مسجد قديم، في موقع كئيب وموحش: لا تختلف أبداً عن صومعة اشبيلية؛ لكن يبدو أنها تبدو جد مهيبة في وحشتها وكآبتها. كانت أسراب من السنونو تحوم حول إفريزاتها الهوائية، وترتاح فوق شرفاتها: تضاف هذه العصافير، التي نظم فيها العرب الشعر، إلى المشهد غير المتوقع.

المواد التي بني بها الصرح هي بنفس اللون الأحمر لتربة النواحي. وهذا اللون يبرز بشدة وسط خضرة البوادي. بدت لنا الزاوية الجنوبية الغربية للصومعة متصدعة من الأعلى إلى الأسفل، بلا شك نتيجة صعقة البرق التي تحدث عنها **شونيي**[1].

سبَق لي أن صعدت إلى خيرالدا اشبيلية؛ وكنت أود أيضاً صعود صومعة حسان؛ لكنني تأسفت بملاحظتي أن بابها كان مسدوداً بحائط. من أسفل المعلمة ذاتها تمّ أيضاً اكتشاف منظر شاسع: بدت في كل مكان بساتين مخضرة، حيث امتد عدد لا متناه من الأشجار المثمرة. تلك هي خصوبة ضواحي الرباط، حيث موقَعَ كُتاب عرب الحديقة المشهورة لهيسبريس. كانت **لعلي باي** معزة خاصة لهذه البوادي الغنية، وكان يفضلها على كل الحدائق التي رآها بأوربا[2].

---

(١) هو لويس شونيي (Louis Chénier) رافق سفارة **الكونت برونيون** (Breugnon) إلى المغرب حيث مكث ١٥ سنة من سنة ١٧٦٩ إلى ١٧٨٢م وفي سنة ١٧٧٦ عين قائما بالأعمال ثم قنصلا عاما. وقد ألف كتابا عن المغرب في ثلاثة أجزاء سماه **أبحاث تاريخية حول المغرب** تحدث فيه عن المظاهر الحضارية بالمغرب. [المترجم].

(٢) يقول: «وعند خروجي من المسجد، قمت بجولة بين بساتين البرتقال المغروس بضفة=

قصر يعقوب

لم يتبق من قصر **يعقوب** ومن المسجد الذي كانت تشرف عليه الصومعة سوى كومة من البقايا. الحيطان الخارجية وبعض الأعمدة وحدها ظلت منتصبة: لهذه الأعمدة، المبنية بكرانيت ضارب إلى الرمادي، نفس ارتفاع أعمدة مسجد قرطبة الشهير، لكن قطرها مضاعف؛ هي ذات بساطة قصوى: أسطوانة يعلوها تاج يذكرنا بالطراز الدوري. لم يتبق أي أثر للتقوسات المغربية الأنيقة التي كانت تسندها فيما مضى. كان للمسجد امتداد شاسع؛ تغطي بقاياه أكثر من ثلاث هكتارات. تنمو وسط هذه الأطلال نباتات الصبار التي تمنحها طابعاً عجائبياً. يعوض الصبار بإفريقيا اللبلاب الذي يزين أطلالنا بالشمال.

شالة

على بُعد فرسخ من الرباط، وفي نفس اتجاه صومعة حسان، نجد أطلال مدينة شالة العتيقة[1]. لا يدخلها إلا المسلمين. **شوني**، والد

=النهر؛ إنها نوع من الجنة الأرضية؛ وتكون الأشجار مكسوة دوما بالزهور والفواكه، أفوح بشذا رائع، وتجعل في متناول اليد الفواكه الأكثر رقة؛ شجر البرتقال بها جد سميك وكبير وكثيف، حتى أنه بوسع المرء أن يتنزه في ظلاله في منتصف النهار، دون أن يرى الشمس، ودون أ يحس آثاره عليه. إن النشوة التي أحدثتها في بساتين الرباط جد عظيمة، لدرجة أني أفضلها في مختلف مظاهرها مقابل نظائرها الجميلة والمعابر التي بأوربا، بالرغم من الرونق المدروس الذي عليه بساتين هذه الأخيرة». (علي باي، **رحلات عبر المغرب**، ترجمة مزوار الإدريسي، منشورات ليتوغراف، طنجة، الطلعة الأولى، ٢٠٠٨، ص.١٤٣). [المترجم].

(١) **شالة** هي موقع أثري بالقرب من الرباط، المغرب بتاريخ يرجع للقرن السادس قبل الميلاد. [المترجم].

الشاعر السيئ الحظ، الذي كان سفيراً لفرنسا بالمغرب إبان حكم **لويس الخامس عشر**[1]، نسب هذه المدينة إلى أصل قرطاجي وفي واقع الأمر حتى أم المستعمرات القرطاجية بإفريقيا. تمّ العثور فيها على كمية كبيرة من النقود القديمة. ما هو أكيد، حسب قول المؤرخ **كاستلانوس**، أن **الأمام إدريس** في سنة ١٧٢ هـ والذي تمت مبايعته مِلكاً على أوربة، دشّن ملكه السعيد بالاستيلاء على شالة أياماً قليلة بعد تتويجه: كانت تعد بالفعل مدينة جد قديمة. اختارها **يعقوب المنصور** لجعلها عاصمة له، وأسس بها قصوراً رائعة ما تزال بقاياها تُرى اليوم. يرقد رمادها داخل مسجد معروف باسم **منصور**.

وادي بورقراق

كُنا نتحرّق شوقاً لزيارة هذه الأطلال المجهولة، وبتواطؤ دليلنا، تمكّنا من خرق المنع المفروض على المسيحيين من دخولها. تركنا خلفنا، إذن، أطلال صومعة حسان، وسِرْنا عبر ممر منحدر من أقصى وادي بورقراق. إنه وادي التعرية، يبلغ عرضه حوالي كيلومترين، محفوف بستار مزدوج من التلال الشديدة الانحدار، ذو ارتفاع متسق. يُقدم بورقراق، الذي يجري في الجزء السفلي، نمطاً للأنهار الإفريقية: ينبع من جبال الأطلس، يجتاز ما بين ضفتين رمليتين سهلاً عريضاً

---

(١) **لويس الخامس عشر** (١٧١٠-١٧٧٤) وهو ملك فرنسا منذ١٧١٥، ولد لويس الخامس عشر باسم (Louis, duc d'Anjou) وهو الابن الثاني للدوق **لوي دافو** دوق بورجوندي والدوقة **ماري أدلايد** دوقة سافوي. تولي لويس الخامس عشر العرش الفرنسي بعد وفاة الملك لويس الرابع عشر أحد أعظم ملوك فرنسا حيث حكم فرنسا ومنطقة نافارا ذات الحكم الذاتي منذ العام ١٧١٥م. [المترجم].

مستنقعياً؛ وهو علاوة على ذلك، قليل العمق، وكتلة مياهه الجارية يمكن مقارنتها بمياه الوادي الكبير بقرطبة. الأدغال التي تحُدّ مجراه هي التي أعطته الاسم: بورقراق (بوركابة) تعني أبو الأدغال. الوادي طافح بالبحيرات التي تشهد على الفيضانات المتواترة للنهر؛ من بين هذه البحيرات، توجد بحيرات غنية بالملح، حيث يترسب الملح على شكل بلورات رائعة. منحدرات الجبال مغطاة بأشجار الزيتون والبرتقال البرية.

لقاء العرب

حين تركنا البحر على مسافة فرسخ، أمكننا الاعتقاد بأننا في قلب إفريقيا؛ ومما يزيد هذا الوهم، هو أنه بمجرد ما توغلنا أكثر إلى الأمام في الوادي ثقل المناخ بشكل غريب: كنا نتصبّب عرَقاً، شعرنا بانطباع بأننا في دفيئة زجاجية. لاقينا في الطريق قطيع جمال محمّل بقراب مملوءة ماء: عرض علينا العرب الذين كانوا يرافقونها الشرب؛ لكن بسبب الحمى المنتشرة، حرصنا جيداً على عدم الاستسلام لهذا الإغواء، على الرغم من أننا كُنا ضحايا لعطش شديد.

وصلنا، بُعيد ذلك، إلى كهف حيث ينبع ماء صاف: من هناك ملأ أولئك العرب قرابهم. وذلك الماء مجلوب إلى ذلك المكان بواسطة قناة مائية مبنية قديماً، كانت تمتد، فيما مضى، حتى الرباط. توقفت مجموعة مثيرة من المغاربة بمدخل الكهف أتوا رفقة جمالهم من أجل التزود بالماء: كانوا يحملون معهم مجموعة من الخوابي الطينية، ذات مقبضين، وقِرَب من جلد التيس. لاحظنا من بينهم وجها بلحية صهباء، من المحتمل أنه منحدِ ر من الغوط الذين احتلوا فيما مضى البلد. كان

للجماعة مظهر محلي حاولتْ رسمَه ريشة الفنان **ديكامب**[1]. دخلنا إلى الكهف: كان الماء يصدر خريره تحت عريشة نباتات متسلقة: الموقع ذو رطوبة لطيفة: وجدنا به سلحفاة صغيرة، لفَّها واحد من مرافقي في منديل ليهديها لمضيفنا.

قصر شالة

بمغادرتنا النبع، سِرنا أيضاً مدة بمحاذاة النهر، بُغية شغْل العرب عن نوايانا: لكن ما أن غبنا عن أنظارهم، حتى صعدنا يميناً نحو أطلال شالة. بعد أن اجتزنا باباً فخماً على شكل هلال، وها نحن داخل مبنى قصر **يعقوب**.

قبر يعقوب

للأسف لا يقدم هذا القصر أكثر من كومة ضخمة من الأنقاض، تنمو وسطها أشجار النخيل والتين والأغاف. انفلتت قاعة واحدة من الدمار وهي التي يوجد فيها قبر **يعقوب** وعدد من أفراد عائلته. حيطان هذه القاعة مغطاة بالأرابيسك وهي الأخرى دقيقة مثل التي أعجبنا بها بقاعة السفراء بقصر الحمراء؛ كان السقف، الذي لم يتبق منه سوى الأطراف، يتخذ شكل قبة، مثل سقف قاعة الأختين، والذي كان ربما عملاً جد عجيب أيضاً. الأحجار القبرية مقدودة على شكل موشورات يبلغ طولهما مترين؛ وبالكاد ما تبلغ واجهاتها ١٢ سنتمتر من العرض: وهي مغطاة بكتابة عربية ومزينة بفسيفساء جميلة انتزعنا عينات منها.

---

(١) فنان تشكيلي. [المترجم].

الثعابين والحرباء

وجدنا بين هذه القبور ثلاثة ثعابين من النوع السام، المنتشر كثيراً بالمغرب. ورأينا أيضاً حرباء كانت تستدفئ تحت أشعة الشمس فوق الصخور. والحرباء مألوفة جداً بالمغرب: سبق لنا أن رأيناها في الأسواق. وهي الحيوان الصغير الفريد الذي يوجد في الطبيعة: تُغيّر لونها بحسب ما يعتريها من أحاسيس؛ لا يوجد شيء أكثر إثارة من عينيها الواسعتين، وعضلاتهما منظمة بطريقة يمكن أن ترى في نفس الوقت من الجهتين المتقابلتين، وهو ما يجعل منه أثراً مضحكاً تماماً.

حجر القسم

تُرى بجانب القبور حجرة مثبتة في الجدار؛ وهي مغطاة بحروف عربية محاطة بفتحة عريضة تسع لمرور يد. حسب تفسير دليلنا، من هناك، منذ زمن سحيق، كان يستجاب للقسم؛ ويتم القسم بإدخال اليد في الفتحة، والذي ينكث، في حالة الحنث، تتقلص وتقبض على يده مثلما تفعل الساحرة. جرّبنا ذلك، دون قسم، ولم تصدر الحجرة أي شيء من ألاعيبها.

مئذنة المسجد

إن لم يكن مسجد شالة سوى كومة من الأنقاض لا شكْل لها، في المقابل ظلّت المئذنة التي تعلوه محفوظة بشكل عجيب. هذه المئذنة، التي لا يبلغ علوها سوى ٢٠ مترا، هي تحفة للأناقة ورهافة الذوق: وهي مكسوة من أعلى إلى أسفل بمربعات زلّيج صغيرة تآلفت ألوانها البراقة، بذوق مرهف؛ إنها لؤلؤة شالة. وجدْنا في أسفل الصومعة فتحةً لا يبلغ ارتفاعها قدما: كانت هي الجزء الأعلى لباب قديم مردوم تقريباً بسبب ارتفاع التربة. تمكّنا من الولوج عبر هذه الفتحة زاحفين على

البطون، ووسط الظلام المطبق داخل الصومعة، عثرنا عبر التلمس على سُلم عبْره تسلّقنا حتى السقف، من حيث كان المؤذن ينادي المؤمنين للصلاة فيما مضى. جمعنا هناك كمية وفيرة من مربعات الزليج الصغيرة أزلناها بمُساعدة مُديتنا الإسبانية.

حادثة يؤسف لها

على حين غرة جاء فارسان عربيان، وفاجآنا ونحن منهمكين في عملنا المحطم للأيقونات. برؤيتنا هرولا حتى وصلا إلى أسفل الصومعة وانهالا علينا شتماً. أقنعنا أنفسنا بأن اللحظة حانت لخوض صراع حتى الموت، وأعترف بأن هذه الفكرة زودتنا بشعور جد منفر لا يمكن أبداً لمن لم يعيشوه تصوره. فكّرنا بأن الوسيلة الآمنة لتهدئة هياج هذين المتعصبين هي مغادرة المكان الذي تجرأنا على انتهاك حرمته فوراً. واندفعنا إلى السلم مقرّرين استعمال مُسدّساتنا، إن اقتضت الحاجة ذلك.

لكن ما هو غريب قوله، هو أنه حين خرجنا من الصومعة، واحداً تلو الآخر، لم يكن هناك أي فرسان مغاربة. ربما فكّرا بحذر بأنهما كانا أقل منا عدداً. وهكذا فوتّ فرصة رائعة لألون محكي رحلتي بحادثة درامية من النوع الذي نجده في الرحلات الشهيرة **لالكسندر ديما**[1].

باب أثري

بمتابعتنا لاكتشافاتنا وصلنا إلى باب أثري، قُطع قوسُه على شكل هلال: يبلغ ارتفاع هذا الباب ٢٠ مترا، يذكرنا بباب الحكم بغرناطة،

---

(١) **الكسندر دوما ولد دوما ديفي دي لا بيليترا (١٨٠٢-١٨٧٠)** كان يعرف أيضاً **ألكسندر دوما، الأب** كاتب فرنسي، اشتهر برواياته التاريخية ذات حس المغامرة العالية. [المترجم].

وأجرؤ على التأكيد على أنه جميل جداً ولا مثيل له؛ أكيد أنه يعود إلى أزهى فترات الفن المعماري المغربي. هو مزين بترس وبكتابات شعارية. من جهة حيطان شالة هو محمي بواسطة برجين مثمني الزوايا منحاه تشابها كبيراً مع أبوابنا القروسطية العتيقة. كان يقف على واحدة منها لقلق برزانة على قائمة واحدة وكان يبدو أنه مُرتَم في تأملات عميقة، ولم يكن يتحرك كما لو أنه جزء من المعلمة التاريخية. يُعد المغرب هو الأرض الموعودة للقلق: ويعتبر المغاربة طيور اللقلق طيوراً مقدسة، ولا يعاملونها بسوء أبداً.

موضع مدينة شالة

عثرنا على سُلّم مُنهار، قادنا إلى شُرفات الباب. من هناك يتم الإشراف على بنايات القصر العتيق لشالة: التي تغطي امتداداً تبلغ مساحته عشر هكتارات. هذه الأطلال المجهولة هي ربما أجمل ما تركته لنا الحضارة المغربية، وحين نراها في كامل عظمتها، يأخذنا التفكير إلى الأطلال العملاقة للكرنك(١) وبعلبك(٢) أو بالميير [تدمر](٣).

---

(١) **معبد الكرنك** من علامات الأقصر في مصر المميزة حيث كان كل ملك من الملوك المتعاقبين يحاول جعل معبده الأكثر روعة. ليتميز به عن سلفه لذلك تحولت معابد الكرنك إلى دليل كامل وتشكيلة تظهر مراحل تطور الفنّ المصري القديم والهندسة المعمارية الفرعونية المميزة. [المترجم].

(٢) **بعلبك** مدينة لبنانية تقع في قلب سهل البقاع الذي اشتهر بغناه ووفرة محاصيله الزراعية لامتداد أراضيه وغزارة مياه نهر الليطاني التي تروي أراضيه. وهي مركز قضاء محافظة البقاع.اشتهرت عبر العصور لموقعها على الخطوط البرية. شيد الرومان معابد ضخمة فيها. وآثاره الجاذبة للسياح تشهد على عراقتها. يقام فيها مهرجانات عالمية تستقطب أشهر الفنانين العرب والأجانب. [المترجم].

(٣) **هي تدمر** (باللاتينية Palmyra) إحدى أهم المدن الأثرية عالميا لها شهرتها ومكانتها،=

توجهنا مجدداً إلى الرباط في السادسة مساء؛ لأنه كان ينبغي علينا العودة إلى المدينة قبل غلق الأبواب. بمغادرتنا للقصر، عبرْنا السهل الذي كانت تغطيه مدينة شالة العتيقة: لم يتبق من هذه المدينة سوى السور والأبواب، التي تُقدم أحد الجوانب الأثرية. خرجنا من واحد من هذه الأبواب ورأينا من بعيد مساجد الرباط منبثقة، مضاءة بشمس الغروب. سرنا مدة نصف ساعة بمحاذاة تحويطة ضخمة محاطة بأسوار: فهناك كانت تجرى التداريب العسكرية، ومن هناك مرّ الإمبراطور منذ شهر لتفقّد جنوده. روى لنا دليلنا أنه أثناء إقامة السلطان سُرقت خيوله الستة الجميلة.

سلكنا طريقاً محفوفة بأشجار الخروب والليمون والبرتقال ونباتات عطرية؛ هذه الطريق مغطاة بطبقة سميكة من التراب الأحمر، في كل خطوة كانت تغوص فيه أقدامنا كما في رمال البحر: يلتصق هذا الغبار بكل الأشياء بأوراق الأغاف المسننة بأوراق الأشجار، فكل النباتات تحلّت بلون التراب.

في اللحظة المحددة حين اختفت الشمس في الأفق دوّت طلقة مدفع

=تقع في وسط سوريا وتتبع لمحافظة حمص، هي مدينة ذات أهمية تاريخية حيث كانت عاصمة مملكة تدمر وهي اليوم مدينة سياحية. تبعد ٢١٥ كيلومتر عن مدينة دمشق إلى الشمال الشرقي منها، ارتفع شأن المدينة بعد أن أصبحت عاصمة لمملكة من أهم ممالك الشرق مملكة تدمر ونافست روما وبسطت نفوذها على مناطق واسعة واتصفت تدمر بغناها الكبير وكانت مركزاً تجارياً، واليوم هذه هي تدمر تتميز بآثارها الرائعة التي تدل على عظمتها وما وصلت إليه في سالف الزمان، تنتشر أثار **تدمر** على مساحة واسعة وتتكون من شوارع ممتدة تحيط بها الأعمدة وبوابات ومعابد ومسرح وحانات وأكرابول ومساكن وقصور وخزانات ومدافن وقلعة تاريخية. [المترجم].

تعلن حلول موعد الإفطار، وفي نفس اللحظة ظهر المؤذن فوق صومعة مسجد مجاور تمكنّا من ملاحظة تواليات تقوساته المغربية من خلال الباب النصف مفتوح. في ساحة الوضوء كان هناك جنود جالسين مربعي السيقان أشعلوا غلايين الكيف مع الإشارة التي أطلقها للتو المؤذن.

ظهور مخيف

ما أن اجتزنا باب المدينة، أُفزعنا برؤية رأس مُدْماة كانت معلُقة عليه. علمنا أنه رأس ريفي أشعل تمرداً: كانت قد أُتِي بها من فاس حيث تم تقديمها للسلطان بغية التأكيد له أن تعليماته اتبعت حرفياً. وبعد أن عرضت على واحدة من أبواب العاصمة ينبغي أن تجوب المدن الرئيسية للمملكة حتى تتعفن تماماً ولكي تكون عبرة للجميع.

تُعدّ هذه العادة المتوحشة ممارسة متواترة بين السكان المظلومين الذين يدعون إلى مواجهة استبداد مفزع. من النادر أن تكون الأبواب في المدن الكبرى للمغرب محرومة من هذه الرؤوس المقطوعة المرعبة.

زنجي صغير من السودان

بعد أن سِرنا طوال اليوم تحت شمس افريقية، عُدْنا منهكين إلى بيت المحبوب **السيد ديكور**. كان العشاء بسيطاً وغير مسرف: وبما أن الرباط بعيدة عن الحضارة كان ينبغي إحضار كل شيء من أوربا: قدم لنا خبزاً من وهران، وزبدة النورمندي المعلبة، وجبن هولندي؛ أما بالنسبة للنبيذ فكان مضيفنا يصنعه بنفسه من عنب البلد. كان يتكفل بخدمتنا زنجي صغير من السودان، مشترى بعشرين دوقة (١١٠فرنك). كان هذا العبد الصغير ذا ظرافة وحيوية، مكّنتاه على الفور من كسب ودّنا: كان يراقب

كل حركاتنا وفور فراغ كأس شاي أحدنا، كان يجري بسرعة لإحضار إبريق الشاي. كان المسكين الصغير أقرع مثل أغلب مواطنيه. قلت له بأنني سأكون سعيداً بامتلاكك، وأنني أريد أن أصحبه معي إلى بلدي، ومن هذه اللحظة التي كان فيها خائفاً من أن يُباع لي، لم يدع نفسه يقترب مني.

صانع أسنان

التقينا في بيت مضيفنا بصانع أسنان من مرسيليا، كان يعتزم الذهاب إلى فاس لتركيب فك أسنان لزوجات السلطان. تأخر بالرباط وأصيب بحمى البلد. لم يكن المسكين سوى هيكل عظمي بوجه شاحب، كان يبدو أنه لم تتبق له سوى أيام قليلة في الحياة. حُمى المغرب هذه متقطعة: تسود خلال فصل الصيف منذ الأيام الأولى لشهر يوليوز حتى منتصف شهر شتنبر، وتختار بشكل خاص الواصلين الجدد، فقد عانى منها **السيد ديكور** في السنوات الأولى لإقامته: كانت رأسه تبدو أحياناً كبيرة مثل منزل.

المغربي روندا

كان يوجد لدى السيد **ديكور** عربي منحدر من موريسكيي إسبانيا، كان يحمل الاسم الإسباني **روندا**: كان شخصاً ممتازاً، مفعماً بالنبل والزهو؛ وكان في تصرفاته شيء من المميزات القشتالية. برؤيته لم أتمكن من منع نفسي من تذكر آخر **بني سراج**[1]. أكد لنا أن مدينة

---

(١) بنو السراج عائلة غرناطية يروى عنها أنها نالت منصب مهم في دولة بنو الأحمر في القرن الخامس عشر. برز جدهم **يوسف السراج** شيخ القبيلة في عهد **محمد الثاني** ملك غرناطة=

الرباط في جزئها الأكبر مأهولة بالمنحدرين من الموريسكيين المطرودين من الأندلس بعد الاستيلاء على غرناطة، وأن كثيراً من مواطنيه كانوا يحملون أسماء إسبانية: وحافظوا على استعمال اللغة الإسبانية. وهو يتكلّمها أحسن من قشتالي. حين أريناه السلحفاة التي وجدناها بالمنبع، قال لنا بجد من الأحسن أن لا نلمسها، لأن هناك روحاً تسكن جسدها، وتنبأ بحدة أننا سننام مع هذه الروح. وضعنا الحيوان الصغير بجانب حوض الفناء: كان من المضحك حقاً رؤيته حين كان يحرك رأسه وكان يرمش عينيه لكي يأتمن بأننا لم ننصب له فخاً: بعد تفكير طويل قرر الغطس. كان **روندا** على حق، هناك روح في هذا الحيوان.

لم تكن لمضيفنا أسِرّة ليقدمها لنا؛ عوّضها بزربية ممددة على الأرضية، نُمنا عليها جنباً إلى جنب، على طريقة المغاربة بملابسنا، وبمساعدة التعب نُمنا كما لو على سرير من ريش جد ناعم.

دروب الرباط

خصصّت صبيحة اليوم الموالي للتجول في دروب الرباط. فمِن بيْن كل المدن المحمدية التي زرتها، بكل تأكيد هي الأكثر طرافة والأكثر أصالة. فقد خضعت موكادور ومازكان والدار البيضاء للتأثير الأوربي؛

=الملقب بالمستعين وقد ساعد **ابن السراج** هذا الملك في استرداد ملكه الذي حرم منه ثلاث مرات. لا يعرف الكثيرون عن بني السراج ويقال إنهم قدموا الأندلس في القرن الثامن الميلادي، وقد عرفهم الكثيرون لمقتلهم حين جمعهم الملك في ساحة أطلق عليها اسمهم بعد أن شهدوا مقتلهم فيها وكان السبب أن أحدهم أحب فتاة من الأسرة المالكة الذي حاول تسلق النافذة التي تطل منها الأميرة. لا زالت ساحة أوبرا بني السراج أجمل وأروع مع أنها شهدت قصة فظيعة. القصة لم يذكرها رجال التاريخ فلذلك يملأها الشك من كل جانب. [المترجم].

لكن الرباط مدينة مغربية تماماً في طابع طرقها وفي هندسة منازلها، وتعود أصالتها تحديداً لكونها لم تخضع لهيمنة الأوربيين. حينما رأينا الرباط أمكننا استحضار مراكش وفاس وباقي مدن المغرب الداخلية: إنها المدينة المغربية الحقيقية.

طُرق الرباط هي الأكثر اعوجاجاً مما نتصور. في كثير من الأماكن تمر الدروب من تحت قبب وأقواس مزودة بمنافذ. الدرب الأكثر أهمية هو الخاص بالإسكافيين: يوجد هناك أكثر من ٢٠٠ صانع للبلاغي، كلهم يعملون داخل دكاكينهم التي يكترونها من السلطان مباشرة، لأن السلطان هو مالك كل مدن المملكة. الدرب ضيق وملتوي ولا تنفذ الشمس إليه أبداً؛ تسند عصي طويلة، ممدودة عرضاً، مربعات من النسيج بمثابة خيمة، أو دوالي تمنح في الآن ذاته الظل وعناقيد عنب رائعة: ليس هناك ألطف من ضوء خفيف متسلل من بين الأوراق الخضراء.

ينبغي رؤية هذا الدرب الرائع للإسكافيين في السادسة صباحاً، حين يأتيه الصناع التقليديون للتفرغ لعملهم اليومي ويفتحون أبواب دكاكينهم المقفلة بمفاتيح ضخمة. يعرف الدرب حينها حيوية فريدة، فهناك كونت فكرة جيدة عن عادات المغاربة.

كُنا نتجول، دون أن نثير الانتباه، وسط هذه الساكنة الغريبة: كانت النساء ملفوفات في حياكهن شبيهات بأكياس القمح الصلب موهوبة بملكة التنقل، مقارنة غريبة لكنها صحيحة، تصعدن على طول الأسوار، حاملات أطفالهن على ظهورهن؛ كان يتوقف في كل خطوة النساك والأولياء لترك أيديهم يقبّلها مريدوهم؛ يلف الشيوخ سُبحات حول أعناقهم، وكانوا يثرثرون فيما بينهم، وكانوا يتبادلون الأخبار؛ كان

المصابون بالجذام يتقدمون بصعوبة، يعرجون ويجرون سيقاناً ضخمة بشكل كبير[1]؛ جحوش صغيرة كانت تحمل جاثمة في مؤخرتها أجساماً قوية وكانت تجر أرجلها حتى الأرض؛ ثم كان هناك جنود يمتطون خيولاً، باعة الماء، جِمَال كانت تصل حتى الدوالي. بقينا لساعات كاملة نلاحظ مشاهد هذه العادات.

تعصّب السلويين

لم نُرِد مغادرة الرباط دون الذهاب للسلام على سُكان مدينة سلا المتوحّشي الطباع، والتي لا يفصلها عن المدينة المنافسة سوى أبي رقراق. تم تحذيرنا من أن ساكنة سلا هي الأكثر تعصّبا في المغرب لم تسمح أبداً لأي أوربي بأن يقيم بين أسوارها، والأجانب الذين يذهبون لزيارتها يتعرضون لمظاهرات عدائية. أثارت هذه الردود بشكل كبير فضولنا، فعبرْنا النهر للذهاب للتأكد ممّا إذا كان لها أساس من الصحة.

مهاجمتنا بالأحجار

لم نجتز بعدُ أسوار المدينة حتى تُوبعنا فعلا برعاع وقحين ورُمينا بكل أصناف الشتائم واللعنات كان هدفها إسماعنا أن سلا للسلويين. كان الأطفال، أغلبهم عراة، يريدون اعتراض الطريق، كانت الحجارة تتطاير فوق رؤوسنا: لكن كانت النساء هن اللواتي بدين أكثر عناداً وكن يتابعننا بحفل من الصراخ المتوحش. عجائز مخيفات كن يطلقن الكلمات الوقحة حتى كدن يلمسننا بأطراف أصابعهن وكن تظهرن كراهيتهن

---

(١) لا يهاجمه هذا المرض سوى ساق واحدة؛ لكن إن تم بتر الساق المريضة سينقض على الساق الأخرى.

بالبصق في أيديهن لغسلها. لم يسبق لي أن رأيت أبشع من أولئك العجائز الشريرات. أما الرجال فكانوا يستترون بكرامتهم الإسلامية، وكانوا يبدون أنهم لم ينتبهوا إلى حضور المسيحيين الملعونين.

ما عدا تعصب سكانها، لا تقدم المدينة علاوة على ذلك، أي شيء ذي أهمية. وبعد تجولنا في بعض الدروب النتنة اتجهنا نحو النهر.

القراصنة السلويون

تُعد سلا واحدة من أقدم المدن المغربية: كانت فيما مضى مزدهرة تحت حكم القوطيين، في وقت متأخر عن مجيء العرب. خاض العرب معركة ضد القوطيين بنفس المكان حيث تقع الرباط اليوم، وصاروا سادة على المدينة. لقد غدت سلا آنذاك واحدة من أشهر معاقل القرصان الذين أرعبوا، في وقت ما، التجار المسيحيين. كان القراصنة السلويون يذهبون حتى بحار الشمال من أجل نهب السفن والقبض على الأسرى الذين يحولونهم إلى عبيد. أصبح اسم سلا مشهوراً بواسطة محكيات[الأسرى] المسيحيين الذين كانوا قد رزحوا تحت وطأة الأصفاد. ما تزال حيطان أسوار المدينة تضم اليوم العظام المبيضة للتعساء الأسرى البؤساء الذين أغلق عليهم وهم أحياء[١].

كان السلويون يُعدون كمستقلين عن سلطة الإمبراطور، ولم يكونوا يؤدون أي ضريبة. وكان السلطان **يعقوب المنصور** هو من تمكن من إخضاعهم لسلطته. ابتداء من اليوم الذي أكرهوا فيه على اقتسام غنيمتهم مع سيد، أوقف القراصنة نهبهم. وكان ذلك إعلاناً عن انحطاط سلا.

---

(١) Drummond Hay, **le Maroc et ses tribus nomades.**

منذ ذلك الحين امتلأ ميناؤها رملاً. وتكوّن حاجز على مدخل النهر، وليس هناك أي خطر في أن يستعيد السلويون اليوم مهنة القرصنة.

قصف سلا

لم يساهم القصف الذي أنزلته فرنسا بالسلويين سنة ١٨٥١م[1]، بلا شك، ولو قليلاً في القضاء على كراهيتهم للأوربيين. كان السلويون قد

---

(١) في ١ ابريل عام ١٨٥١ جنحت سفينة شحن تجارية فرنسية في سواحل مدينة سلا وكانت تحمل أطنانا من القمح.. وقد قامت السلطات المغربية في المدينة بمساعدة السفينة الجانحة وقامت بإنزال الحمولة وإرسالها إلى مخازن الدولة في الرباط بقصد التحفظ عليها إلى غاية انتهاء عملية إصلاح السفينة.. إلا أن مجموعة من مثيري الشغب بالمدينة قامت بالهجوم على الحمولة ونهبها وهو ما كلف الفرنسيين خسارة كبيرة قدرها حاكم مدينة سلا البطل الباشا **عبد الهادي زنيبر** في تقريره إلى الحكومة المغربية بما يناهز ١١,٥٩١ فرنك وفي إطار المفاوضات بين الحكومتيين الفرنسية والمغربية بغية الحصول على تعويض طالب الفرنسيون بمبالغ تعجيزية مما حذا بالحكومة المغربية إلى وقف المفاوضات.وبعد بضع شهور قررت الحكومة الفرنسية الانتقام فأصدر **لويس شارل نابليون بونارت** قطع العلاقات مع المغرب وإقالة القنصل الفرنسي المقيم في الرباط (**جول دوزان**) من مهامه في ١٠ من نوفمبر صدر أمر إلى الأميرال (لويس دوبارديو) من طرف وزير البحر الفرنسي بتجهيز أسطول مكوّن من خمس فرقاطات حسب المصادر الفرنسية و٦ فرقاطات حسب المصادر المغربية والتوجه إلى مدينة سلا من أجل قصفها انتقاما من الحكومة المغربية اجتمع الأسطول بميناء مدينة قادس في إسبانيا في ال ٢٤ من نوفمبر الأسطول الفرنسي يرسو على مقربة من طنجة وبشكل سري يقوم بإخراج القنصل الفرنسي في الرباط ونائبه ويستقلون سفينة النار فالصبيحة لـ ٢٥ من نوفمبر ١٨٥١ استقر الأسطول الفرنسي في سواحل مدينة سلا الصامدة المجاهدة والتي ظلت لمئات السنين مقرا للجهاد البحري ضد الصليبيين.. وأرسل قائد الأسطول الفرنسي رسالة إلى حاكم مدينة سلا البطل الباشا **عبد الهادي زنيبر** مطالبا إياه بالاعتذار الرسمي والتعويض الذي طالبت إياه فرنسا وإلا ستتعرض المدينة لقصف مدمر.. لكن الحاكم رفض رفضا قاطعا وأبدى استعداده للمواجهة بدأت المعركة في اليوم الموالي على الساعة لـ ١١ صباحًا من خلال إطلاق الفرنسيين نيران=

اختطفوا سفينة تجارية كانت قد جنحت بالقرب من المدينة. وقدمت الحكومة الفرنسية شكوى، ووعد المغرب بإرضائها، لكن بما أن الزمن مرّ دون أن يفي المغرب بوعده، عاقبت فرنسا السلويين. أعلم قائد الأسطول البحري الباشا بأن المدينة ستقصف إن لم يرسل له مبلغ التعويض الذي سبق لوزراء السلطان أن أمروه بأدائه. كما كان منتظرا، لم يكن الجواب مرضياً، فنفّذ القائد تهديده. برؤية السلويين أن القضية كانت تعود عليهم بالسوء، أرسلوا نائبا فوعد بأداء المبلغ المتفق عليه في اليوم الموالي: لكن القائد باعتباره رجلاً محترساً، لم يضف أدنى تصديق لهذا الوعد، وافترض أن المغاربة لم يكونوا يريدون سوى ربح الوقت والاستعداد لتجديد القتال في اليوم التالي؛ وبما أنه لم يتبق له الكثير من الذخيرة قرّر نشر الأشرعة بمحض الإرادة خلال الليل. إلا أن المغاربة في هذه المرة كانوا صادقين، لأن زبونا خرج في اليوم الموالي ومعه المال. بحث الرايس، بلا جدوى، عن السفن الحربية التي اعتقد أنها كانت مختبئة في الضباب؛ حين تبدّد هذا الأخير، ذهب المغاربة

=مدافعهم فبدأت قوات المدفعية المغربية بسلا المتمركزة في برج عدمون إطلاق نيرانها كذالك وظلت الاشتباكات قائمة طوال سبع ساعات دون أي انقطاع..لكن ما لم يحسب الفرنسيون حسابه هو انضمام القوات المغربية في مدينة الرباط إلى الاشتباك كون مدينة الرباط هي الأقرب إلى سلا وهما عمليا مدينة واحدة لا يفرقهما إلا نهر أبي رقراق..وقد عول الفرنسيون في الواقع على ثورة تقوم على الحاكم **الباشا زنيبر** من سكان المدينة إلا أن ذالك لم يقع وتكاثف السكان مع الحاكم للدفاع عن المدينة خلفت المعارك استشهاد ٧ عسكريين و١٥ مدنيا فيما قتل ٤ جنود فرنسيين وجرح ١٨ آخرون وانسحب الأسطول الفرنسي بـ (شبه هزيمة) أمام عزيمة الحاكم الباشا **عبد الهادي زنيبر** وجنوده الأشاوس وسكان المدينة. [المترجم].

برضا إلى أن العدو اختفى، وعادوا إلى سلا معتقدين جداً أن وليهم **سيدي هبوري**[١] أغرق الفرنسيين في البحر.

توقفت القضية هنا، لأن الشكوى لم تذكر أيضاً منذ ذلك الحين. الباشا هو الذي ابتهج كثيراً واستولى على المبلغ المخصص للتعويض على الرغم من أنه نكر ذلك دائماً[٢].

عودة إلى البحر

بعد أن قضينا يومين وليلة في البر، وجب علينا التفكير في الرجوع إلى السفينة. لقد كان الخروج من أبي رقراق أصعب للغاية من الدخول إليه. ففي حالة المد فقط يمكن مواجهة أخطار المصبّ. لم يسبق لي أبداً أن قمت باجتياز محرك للمشاعر مثل هذا. صارعنا ساعة كاملة رجوع الأمواج: كنا نتقدم بوصة بعد بوصة. وغالباً ما كان الموج يردنا إلى الوراء: وأحياناً كان قاربنا المرفوع بالموجة، ينتصب تقريباً عموديا: ثم كان يسقط مجدداً بتثاقل في الثلم المائي، وسط أمطار الزبد. تم استعمال كل مهارة الربان لمهاجمة الموجة المقابلة، تجنبا لأن تعرضنا للانقلاب بأخذنا عرضاً. كان مجدّفونا مبللين حتى العظام بواسطة الموجات التي كانت تحاصر الأمام، كانوا يُصلّون على **النبي محمد** بلا توقف. تذكرت شيخاً زنجياً بلحية بيضاء كان يثير الشفقة حقيقة: كان

---

(١) لعله يقصد الشيخ الكبير والعلامة الشهير سيدي عبد الله اليابوري الأندلسي الأصل السلوي المقر الرباطي المدفن، كان رحمه الله على قدم كبير من المعرفة بالله أخذ عن شيوخ أعلام، ومحققين عظام ورد من بلدته يابورة إحدى مدن الأندلس وحل بمدينة سلا واستوطنها. [المترجم].

(٢) Castellanos, ouvr. cite, chap. VI.

يجهد نفسه، لكن ما أن كان يبذل مجهودات ويعمل كثيراً، كان زملاؤه يؤنبونه مثل متطفّل لم يكن له الحق في مقاسمة الأجرة، وليكسب المسكين أجره، كان قد بلغ من الجهد حتى أنهك.

حين دخلنا أخيراً إلى مياه المحيط، أطلق كل واحد منا تنهيدة الرضا، وبوضعنا لأرجلنا على سطح السفينة، تلقّينا تهاني القبطان، الذي كان يتابع بنظاراته البحرية بقلق كل الحوادث الطارئة لعبورنا. كان يبدو في الحالة التي كان عليها البحر في ذلك اليوم، أن هناك تسعة حظوظ على عشرة، بأن لا نتمكن من اجتياز الحاجز!

العرائش

أرسينا في اليوم الموالي أمام العرائش. هذا المكان يذكرنا بالرباط بموقعه: فهي تقع هي الأخرى على مصب نهر، وهو اللوكوس، ومحمية هي الأخرى بواسطة حاجز. المدينة مبنية بطريقة جذابة على شكل متدرج على جبل مخضر يبدو مثل بستان شاسع. وصل قارب كان على متنه رجلان من الأهالي وثلاثة أوربيين، ليعلن لنا بأن الكوليرا تسود بالمنطقة، وكتبعات لا يمكن أن يعطونا شهادة بسلامة السفينة من الناحية الصحية، عند مغادرتها للميناء. رفض القبطان أي إعلام وأبحر على الفور.

طنجة

من العرائش إلى طنجة لا توجد أبداً السواحل المنخفضة والرتيبة للمغرب الجنوبي، وإنما توجد جبال حيث ينبت من القمة إلى السفح

نبات أرهم[1]. فالمنظر خلاب برأس سبارطيل بشكل خاص: انتصبت منارة بيضاء مثل الثلج على الارتفاع؛ توجد في كل مكان فيلات جميلة تمتد على أسفل الجبل الأخضر، فهذا ليس المغرب المتوحش وإنما أوربا المتحضّرة. تركنا خلفنا المحيط المقفر، والسفن التي لاحت من كل الجهات أعلنت لنا عن قرب مدخل مضيق جبل طارق. أرسينا في الخامسة مساء بطنجة. وعلى الفور كنت محاطاً بمجموعة من اليهود الذين سبق لي أن اشتريت منهم أشياء مثيرة منذ سنتين: ما شككت في أن قسمات وجهي كذلك قد نُسيَت. لم تتغير طنجة منذ إقامتي الأولى: لكن هذه المدينة التي كانت قد بدت لي حينها متسخة جداً، بدت لي تقريباً نظيفة مثل مدينة هولندية، الآن يمكنني مقارنتها بالرباط وموكادور. فندق الكوني الذي كنت نزلت به سابقاً، لم يعد موجوداً؛ مات مالكه، وتوفي أيضاً القايد العجوز؛ أما دليلي الشهير **محمد** فلم أتمكن من معرفة ماذا جرى له.

كنتُ خطّطت لرحلة من طنجة إلى فاس؛ لكن الظروف فرضت علي تغيير مخططاتي. لقد كانت الكوليرا قد سجلت تقدماً كبيراً داخل المملكة، وكانت طنجة هي الأخرى على وشك الخضوع للحجر الصحي، حسب شكاوي السلطات الصحية لجبل طارق. كل الهيئة الدبلوماسية قد فرت قبل الآن. فقررت مغادرة المغرب قبل أن يحاصرني الحجر الصحي، واتجهت نحو الجزائر.

---

(١) أرهم: كثير، غزير. [المترجم].

الفصل السابع:

تلمسـان

الموقع المحظوظ لتلمسان

أول مدينة نجدها بعد اجتياز الحدود المغربية هي تلمسان، العاصمة القديمة للمغرب، التي كانت فيما مضى تحت هيمنة سلاطين المغرب.

طابع المدينة

لا شيء أروع من الوصول إلى تلمسان فجراً، بالكاد يمكن أن نتخيل لوحة جذابة، برُؤيتها ننسى في لحظة واحدة كل أتعاب السفر. كُنّا ما نزال على بُعد فرسخين من المدينة التي رأينا قبل الآن، مآذنها البيضاء تنبثق مثل سراب بعيد. كانت المدينة المحبوسة داخل سورها المحصن، مضطجعة فوق هضبة تشرف عليها من جبال عالية جداً ضواحي جميلة. من أمام المدينة، تظهر قرية بومدين المجاورة، بيضاء مثل حمامة، معلقة بجرأة على جوانب الصخور.

لكن كيف نرسم بكلمات جمال غابات الزيتون هذه التي اختلطت بأشجار التين والرمان والدوالي المحملة بالعناقيد وكل الأشجار المثمرة لأوربا! هذه الواحة العجيبة تعقب البلد الأكثر كآبة والأكثر قُحولة الذي

يمكن تصوره، وبالتجول فيها يمكن تفسير الحماس الشرقي الذي يتحدث به الكُتّاب العرب القدامى. لا يمكن مقاومة الرغبة في الاستقرار في هذه البقعة السعيدة من الأرض، التي على الرغم من كونها واقعة تحت سماء إفريقيا، تنعم، على قدر ارتفاعها[1]، بمناخ طيب وصحي إلى أبعد حد. تلمسان هي المكان الأكثر رطوبة بالجزائر في الصيف. ويكون متجمداً غالباً خلال الشتاء.

كم شعرت بتبدّد أوهامي الشعرية حين دخلت إلى المدينة!

باجتياز باب بومدين، توقعت رؤية مدينة من الحكاية العربية، بدروب ملتوية وضيقة ومتعفّنة ومزدحمة بالناس والحيوانات: وبدلاً من تلمسان أحلامي، وجدت تلمسان مفرنسة، ومعبّدة الطرق ومتحضّرة، باختصار، وبمقاهي تعجّ بالضباط. أكيد أنها من بين مدن الجزائر التي ما تزال تمنح الكثير من المعالم التي تجعلها مماثلة للمدن التي كانت تحت حكم **الأمير عبد القادر**[2].

فقدَتْ تلمسان كثيراً من أصالتها منذ خضوعها للاحتلال الفرنسي. أغلب شوارعها مصفوفة على الطريقة الأوربية. وإذا كانت ما تزال هناك شوارع عربية بدكاكينها الرائعة، فقد تمّ توسيعها وتمّ حفّها بأرصفة

---

(١) يبلغ ارتفاعها ٨١٦م.

(٢) **الأمير عبد القادر ابن محي الدين** المعروف بـ **عبد القادر الجزائري** ولد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم الثلاثاء ٦ سبتمبر ١٨٠٨ الموافق لـ ١٥ رجب ١٢٢٣ هـ، هو رائد سياسي وعسكري مقاوم تقدم (جيش أفريقيا) خمسة عشر عاما أثناء غزو فرنسا للجزائر.هو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي. خاض معارك ضد الاحتلال الفرنسي للدفاع عن الوطن وبعدها نفي إلى دمشق وتوفي فيها وتوفي يوم ٢٦ مايو ١٨٨٣ بدمشق. [المترجم].

وزُيّنت بمصابيح وعُمّدت بأسماء فرنسية. إذ لم تزل تلمسان تقليداً لباريس، فهي ليست بالمطلق مدينة عربية مثل الرباط وسلا.

تلمسان ليست أقل من أكثر الحواضر الفريدة في العالم الإسلامي؛ ربما لا يوجد في أي مكان نفس العدد من المآثر التاريخية العربية المجمّعة في فضاء صغير جداً. ولكي نكوّن، في مدة زمنية قصيرة، فكرة عن المعمار المغربي القديم، لا يمكننا اختيار مجال أحسن منها للاستكشاف.

المسجد الكبير

قضيْتُ يومين كاملين في زيارة العديد من المعالم المتناثرة في المدينة وفي ضاحيتها. فالعديد من المساجد التي كانت فيما مضى تحت السيادة المغربية لم يبق منها إلا القليل قائماً. أغلبها تمّ دكّه بلا هوادة من قِبَل مرصّفي الطرق الذين لا يرحمون. وما بقي قائماً يُقدم فكرة رائعة عن تلمسان القديمة. ذكّرني المسجد الأعظم، المعروف باسم الجامع الكبير[1]، بالمسجد الشهير لقرطبة، بصفوف أقواسه الطويلة على شكل هلال ومحرابه الفاخر، وبفنائه المظلل وبأشجاره النصف استوائية ومئذنته الضخمة.

صلاة المسلمين

حين دخلته، كان وقت الصلاة، ورأيت ما لا يُرى أبداً بقرطبة، كان المسلمون مصطفين بتناظر تحت الأقواس الموريسكية داعين الله. يذكّرنا

(١) جامع تلمسان الكبير، وقد شيد في ١١٣٦ من قبل يوسف بن تاشفين أول خليفة لدولة المرابطين، أما المئذنة فبناها سنة ١٢٣٦ يغمراسن بن زيان. [المترجم].

ترتيلهم البطيء والصارم بغير وضوح بترتيلنا الغريغوري، ومن حين لآخر كانوا يسجدون سوية دفعة واحدة ملصقين جباههم بالأرض، وتخيلت أسلافهم بقرطبة كانوا يرتلون ويسجدون بنفس الطريقة، منذ ستة قرون. حين انتهت الصلاة، خرجوا في صمت، انتعلوا بلاغيهم التي كانوا قد تركوها بباب المسجد وذهبوا للتوضؤ من النافورة ذات الرخام الشفاف التي ارتفعت وسط الفناء المبلط بالجزع. ثم ذهب المريدون إلى درب مجاور وتوقفوا تحت الظل المنعش لدالية معمرة. كان يوجد هناك بيت صغير متواضع كان مقر إقامة ولي يحمل اسم **أحمد بن حسن**(١) المتوفى منذ أربعة قرون، ترقُد بقاياه في الداخل المتحول إلى مصلى: رأيت عبْر النافذة الصغيرة للمزار المؤمنين يقبّلون تابوت هذا الولي الموقّر، الذي كانت تغطّيه أثواب كثيرة.

مسجد جامع أبي الحسن

فضّلت المسجد الصغير المجاور لجامع **أبي الحسن**(٢) على الجامع الأعظم(٣)، وهو لؤلؤة من لآلئ تلمسان، بأقواسه الموريسكية العظيمة

---

(١) أحمد بن حسن الغماري التلمساني، أبو العباس: صوفي، عابد، من أهل تلمسان رحل إلى المشرق وحج مرتين. وأقام مدة بندرومة. أخذ عنه الإمام أحمد زروق. توفي بتلمسان ودفن بخلوته شرقي الجامع الأعظم. [المترجم].

(٢) وهو من أبدع المساجد وألطفها، به نقوش عربية مدهشة ابتني سنة ١٢٧٩م وأصبح اليوم متحفاً لآثار تلمسان، وقد ابتني حسب ما تنص عليه كتاباته الذهبية فوق المحراب تذكاراً لأبي إبراهيم بن يحيى يغمراسن، سمي مسجد سيدي بالحسن نسبة إلى العلامة الأشهر سيدي أبي الحسن بن يخلف التنسي الذي كان يدرس بتلمسان أيام الأمير أبي سعيد(احمد توفيق مدني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤ المصدر نفسه، ص: ٢٠٣. [المترجم].

(٣) هو من أشهر مباني تلمسان يوجد وسط المدينة، وطوله ستون متراً (٦٠م)، وعرضه=

المنحوتة بدقة وأعمدتُه الخفيفة من العقيق اليمان وسقفه من الأرز المنقوش بصباغات شبه ممسوحة وجدرانه التي قد نظن أنها تخاريم رقيقة.

هذا المسجد الجميل الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الميلادي الثالث عشر، تم استعماله كمخزن للعلف أثناء الاستيلاء على تلمسان سنة ١٨٤٢م؛ منذ ذلك الحين تحوّل إلى مدرسة عربية فرنسية. دخلت إليها في اللحظة التي كان ينسحب فيها التلاميذ، مقبّلين جبهة الأستاذ الذي اعتز لي بمدرسته بلغة فرنسية ممتازة، مع نبرة عربية خفيفة. كان الأرابيسك العجيب للجدران في جزء منه قد حُجب بخرائط جغرافية فظيعة.

قبر بوعبديل

حين زُرت المساجد الرئيسية ذهبت لرؤية قبر **بوعبديل** بالمتحف: بفضل الاكتشاف القريب العهد لهذا القبر، تم التعرف على أن آخر ملوك غرناطة توفي بتلمسان. استطاع وادي تلمسان أن يجعل الملك السيئ الحظ ينسى بشكل كبير البلد الجميل الذي كان يسقيه نهر دارو[1].

=خمسون مترا (٥٠م)، وقد شيد في عهد المرابطين، ولكن المؤرخين اختلفوا في من شيده، فذكر المستشرق الفرنسي جورج مارسي أن أوّل من شرع في بنائه هو يوسف بن تاشفين (٤١٠ ـ ٥٠٠ هـ) حوالي سنة (١٠٨٢م). بينما أحمد توفيق المدني المؤرخ الجزائري الكبير يرى أنّ مؤسس الجامع الأعظم هو الخليفة المرابطي علي بن يوسف، وقد انتهى بناؤه سنة (١١٣٥م)، وللمسجد منارة ابتناها الأمير يغمراسن الزياني (٦٠٣-٦٨١هـ) يبلغ ارتفاعها خمسة وثلاثين متراً، ووسّع الجامع وأضاف إليه فناء آخر، ووسّع قاعة الصلاة.أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص: ٢٠٣. [المترجم].

(١) نهر بغرناطة. [المترجم].

المشور[1]

رأيتُ أيضاً المشور، حيث كان يقيم الملوك القدامى والذي لم يتبق منه سوى مبنى السور والصومعة. ثم عبرْت السوق العربي الضاج، ومررت أمام البايلك[2]، حيث كان يمكن أن نرى أيضاً مُنذ سنوات قضر **عبد القادر**. ومخرج المدينة عبْر باب بومدين.

ضواحي تلمسان

سيكون من الصعب الحلم بمنظر جميل مثل هذا الذي نعانقه من هذه النقطة: نكتشف كل بادية تلمسان المخضرة، التي تشرف عليها من كل الجهات جبال والذي ترتكز ضواحيه الجميلة بلطف لا نهائي في سماء صافية باستمرار. انبثقت في مكان بعيد وسط غابة صغيرة من

---

(١) بناه يغمراسن بن زيان قصر المشور وعمره أوائل القرن الثالث عشر عند مغادرته القصر المرابطي الذي كان موازيا للجامع الأعظم. وهو من أشهر آثار تلمسان، وهو مقام عند منتهى شارع الاستقلال الذي يشق تلمسان، بني المشور سنة (٦٥٠هـ) وما زال قائما إلى حد الآن، والمشور مشتق من الشورى وهو لفظ مغربي ومعناه الحقيقي المكان الذي كان يعقد فيه أمراء تلمسان مجالسهم للتفاوض مع وزرائهم ورجال دولتهم حول الشؤون العامة. البستان، ص.١١. وهو قصر يبلغ طوله ٤٩٠ متراً وعرضه ٢٧٠ متراً وقد كان مقر الحكومة إلى أن انحطت سلطة بني زيان؛ ومن سوء الحظ أن تلك البنايات البديعة التي كانت به قد استولت عليها يد الخراب، واحتلتها السلطة العسكرية الفرنسية، فجعلت منها إدارات مختلفة(توفيق المدني، المرجع السابق، ص: ٢٠٣. ٧). [المترجم].

(٢) دار البايلك هي مركز حكم الباي العثماني بتلمسان ومقر إقامته، ويراد بها دار الدولة أو دار الإدارة أو بيت المال، وهي لفظة تركية أصلها بايلق ومعناها الثروة والرفعة. يعتقد أن تاريخ بناء هذه الدار يعود إلى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ولا يعرف من أمر بنائها، وهي توجد بالجنوب من المدينة قرب أسوار المشور الغربية. [المترجم].

الزيتون القرى البيضاء ازكيدة وزاكادير وبومدين. تابعت جادّة محفوفة بأشجار الجوز والتين والخروب ووصلت إلى سهل شاسع مزروع بعدد لا يحصى من أشجار السرو وكله مغطى بالقبور.

المقبرة العربية

كنت بالمقبرة العربية. بدت لي القبور ذات بساطة مؤثرة: لوحان مربعان أو بيضاويان، مغروزان عمودياً في الأرض ومزينان بكتابات عربية؛ يرقد الميت في الحيز الموجود ما بين اللوحين. تنمو من كل جهة أشجار الصبار وصبار الهند. انفصل اللون الشاحب لأوراق أشجار الزيتون عن الأخضر القاتم لأشجار السرو. هنا وهناك تنبثق قبة، وهي بناية مربعة تعلوها قبة يرقد تحتها ولي. بجانب مئذنة ليس لها أقل من سبعة قرون من القدم والتي كانت تُشرف على مسجد اندرس، توقّفت أمام القبة حيث يرقد **محمد بن عمور**(١) المتوفى سنة ١٣٤٤م: وهي مظللة بواسطة بيلسان مُعمّر. بالقرب من هناك يوجد قبْر العالم الولي **أبي إسحاق**(٢)، كانت تتوسّل إليه امرأة مسكينة في هذه اللحظة من أجل شفاء ابنها المريض. توفي سنة ١٢٩٥م (٦٢٥هـ) يدعوه المؤرخون العرب بمَجد قرنِه، وقد نسبوا له مجموعة من الكرامات.

---

(١) لم أتمكن من العثور على ترجمته. [المترجم].

(٢) الفقيه أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي (ت سنة ٦٨٠ هم/ ١٢٨١ م): ولد ونشأ بتنس، جاب أقطار المغرب والمشرق طلبا للعلم والاستزادة، درس بمسقط رأسه بتنس وبمليانة وشلف كما قرأ بتلمسان وبجاية وتونس والقاهرة والشام فأخذ عن فطاحل علماء هذه الأقطار مثال الأصبهاني والقرافي والسيف الحنفي، ثم رجع إلى المغرب، واستقر بتلمسان للإقراء إلى أن توفى سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨م. [المترجم].

سيدي بومدين[١]

بمغادرتنا المقبرة الكبيرة الشاسعة حيث تتراكم منذ قرون عظام المغاربة، لم نتأخر في رؤية قرية العُبّاد[٢] أو سيدي بومدين، الجاثمة فوق جبل مخضر. وصلنا إليها عبْر ممر رائع، يتصاعد تحت أشجار الخروب.

ما تزال بومدين قرية عربية خالصة، إذ أن مخططي الشوارع احترموها: منذ مدة ليست ببعيدة تم قتْل المسيحيين الذين تجرؤوا على المغامرة فيها. ذهبنا إليها لرؤية الضريح العجيب المخلد لذكرى الولي **سيدي بومدين**[٣]، المولود باشبيلية سنة ١١٢٦م وتوفي هنا في عهد السلطان **يعقوب المنصور**، مؤسس مدينة الرباط التي زرتها بالمغرب.

---

(١) «أبو مدين شعيب بن الحسين الغوث، ولد باشبيلية، وعاش في فاس، ثم انتقل إلى بجاية فتلمسان حيث توفي سنة ٥٩٤ هـ». [المترجم].

(٢) يقول الحسن الوزان: «العباد مدينة صغيرة شبه ربض، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان[...] وبها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيراً ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيراً لوجه الله، ويسمى سيدي بومدين». وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، الجزء الثاني ص.٢٤. قرية العُباد (جمع عابد) على بعد كيلومترين من تلمسان. أحمد توفيق المدني،كتاب الجزائر، ص.٢٠٤. [المترجم].

(٣) «وهو تحفة فنية، وآية من آيات الجمال الفني والهندسة العربية البديعة، وموقعه في قرية العُباد (جمع عابد) على بعد كيلومترين من تلمسان، ولقد شيده محمد الناصر بن المنصور الموحدي على قبر الولي الصالح والعلامة الشهير الشيخ سيدي شعيب بن حسين الأندلسي الملقب بأبي مدين الغوث ولد بإشبيلية سنة (٥٢٠هـ) ودرس بها وبمدينة فاس؛ ثم حج إلى بيت الله الحرام وقفل إلى المغرب فانتصب للتدريس ونفع الناس ببجاية، واستقدمه الخليفة يعقوب المنصور إلى مراكش فسار إليها، إلا أنه توفي أثناء الطريق، ونقل إلى قرية العباد ودفن بها وذلك سنة (٥٩٤هـ)؛ وتشمل هذه البناية البديعة ثلاثة=

درَس **سيدي بومدين** بفاس ودرّس بأشهر المدارس العربية، ببغداد واشبيلية وقرطبة. بزيارة قبره نعود بالذاكرة بشكل لا إرادي إلى تلك الفترة حين كان المغاربة في أوج الحضارة وكانوا يبرعون في أزهى لمعان في الفنون والعلوم؛ والذي لا يمكن أن يمنعنا من التفكير في انحطاطهم الحالي وأنينهم تحت تقلبات الشؤون الإنسانية. لم أحس قط بمثل عمق هذا الانطباع في أي مكان إلا في (بومدين)، لأنني لم أر في أي مكان إلا في (بومدين) إحياء هذا الفن العربي في كلِ كماله والذي كان قد اختفى للأبد، ولا تقدم منه إسبانيا إلا نماذج أُفسدت بفعل أضرار الزمن.

القبة

دخلْنا، بعد أن أزلنا أحذيتنا، إلى هذه القبة حيث يرقد سيدي بومدين منذ سبعة قرون، وقلت لنفسي إذا كانت هذه الجوهرة المعمارية جد منعشة وجدّ محفوظة بشكل عجيب من أضرار الزمن، لم يبْد لي أنه

=أقسام: الضريح والمسجد والمدرسة. أما الضريح فهو قبة متقنة النقوش بها قبر أبي مدين، وقبر العلامة سيدي عبد السلام التونسي. والمسجد أبدع جمالاً وأجمل صنعاً من القبة، له باب فخم من أبدع ما أخرجه الفن العربي الأندلسي، وبه نقوش تكاد تكون وحيدة في بابها وتحت قوس الباب مدرج به إحدى عشرة درجة توصلك إلى باب فخم من خشب الساج محلى بصفائح منقوشة نقشاً بديعاً من النحاس الخالص ومساحة المسجد ٣٠ مترا في ١٨متراً، أما بيت الصلاة وحده فطوله ١٠ أمتار وعرضه ١١متراً، وبه جملة من أساطين المرمر البديعة تحمل على رؤوسها نقوشاً خلابة. والمدرسة تشمل مسجداً وصحناً مستديراً حوله بيوت الطلبة المجاورين لتلقي العلوم بذلك المسجد، وقد شيد المدرسة الخليفة أبو حسن علي سنة ١٣٤٧م وقد لعبت أيدي الخراب بهذه المدرسة وفقدت الكثير من زخرفها». أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص.٢٠٤. [المترجم].

تم الانتهاء منها سوى منذ شهر[1]. اعتقدنا أننا في إقامة ساحرة ب**ألف ليلة وليلة**: فالعبقرية العربية لم يسبق لها أن ذهبت أبعد من ذلك في إبداعاتها العجيبة؛ فهؤلاء هم نفسهم من بنى قصر غرناطة، لم يقوموا بشيء جد فاخر وجد متعمق بعناية، وأيضاً معقد مثل القبة التي تأوي قبر **سيدي بومدين**.

يرقُد الولي في مدخر من خشب منحوت ومغطى بنسيج مطرز بإفراط. علّقت فوق المدخر شموع طويلة وبيض النعام، ورايات ومصابيح مغربية. كان الجو مشرباً برائحة الآس الزكية، وكان هناك ضوء لطيف مخفف بألواح زجاجية ملونة، طبعت كل الأشياء بنوع من الغموض.

القبة مسبوقة بساحة صغيرة مبلطة بخزف ملون، ومحاطة بأقواس تسندها أربعة أعمدة من الجزع؛ حيطان هذه الساحة مزينة بآيات قرآنية؛ وفي الوسط فُتح بئر خرزته من رخام أبيض ممزق بعمق باحتكاك السلسلة، ماء هذه البئر مميز في نظر المؤمنين بكل أنواع الفضائل.

المسجد

المسجد المجاور هو الآخر واحد من التحف التي تركها لنا الفن العربي: بابه من خشب الأرز، مزين بالنحاس المنمق، وهو أيضاً عظيم مثل البوابات الكبرى لكاتدرائياتنا القديمة الغوطية؛ قببه وحيطانه معمولة على شكل تخريم دقيق؛ وبشكل خاص المحراب وهو واحد من تُحف الصبر والدقة التي يمكن أن نشاهدها أياماً وأسابيع كاملة دون أن نستطيع

(١) «قبة متقنة النقوش بها قبر أبي مدين، وقبر العلامة سيدي عبد السلام التنسي». أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص.٢٠٤. [المترجم].

استجلاء تعقيداتها المستغلقة: لا يمكن، دون رهبة، التفكير فيما تطلبه من وقت نقش هذه الآيات. في أعلى المحراب تنفتح قبة فاتنة مسننة ومعدة حيث يدخل إليها النور من عدد كبير من قطع الزجاج الصغيرة الملونة، وهذا فتنة ساحرة. كما أن المحراب مثمن الزوايا مثل محراب قرطبة.

المدرسة

يعود تاريخ بناء هذا المسجد إلى القرن ١٣ م وهو محافظ عليه بشكل رائع. وليس الأمر للأسف، بنفس الصورة بالنسبة للمدرسة المجاورة له: لقد كانت قديماً مدرسة عربية يدرس فيها التعليم العالي. وهناك درّس المؤرخ الشهير **عبد الرحمن بن خلدون**. للمبنى مظهر ساحة محاطة بأقواس، تحتها تنفتح الغرف الاثنتا عشر للطلبة. بالكاد ما تبلغ مساحة هذه الغرف ستة أمتار مربعة: لم يتبق منها سوى الحيطان؛ يدخل إليها الضوء عبر الباب، وينام الطلبة على الأرض. وتلفت الانتباه في كل غرفة مشكاة مفتوحة على الحائط. تُذكّر المدرسة جيداً، على مستوى تنظيمها، بأديرتنا القديمة.

توجد قرب المدرسة مقهى مغربية حيث وجدتُ جماعة من العرب مفعمة بالطابع المحلي. من هناك نشرف على بادية تلمسان الرائعة بحزامها الجبلي الضبابي. بينما كنت أعجب بهذه اللوحة التي لا يوصف جمالها، كان خلاسيون صغار يرمونني بالعربية بوابل من الشتائم. فيما مضى كان سكان بومدين يقتلون المسيحيين؛ أما اليوم فيكتفون بسبهم.

قبة سيدي يعقوب

كانت الشمس تغرُب حين أخذت طريق تلمسان. توقفت بالطريق بقبة سيدي **يعقوب**؛ الذي تستنجد به النساء العقيمات. تحتل هذه القبة الموقع الأكثر رومانسية الذي يمكن أن يُحلَم به؛ برزت قبته البيضاء بشدة بين الأخضر القاتم للأشجار: إنها تسند جذع شجرة توت ضخمة أسقطتها العاصفة، وما تزال مع ذلك تواصل نموها. كانت تصلني عبر أوراق الأشجار أصوات بعيدة لمزمار قربة، أضيفت إلى شعر تلك الليلة الإفريقية. كانت السماء ذات صفاء عجيب؛ كنا نستنشق هواء معطراً بنبات مورق؛ كان الهواء لطيفاً ونقياً جداً، إذ تمنيت قضاء الليلة بالقرب من قبة **سيدي يعقوب** هذه.

أطلال المنصورة

خرجت في اليوم الموالي من تلمسان عبر باب فاس قاصداً أطلال مدينة المنصورة القديمة[1]، التي بناها **أبو يعقوب**[2] في بداية القرن الميلادي الرابع عشر أثناء الحصار الذي لا ينسى لتلمسان والذي دام ثماني سنوات[3]. حسب المؤرخ **ابن خلدون**، كانت هذه المدينة تتوفر على قصور رائعة، وكانت تضم ساكنة غنية وميسورة. توجد على بُعد ثلاث كلمترات غرب تلمسان.

---

(١) توجد بالقرب من تلمسان تزخر برمز منطقة تلمسان وهي صومعة مسجد المنصورة والذي بناه المرينيون أثناء حصار عاصمة الزيانيين تلمسان (١٢٩٩-١٣٠٧) وبالطبيعة الجميلة التي تمتاز بها، وذلك بفضل تربتها الخصبة. [المترجم].

(٢) ثاني ملوك بني مرين. [المترجم].

(٣) يقول الحسن الوزان: «ودام الحصار سبع سنوات، واستفحل الغلاء». **وصف افريقيا**/ ج.٢، ص.١٨. [المترجم].

حين سرنا مدة ثلاثة أرباع ساعة على طريق رملية كان انعكاس حرارتها يحرق الأعين، تركنا على يسارنا ما يشبه قوس نصر والذي لم يكن شيئاً آخر سوى واحد من بوابات حائط الخندق الذي تم تشييده إبان حصار تلمسان، وميزناه بُعيد ذلك عن الأسوار القديمة للمنصورة. لا شيء يعيد الانطباع الذي يعترينا حين ننفذ إلى داخل هذا المبنى الذي لم يتبق منه سوى مئات من الحصون ذات بريجات متباعدة بـ ٤٠ متراً. السور ضخم: لقد تجاوزت المنصورة في الامتداد غريمتها تلمسان. تعبر طريق تحفه أشجار السنط يعبر المكان المسيّج من جهة إلى أخرى. ترتفع في الوسط مئذنة المسجد الضخمة التي تهدّم جزؤها الجنوبي. تمّ مؤخرا تدعيم الجزء الذي ظل قائما بواسطة دعامات البناء. من خلال النظر من الداخل، تبدو الصومعة عالية بشكل خارق. يؤدي الباب الذي فُتح بها إلى المسجد الذي لم تتبق منه سوى الحيطان الخارجية المبنية من تراب مدكوك.

أكادير

زُرت في اليوم نفسه أطلال مدينة قديمة أخرى كان اسمها أكادير(١)، بُنيت على أنقاض مدينة رومانية تسمى بوماريا(٢)، بلا شك بسبب الأشجار المثمرة الوفيرة بهذا البلد. تستند مئذنة أكادير الجميلة، التي كانت ترتفع بمهابة وحيدة وسط واحة، على ما يصل إلى ستة أمتار من

(١) هي مدينة كان قد أسسها أبو قرة اليفريني أمير دولة خارجية صفرية في بداية التاريخ الإسلامي في المغرب العربي وهي المدينة القديمة لتلمسان الحالية. [المترجم].

(٢) هو الاسم القديم لتلمسان أسسها الرومان سنة ٢٢٢ بعد الميلاد، واكتمل بناؤها سنة ٢٣٥ وسموها «بوماريا» ومعناها المراعي لما كان فيها من بساتين وأشجار. [المترجم].

الارتفاع على أحجار بوماريا القديمة، وبما أن بعض هذه الأحجار تحمل كتابات رومانية، لقد استطاع علماء الآثار من خلالها قراءة معلومات تاريخية قيمة.

من تلمسان إلى وهران

قادتني، من تلمسان إلى وهران، عربة نقل مسافرين خلال ١٥ ساعة. انطلقنا في المساء وسافرنا الليلة بأكملها واستيقظنا أمام البحيرة المالحة في بادية صفراء ورملية مكسوة بأشجار العنصل وعدد لا يحصى من الدوم ذي الأوراق المغبرة؛ انبثقت في الأفق بعض تشعّبات الأطلس: رسمت هذه الجبال الزرقاء على السماء اللازوردية خطوطاً بسيطة وجسيمة. كانوا سيحملونني فجأة إلى هذه البلاد التي كنت أخمّن أنها إفريقيا: إنها هكذا كما تصورتها. الحوذي يطلق الرصاص من البندقية على صغار الحجل، وكان كلب صيد صغير ممتاز، مليئاً نشاطاً وحيوية، يندفع بسرعة وراء الطرائد. سينفق هذا الكلب بشكل يُرثى له قبْل نهاية الرحلة: شطرته عجلة سيارة إلى نصفين، ما زِلت أسمع النباح الممزق للحيوان المسكين.

وصلنا إلى وهران مغطين بغبار الطريق.

وهران مدينة إسبانية[1]. من المدهش أن تتوفر على مسجد.

(١) «والمدينة أوربية بحتة، لا تكاد تجد فيها للمسلمين رائحة إلا إذا اهتديت إلى حيهم والعنصر الأكبر فيها هو العنصر الإسباني وفيه المتفرنس وفيه الباقي على جنسيته». أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص.٢٤٥. [المترجم].

الفصل الثامن:

بالقبايل

قُلّصت الرحلة اليوم من وهران إلى الجزائر العاصمة إلى ليلة واحدة بالقطار. استيقظنا بمتيجة(١)، السهل الشاسع ذي ٢٠٠ ألف هكتار، الذي تحدّه أولى مرتفعات الأطلس(٢)، وفي الساعة التاسعة صباحا لاح لنا منظر [مدينة] الجزائر، وهو واحد من أجمل الأشياء التي يمكن رؤيتها.

لقاء رائع

سأوفّر على القارئ وصف مدينة الجزائر والذي تم بما يكفي(٣).

---

(١) **متيجة** هي التسمية التي تطلق على مجموعة سهول في المنطقة الوسطي من شمال الجزائر جنوبي العاصمة. وتشتهر بخصوبة أراضيها الزراعية. تزيد مساحتها عن ١٣٠٠ كم٢. كانت قبل الاحتلال الفرنسي عبارة عن مستنقعات مائية. قبل أن يحولها المعمرون الفرنسيون إلى مزارع للحمضيات والعنب، كما أنشؤوا حظائر لتربية الماشية وإنتاج الحليب ومشتقاته. [المترجم].

(٢) يمتد هذا الجزء من جبال الأطلس عبر الشمال محاذيا للبحر الأبيض المتوسط، بنحو ١٥٠٠ كلم من الغرب إلى الشرق في كل من الجزائر وتونس، ويتميز بخصوبة أراضيه. [المترجم].

(٣) واحد من أحسن الأعمال الوصفية للجزائر هو الذي يظهر تبعاً للمؤلف الأخير لـ:=

خلال ثلاثة أيام، استنفدت كل تحف المدينة، المساجد القصور الموريسكية، الأسواق، المقاهي والحمامات المغربية. بينما كنت أتجول بالشوارع متأملاً في القمم الحادة والمسننة لجرجرة[(١)]، كانت تجري في رأسي مشاريع التنزّه في هذه الجبال، التقيت صديقاً كان قد اجتاز للتو البحر الأبيض المتوسط بنفس المشاريع.

كانت واحدة من أروع المفاجآت التي يمكن أن تحدث لمسافرَيْن وجدا في مدينة غريبة وكانا يعتقدان أنهما يبعدان عن بعضهما البعض بألف فرسخ. منذ شهرين حين كنت قد أبحرت بهافر (Havre)[(٢)] قاصدا جزر الخالدات، كنت دائماً أسافر وحيداً وها هي الصدفة ترسل لي أحبّ المرافقين، في اللحظة التي بدأ فيها الملل يتسرب إليّ من شدة وحدتي: لأننا لا نشعر أبداً بالوحدة المطلقة إلا وسط مدن لا نمرّ فيها سوى بجانب الغرباء.

= Casimir Coomans: De marseille à Genes, 3 eme Ed, 1880 تحت عنوان «بالجزائر».

(١) جرجرة هي سلسلة جبلية تقع شمال الجزائر بين ولايات تيزي وزو، البويرة وبجاية، وهي على حدود البحر الأبيض المتوسط والتي تشكل سلسلة جبال طويلة. تتكون جبال جرجرة من جزئين، المنحدر الشمالي والذي يتضمن جزءا من ولاية تيزي وزو، أما الجزء الأخر هو المنحدر الجنوبي التي تتكون من شمال ولاية البويرة، وتبقى القليل منها مترامية في ولاية بجاية. وتمتاز جرجرة بمناظرها الخلابة وتعد واحدة من أجمل جبال العالم بسبب اكتسائها بالثلوج شتاء. [المترجم].

(٢) **لو هافر** Le Havre، وتعني الميناء مدينة تقع في النورماندي، شمال غرب فرنسا، وتطل على القناة الإنكليزية، وبالقرب من السين. [المترجم].

عزَمنا على الانطلاق في اليوم الموالي في اتجاه القبايل الكبرى. كنا نريد الوصول إلى الحصن الوطني والاقتراب من جرجرة عبْر المنحدر الشمالي، وتسلّق جبل لالة خديجة، القمة الأعلى في السلسلة، والوصول بعد ذلك إلى المنحدر الجنوبي، والنزول إلى وادي الساحل[1]. نعلم أن جرجرة هي الكتلة الرئيسية للأطلس الجزائري. قمة لالة خديجة وقمة شيليا[2]، في كتلة الأوراس، هما أعلى جبلين في الجزائر. ارتفاع شيليا هو ٢٣١٢ متر وارتفاع لالة خديجة هو ٢,٣٠٨ متر.

في يوم ١٣ من شتنبر الماضي، في السابعة مساء، انتبذنا مكاناً في عربة مسافرين تنطلق يوميا من ساحة الحكومة.

لدَيّ القليل لأقوله عن الطريق الرابطة بين الجزائر وتيزي وزو، التي سلكناها ليلاً، دون أدنى ضوء للقمر. أذكر فقط أنه في العاشرة ليلاً أيقظَنا من نومنا هرج ومرج غير مألوف: سخنت العجلات فوجب فكها وتبريدها بكثير من الماء وتشحيمها.

---

(١) ينبع من جبل ديرا، فيجتاز حمزة أومال ويسقي أرض بني منصور وينصب فيه قرب أقبو. **كتاب الجزائر**، ص.١٧١. [المترجم].

(٢) جبل شيليا هو جبل بشرق الجزائر يقع في ولاية خنشلة بلدية يابوس العريقة تحديدا ويبلغ ارتفاعه ٢٣٢٨ م، وهو يمثل أعلى قمة بجبال الأوراس وثاني أعلى قمة بالجزائر، معروف بنمو شجر الأرز فيه بكثرة وهو ما جعل من ولاية باتنة تتخذه رمزا لها. [المترجم].

رغاية

سبّب لنا هذا الحادث في توقف طويل في مكان كئيب يحمل اسم رغاية[1]. لجأنا إلى مطعم حيث علّمني رفيقي لعبة الماتادور. من حينها كلما ألعب الماتدور، أعيد رؤية مطعم رغاية دائماً والمزارعين المستعمرين البؤساء الذين كانوا مجتمعين به: يرون بشحوبهم المخيف، وكم كان المكان غير صحي؛ كانوا كلهم موهنين بالحمى التي سببتها خلال فصل الصيف الضايات المجاورة. يا له من عديم التبصر ذاك الذي اختار مكاناً مثل هذا ليؤسس فيه قرية! إذا لم يستطع الأوربيون العيش في الأودية لماذا لا يخلقون قرى في الجبال؟ المزارعون المعمرون المقيمون في هذا الجزء من الجزائر هم في أغلبهم، من الألزاس[2] ومن اللورين[3] أتوا إلى هنا للبحث عن وطن جديد اعتقاداً في الوعود الجميلة.

شعب بني عائشة

توقّفنا، ساعات بعد ذلك، بشِعْب بني عائشة[4]، سلكْنا عبْره بعض

(١) مدينة جزائرية تابعة لشرق ولاية الجزائر هي بلدية تابعة لدائرة الرويبة. [المترجم].

(٢) **الألزاس** (Alsace) هي منطقة ثقافية، ولغوية، وتاريخية، وإدارية في شرقي فرنسا وعاصمتها هي ستراسبورغ. كانت تاريخيا محل نزاع مع ألمانيا. [المترجم].

(٣) **لورين** (Lorraine) هي إحدى أقاليم فرنسا الستة والعشرين. عاصمتها ميس. لورين هي المنطقة الفرنسية الوحيدة التي تشترك بالحدود مع بلجيكا، ولوكسمبورغ، وألمانيا، وتقع لورين في موقع استراتيجي هام عند تقاطع طرق أوروبا يفسر تاريخ لورين الطويل والمفعم والمضطرب في الغالب. [المترجم].

(٤) يسمى ثنية بني عايشة **الثنية** هي مدينة جزائرية تقع في ولاية بومرداس، وتبعد عن عاصمة الولاية بحوالي ١٠ كليومتر. [المترجم].

سهول متيجة بجبال القبايل: مرّ عبر هذا الشّعب الرومان والوندال والعرب والأتراك: كلهم اصطدموا بمقاومة لا تقهر لهذه الشعوب الشرسة[١]. المتعصبة للحرية والاستقلال، مرّ الفرنسيون لأول مرة من هنا سنة ١٨٣٧م، لكن لم ينته غزو القبايل إلا بعْد مرور عشرين سنة بعد ذلك.

منيرفيل

يوجد بهذا الشّعب مكان يحمل اسم منيرفيل[٢] حيث تناولنا كأس عرق مهيّأ من قِبَل امرأة شرسة بقي شخصها عالقاً بذاكرتي. كانت العجوز مغتاظة من أننا كنا وحدنا الذين شرّفنا مشروبها، في حين أنّ مسافري المبنى الدائري كانوا يتنافسون في الغطيط. تحمّل السائق، الذي كان السبب في كل ما لحقنا من سوء لأنه لم يشحم عجلاته، وابلاً من السباب. استعاضت العجوز عن سوء حظها بجعلنا نؤدي ثلاثة أضعاف الثمن، لأنها لاحظت من طرف عينها أننا عُدنا للمرق ثلاث مرات، «مرق دجاج أيضا!».

هوسافيلي

في الفجر كُنا في موقع هوسافيليي[٣]. هناك رأينا أيضاً بعض

(١) مديح ماكسيم.

(٢) تسمى حاليا بالثنية وهي بلدية تقع بين متيجة ووادي يسر بولاية بومرداس على ارتفاع ١٥٠ متر كانت تسمى سابقاً مينارفيل أنشئت سنة ١٨٧٣م. [المترجم].

(٣) ناصرية تقع في ولاية بومرداس على الطريق المؤدية إلى تيزي وزو. تسميتها السابقة لعزيف نزعموم ثم صار اسمها في العهد الاستعماري هوسافيلي تخليداً لذكرى الكونت=

المصابين بالحمى لم تكن وجوههم الشاحبة تثبت سوى أن هذا الإقليم مصاب بالملاريا. من النادر أن تكون أول عدوى بالحمى مميتة؛ لكن غالباً ما تكون مميتة في الهجمة الثانية. هذه الحمى ذات طبيعة متقطعة مثل أي حمى تتولّد عن الملاريا: إنها تزور بالأحرى الواصلين الجدد. كنت سيء الحظ بالتقاط الجراثيم التي شرعَتْ منذ عدة أيام في التربّص بي ولم تظهر بوادرها إلا عنْد وصولي إلى بسكرة. لا تسود الملاريا إلا في الصيف. في الأودية وقرْب الأنهار؛ يكون من الأحسن الذهاب إلى الجبال منذ الإصابات الأولى للمرض. سنطهّر الجزائر لكننا لن نزيل لها مناخها الإفريقي.

بزوغ الشمس

حينما استأنفنا السير كانت الشمس تبزُغ عبر السلسلة البنفسجية لجرجرة، التي كانت تنبثق قممها النّضِرة والرائعة مثل منظر رائع داخل جو ناعم. أنستنا هذه الطبيعة البهيجة، بسرعة، متاعب الليلة الماضية. تحت هذه السماء الحارقة، كانت الساعات الأولى من النهار هي الأجمل في اليوم: كانت نسمات هواء بلسمي تنفذ إلينا بانسياب منعش، بينما كنا ننزل إلى وادي سيبوس[1] الجميل، كانت عقبان بيضاء ونسور ترسم في الفضاء دوائر كبيرة فوق المجرى الجاف للنهر.

=هوسافيليي استوطنتها منذ سنة ١٨٥٧م جماعات من المستوطنين الفرنسيين القادمين من منطقة الألزاس واللورين. [المترجم].

(١) وادي سيبوس، ينبع من الجرجرة ويخترق القبايل الكبرى وينتهي غرب دلس ويصب في مياه المتوسط. أحمد توفيق مدني، **كتاب الجزائر**، م. م، ص.١٧. [المترجم].

بما أنه يبلغ عرض [وادي] سيبوس كيلومتراً على الأقل، لا يجري به خلال الصيف سوى خيط رقيق من الماء: ومع ذلك يُعد النهر الأكثر أهمية في القبايل الكبرى. في الشتاء يتخذ منظرا مختلفا تماما: إذ يزوَّد بكل الجداول التي تتولد من ثلوج جرجرة، وتغطي مياهه حينها كل امتداد الوادي. يغيّر سيبوس، مثل كل الأنهار العربية، اسمه في نقاط مختلفة من مساره؛ يصب في البحر الأبيض المتوسط، بالقُرب من دلس[1]، بعد مسار ١١٥ كلم. في غياب قنطرة لِعَربة المسافرين، يقتصر عبور النهر على طَوْف، وبما أن المجرى مثقل بحصى كبير فالاجتياز جد مسل، حين يحالفنا الحظ في عدم الانقلاب.

وادي سيبوس هذا ذو خصوبة كبيرة. تتم به زراعة الذرة والذرة البيضاء والتبغ. تُسقى الحقول بفضل الفياضانات السنوية للنهر. تُشكل أشجار التين أكبر مورد للبلد: وهي ذات تشذيب ملحوظ، وهي مزروعة بكثافة وتشكل غابات حقيقية. تنمو أيضاً أشجار الصبار الهندي في كل مكان بقوة رائعة، فاكهتها المسماة تين البربر تدخل بكمية كبيرة في تغذية الأهالي. وتمتد غابات الزيتون البري على منحدرات الجبال. تُعد هذه الغابات بمثابة خلوة لبني أوى التي تأتي ليلاً للتسكع حول القرى وتنخرط في حفل للصراخ المتوحش.

---

(١) **دللس أو دلّس** مدينة جزائرية على ساحل البحر المتوسط، بين بجاية ومدينة الجزائر. [المترجم].

القرى القبايلية

تختلف القرى القبايلية قليلاً عن قرانا بمنازلها الحجرية المثبتة بالإسمنت، والمغطاة بالقرميد والمبيضة بالجير. ويبدو أن ذلك يرجع إلى معيار استراتيجي وهو أن القبايليين مجبرون على تبييض منازلهم، بغاية رؤيتها من بعيد.

الأهالي

السكان الأهالي جد مكتظين بوادي سيبوس. تتوالى القرى على مسافات قصيرة واقعة بشكل رائع وسط ركام أشجار الصبار الهندي. رأينا حراثين قبايليين يشتغلون في حقولهم. اقتصر لباسهم فقط على قمصان قطنية طويلة بلا رقبة وبلا أكمام، جد واسعة تسقط مثل جلباب على مستوى الركبتين: ويضعون فوق قُنات رؤوسهم شاشية صغيرة من الصوف وينتعلون نعالاً مصنوعة من جلد البقر. ولا تحجب نساؤهم، على خلاف المغربيات، وجوههن.

ولا يشبه الرجل القبايلي المغربي في شيء وعاداتهما مختلفة تماماً، وتختلف عن عادات العرب الرحل الذين ليس لهم سوى سكن متنقل. القبايلي فلاح: يزرع ما يمتلكه من أرض، التي في ملكيته، ويظل مرتبطاً بالمكان الذي رأى فيه النور. يدلل العربي الحصان، بينما يبقى الحيوان المفضل لدى القبايلي هو الثور. رأيت على طول [وادي] سيبوس ثلاثة أو أربعة ثيران مقرونة: ورأيت أيضاً نساء مقرونات بجانب هذه الحيوانات. هؤلاء النساء القبايليات قويات ونشيطات، لا يمتلكن الجمال الذابل للمغربيات: فهن، علاوة على ذلك، في الغالب ما يكنّ مشوهات الوجه بسبب التهابات العيون. والرجال بشكل خاص هم أكثر

عرضة لهذه العاهة: رأيت بعض سيئي الحظ وقد خرجت أعينهم بأكملها من محاجرها وكان يقتات منها الذباب. ويرجع السبب إلى قذارتهم الدائمة. وبشكل خاص في عادتهم المتمثلة في عرض قُنات رؤوسهم المحلوقة إلى الشمس الحارقة ونومهم في الهواء الطلق. تمنح هذه العادة، المنتشرة بين كل المسلمين الفقراء، قُنات رؤوسهم صلابة وغلظة لا تتصوران. يتعارك الأطفال على طريقة تناطح الأكباش، رأس في مقابل رأس، وهو لعب متواتر بشكل كبير بالارتماء في الهواء وجعل الرأس تسقط على رأس الحجر أو أجسام أخرى صلبة من شأنها أن تحطم جمجمة مسيحي.

تيزي وزو

بعد ثلاث عشرة ساعة من السفر، وضعتنا عربة السفر بتيزي وزو (شعب الجولق) وهي واحدة من أهم المراكز العسكرية بالجزائر. إنها مفتاح وادي سيبوس. بنى الأتراك قلعتها فوق أطلال رومانية. تم ذبح سكان تيزي وزو والمدينة المجاورة لها باليسترو[(١)] كلهم تقريباً، أثناء تمرد القبايل سنة ١٨٧١م[(٢)]. وهي اليوم مدينة صغيرة تسكنها ٤٠٠٠ نفس، واقعة بشكل رائع في سفح جبل بلّيوة[(٣)] المشرف عليها من

---

(١) هي الأخضرية أنشئت كمستوطنة في ١٨ نوفمبر ١٨٦٩ بموجب مرسوم صدر من بلاط قصر الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث وكانت تسميتها في ذلك الوقت «باليسترو» Palestro تخليدا لذكرى معركة باليسترو وهي مدينة في شمال إيطاليا.وتسمى الأخضرية هي مدينة وبلدية بدائرة الأخضرية ولاية البويرة في الجزائر. أصل التسمية الحديث للمدينة نسبة إلى الشهيد رابح مقراني المدعو «سي لخضر». [المترجم].

(٢) يقصد هنا ثورة محمد بن الحاج احمد المقراني التي استشهد فيها. [المترجم].

(٣) جبل يوجد وراء تيزي وزو. [المترجم].

الشمال: إنها تشرف على كل وادي سيبوس، وتبدو السلسلة المسننة لجرجرة من بعيد.

القلعة الوطنية

توقّفَت العربة هنا، كان ينبغي أن نصعد عبر عربة خفيفة لتسلّق المنعرجات السريعة المؤدية إلى الحصن الوطني[1]. وتبلغ المسافة بين تيزي وزو والحصن الوطني ١٨ كلم. بُنيت الطريق عسكريا بواسطة **الماريشال راندون**[2]، وتم الانتهاء منها في ٢٢ يوماً، في وسط البلد الأكثر جبالاً الذي يمكن تصوره. فالانضباط العسكري وحده القادر على إنجاز مثل هذه الأعمال الخارقة. البلد الذي نسير فيه له طابع إفريقي تماماً: الجبال المنتصبة في الجنوب حارقة ومكلسة. توجد في كل مكان غابات الزيتون البري: ويُمْكن الاستفادة منها بتطعيمها. لا بد أن تكون هناك حيوانات برية في هذه الغابات كالفهود والضباع والخنازير وربما الأسود، لأن جبال القبايل هي قمتها المفضلة.

اختصاراً للطريق سْرنا بممرات معوجّة؛ لكن وبما أن الصعود شاق، والشمس في ذروتها، كنا نحن أيضاً في حالة يرثى لها، مثلما وجدنا أنفسنا في ذلك اليوم بالحمام المغربي بمدينة الجزائر. يا له من سعير بشع تعرفه القبايل في منتصف النهار! أطفال القبايل وحدهم الذين

---

(١) هو أكبر الحصون التي شرع الفرنسيون في بنائها في منطقة القبايلكان يسمى حصن نابليون ثم أصبح يسمى الحصن الوطني. هو اليوم يسمى أربعاء نايث إراثن. انظر بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر من ١٨٣٠ -١٩٨٩**، منشورات دار المعرفة، الجزائر، ٢٠٠٧، الجزء الأول، ص.١٢٩. [المترجم].

(٢) جاك لويس سيزار كونت راندون (Jacques Louis César Alexandre) (١٧٩٥-١٨٧١).

يبدون أنهم كانوا في بيئتهم: رأيناهم يجرون، رؤوسهم عارية وحليقة وينخرطون في معارك عنيفة في كل مرة حين نرمي لهم بقطعة نقدية: يضع المنتصر الغنيمة في أمان بفمه، مقرراً، بشكل كبير، عض كل من تجرأ على انتزاعها منه بأسنان قوية.

وصلنا في الساعة الواحدة إلى الحصن الوطني، الذي بدا لنا منذ مدة طويلة فوق رؤوسنا، جاثما فوق قنة جبل يبدو من المتعذر بلوغه. بمجرد ما اجتزنا حائط المبنى حتى كانت المفاجأة كبيرة حيث وجدنا أنفسنا في قرية فرنسية يبدو أنها نُقلت بواسطة جني إلى قلب القبايل الغامض، قرية لها كنيستها ومدرستها ويبلغ عدد سكانها ٢٦٢ دون احتساب أفراد الحامية. كل هؤلاء الناس يعيشون داخل مبنى الحصن الذي يحتل الموقع الأهم في القبايل الكبرى: الهضبة الرائعة التي تحمله تقع على ارتفاع ٩١٦م فوق سطح البحر، وسط بني إيراثم[١] الذين قاوموا أطول مدة الجيش الفرنسي.

بُني الحصن في المكان نفسه الذي كان فيما مضى قرية قبايلية[٢]، اشتري من الأهالي بـ ٢٥ ألف فرنك. يبلغ محيط سور الحصن ٢٠٠٠ متراً. تحميه ١٧ بريجة. وضع الماريشال حجره الأساس سنة ١٨٥٧م. يُشرف من أعلى قمته هذا الحصن المهيب على كل بلاد القبايل ويوقفها عند حدها.

---

(١) بني إراثن تابعة لبلدية أربعاء نايث إراثن. **معجم قبائل ودواير الجزائر**، إعدادا ف. أكاردو، تحت إشراف لومي ردي فيلر، ترجمة حمزة الأمين يحياوي ومالك بن خيرة، عالم المعرفة، الجزائر، ٢٠١٣. [المترجم].

(٢) هي قرية ايشرعيون المدمرة بمنطقة اربعاء ناث إيراثن، ٢٧ كلم شرق تيزي وزو. انظر بشير بلاح، م. م. ص.١٢٩. [المترجم].

فندق السياح

كنا جائعين ومغبرّين ومتعبين من السفر، وجدنا مأوى بفندق السياح. من كان يتوقع أن نجد فندقاً للسياح لدى بني إيراثم! لا يأتي إلى هنا سوى عدد قليل من السياح ونحن اليوم الوحيدون.

تمرد القبايل

حكت لنا المضيفة أثناء الغذاء كل حوادث الحصار[1] التي تحمّلها الحصن الوطني أثناء تمرّد القبايل سنة ١٨٧١م. كانت على عِلم بما كان يحدُث بواسطة قبايلي قُتل من قِبل ذويه حينما اكتشفوا أنه جاسوس١٥ يوماً قبل بداية الاعتداءات: كان بإمكانها الفرار، لكنها لم ترد. ابتدأ الحصار يوم ١٦ أبريل واستمر حتى يوم ١٦ يونيه: وبما أن الحصن كان في حالة جيدة للدفاع، والتي هو عليها اليوم، فقد تم إبعاد المحاصِرين بسرعة؛ لكن الأشغال لم تكن قد انتهت بعد، وأن المحاصَرين كانوا قلة، علاوة على ذلك، وكان القبايليون بالتأكيد سيدخلون إلى المكان لو تجرؤوا على محاولة تسلق حيطان الحصن؛ لقد حملوا معهم سلالم، لكنهم لم يكونوا يملكون الشجاعة لاستعمالها. وجدوا من السهل جداً إخضاع المحاصَرين بالمجاعة، وهذا ما كان سيحصل، لو لم يأت الجنرالان **سيريز**[2] **ولالمان** أخيراً لإنقاذ المكان.

---

(١) يقول بشير بلاح: «وهوجمت مواقع العدو من مليانة غربا حتى القل وباتنة شرقا، ومن البحر إلى الصحراء جنوبا في كافة المناطق الخاضعة لنفوذ الطريقة الرحمانية؛ في بجاية، وجيجل، وسطيف، ودلس، وتيزي وزو، ولاربعا ناث إراثن (فور ناسيونال) وذراع الميزان والأخضرية (باليسترو) و...» المرجع السابق، ص.٢٩٧.

(٢) هو جان بابتيس سيريز توفي سنة ١٨٨٩م. [المترجم].

تترك جولة في ضواحي الحصن ذكرى لا تُمحى: كانت المناظر غاية في الجمال، وخصوصاً، باتجاه الجنوب، حيث تشرد العين في الأودية المخضرّة التي تشرف عليها مجموعة من قمم الجبال الشديدة الانحدار المتوجة بقُرى القبايل. هذه القرى في الغالب ما تكون في حالة حرب فيما بينها، تحتل دائماً مواقع من المتعذر الوصول إليها تقريباً. يسدّ الحاجز العظيم لجرجرة الأفق: منظر السلسة الجزائرية هذا لا يُنسى أيضاً مثل منظر البيريني حين نعانقها من أعلى الساحة الملكية لبو (Pau)[١]: لكن كم هو المنظر مختلف! فجبالنا الأوربية لا يمكن أن تقدم أي فكرة عن الكتل الصخرية الرائعة، التي يبدو من المتعذر بلوغها، وقممها التي تبرز في القلاع، وفي قبب أجراس وفي بريجات صغيرة وفي أسوار عمودية. تتعاقب القمم مثل أمواج المحيط، كلها ذات سحنة رمادية تمتد بحيوية على سماء شديدة الزرقة.

لا يمكن تصور الآثار المناخية التي ينتجها هذا الضوء الإفريقي العنيف. الهواء غاية في الصفاء، وتبدو هذه السلسلة، الواقعة على ٢٥ كلم على الخط الأيمن، أنها توجد على بُعد بضع خطوات: كنا نعتقد أنه بإمكاننا لمس الجدران على بُعد رمية حجر.

إذا كانت تقع تحت نفس خط العرض مثل الألب، ستحمل الجرجرة ثلوجا أبدية؛ لكن الثلوج تذوب في الصيف تحت السماء الإفريقية الحارقة: تتجرد القمم في هذه الفترة من السنة تماماً من بياضها الهائل. وهو العنصر الوحيد الذي ينقص جمالها. العيون المتعودة على

---

(١) مدينة فرنسية تقع في منطقة البرانس الأطلسية. [المترجم].

صقيع الألب لن تألف بسرعة الجبال الإفريقية التي لا تزيّنها هذه الحِلية المبهرة.

أطفال القبايل

كنا جالسين على لفيف سميك لديس[١]، ظللنا صامتين أمام هذا المنظر الرائع. لكننا انتُزِعنا من أحلامنا بوصول مفاجئ لمجموعة من الأطفال القبايليين، الذين لم يكن لهم من ملابس سوى عرف شعر فوق قُنات رؤوسهم. تجرؤوا على أن يطلبوا منا بعض النقود، مبتسمين ومظهرين لأسنان تباين بياضها عن سُحناتهم السمراء: من أجل إغرائنا قالت لنا الفتيات الصغيرات بأننا جميلون جداً. آه! المتدللات. كم كن أكثر طرافة ولطفاً، بعيونهن الواسعة المدهشة، وشعورهن المنفوشة! لكن يا لها من قذارة! لقد حلّت القذارة محل الملابس. كن يشاهَدْن، بشكل غير جائز، عبْر نظارتنا السوداء التي كانت مسلّطة عليهن: كنّ للأسف في أمس الحاجة! لأن واحدة من أولئك الفتيات، لم تبلغ بعد سبع سنوات، كانت مُقلتا عينيها قد ألهبت بفعل الشمس الإفريقية. أراد رفيقي رسم صغار القبايل هؤلاء، لكنهم بمجرد ما رأوه تملكهم الخوف وأطلقوا سيقانهم للريح.

قافلتنا

خصصنا صباح اليوم الموالي للاستعداد لنزهتنا بجرجرة. في الزوال ركبنا مطايانا، بعد أن تصافحنا مع ضباط المكتب العربي الظرفاء. كان

(١) عشب ذو أوراق مسطحة وكثيفة. [المترجم].

للقائد الأعلى الفضل علينا إذ وضع تحت تصرفنا «رداء أزرق» أو خيّالاً عربياً ليخفرنا وسط قبائل «القبايل» التي سنعبُرها: لقد تلقى الأمر من العقيد بأن يصادر الرجال والزاد الذين سنحتاج إليهم، ويتكفل بأمننا. شكّل المرشدون والبغالون باقي عمالنا المكونين كلهم من العرب.

عليّ

كانت قافلتنا الصغيرة تبدي واحداً من المظاهر الأكثر روعة. كان يسير في المقدمة جندينا **علي بن أحمد** ممتطياً حصاناً عربياً جميلاً، ومرتدياً سلهاماً أزرق ويعتمر قطعة ثوب رقيقة بيضاء. وحولها عمامة من خيط سمراء من وبر الجمال، وكان ينتعل بلغة سوداء تركت الساقين عاريتين ومتينتين. كان يحمل بندقية على كتفه. وكانت تزين وجهه المسمر لحية سوداء. إنه قائد الجنود، ويبدو أنه جد فخور بما كان يمارسه من سلطة على البغّالين.

مطايا القبايل

كانت بغالنا مُسرجة بطريقة غريبة: حزام غليظ بمثابة شكيمة وسلاسل حديدية بمثابة زمام، ما أن تبدأ البغال في الهرولة، حتى تصدر صليلاً مُصِماً للآذان. ثم أي سرج! نوع من البردعة يفرض عرضها الكبير تباعداً كبيراً بين الساقين، والذي يصير خلال ساعات عذابا حقيقياً. لا تزعج هذه الوضعية أبداً أبناء البلد الذين تعودوا على الجلوس وأرجلهم مربعة؛ لكن ليس هناك شيء مؤلم مثل البردعة بالنسبة للنصارى الشرفاء. فمن الواضح أن البردعة ليس لها ركابان، وأن

الوسيلة الوحيدة للفارس هي إدخال قدميه في الخُرج (التليس) أو كيس القمح الذي يميل من كل جهة للبردعة. كان رفيقي يبدو رائعاً فوق السرج ساق من هنا وساق من هناك. ما رأيه فيّ؟ يا لها من فروسية مضحكة!

تيليلت[١]

خرجنا من الحصن عبر الباب الجنوبي، ودلفنا إلى طريق زرعت فيها روبينيات[٢]. خلال ٥٠٠م بالكاد ما اكتشفنا سلسلة جرجرة بأكملها: اعتقدنا أننا سنستطيع تسلقها في ربع ساعة، لفرط أن الهواء كان شفافاً. انتصب جبل لالة خديجة الذي سنتسلقه غداً مثل هرم مشرفاً بكل علوه على القمم المجاورة. غير بعيد عن هذه القمة انبثقت على اليمين الكتلة الكلسية لتيليلت، المليئة بالأبراج، بقمم تبدو أنها تهدد السماء: يبدو أنها قصر من قصور **ألف ليلة وليلة** شُيّد على قمة الأطلس.

وادي القبايل

تابعنا ممتلئين بالهمة والأمل، طريقاً عسكرية جميلة مشقوقة أفقياً في الجبل، تتلوها كل التعرجات المتقلبة: لم نجد فيها أي زاوية ظل، وكانت الشمس الحارقة في أوجها والتي تنعكس بها على الجدران الصخرية التي تسندها. تؤدي هذه الطريق من الحصن الوطني إلى برج

---

(١) بطن من قبيلة بني منكلات على مسافة ١٠ كلم جنوب شرق أربعاء نايث إراثن وعلى الضفة اليمنى لواد جامع المتفرع من نهر سيبوة.معجم قبائل ودواوير الجزائر، م. م. [المترجم].

(٢) جنس من الأزهار للتزيين. [المترجم].

بني منصور[١] بواد الساحل، وراء جرجرة؛ تعبُر السلسلة من شعب تيروردا[٢]؛ لدى قبيلة إيليتن[٣].

طبيعة عذراء

بعْد أن سلكنا هذه الطريق السهلة على مسار سبع كيلومترات، دخلنا يميناً في ممر بِغال قادنا إلى أقصى وادي نجهل اسمه، ولكنه من أجمل المواقع التي صادفتها منذ سفري بالجبال.

لا الألب ولا البيريني[٤] أكثر إغراء من أودية القبايل هذه. والذي يفتن، هو هذه الأعشاب الإفريقية التي تنمو بشدة خارقة في هذه الجبال التي تحجب رياحاً صحراوية جافة. إذا كانت توجد بالعالم حديقة أرميد، فإنها البلد الذي نسير به في هذه اللحظة؛ فالأنواع الغابوية المختلفة جداً توجد مجتمعة بها: أشجار الزيتون والرمان والبلوط الأخضر والفلين والقطلب والدفلى والسنديان الأخضر، ترتفع حولنا مع

(١) قبيلة تابعة لبلدية سور الغزلان، على مسافة ٦٠ كلم شرق هذه المدينة، على واد كرمة وعلى واد امهرير المتفرع من واد الساحل، تتألف هذه القبيلة من البطون التالية: تاوريرت، تيرليت، ايغيل أولاد ليان وأولاد بوعلي. معجم قبائل ودواوير الجزائر، م. م. [المترجم].

(٢) بطن من قبيلة بني إليلتن على مسافة ٢١ كلم جنوب شرق أربعاء نايت اراثن وعلى ٣ كلم شمال مضيق تيروردا.معجم قبائل ودواوير الجزائر، م. م. [المترجم].

(٣) قبيلة بني اليلتن تابعة لبلدية اربعاء نايث إراثن، على مسافة ٢٠ كلم جنوب شرق أربعاء نايث إراثن. **معجم قبائل ودواوير الجزائر**، م. م. [المترجم].

(٤) جبال البرانس، البيريني سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، بين فرنسا وإسبانيا وتمثل الحدود الطبيعية بينهما. تمتد لمسافة قدرها ٤٣٠ كلم من خليج بسكاي بالمحيط الأطلسي في الغرب إلى البحر المتوسط في الشرق. أعلى نقطة بها تسمى «بيكو دي أنيتو» وتعلو بارتفاع ٣٤٠٦,٢ م. تفصل الجبال شبه جزيرة أيبيريا عن فرنسا. [المترجم].

تنوع لا نهائي للأشكال والأوراق، فوقنا هناك أشجار الجولق والمصطكى والإثل الإفريقية والآس وباقة من الزهور من كل الأنواع. هنا وهناك تلاحَظ أشجار مقدسة تتدلى على أغصانها، وفاء بالنذر، أسمال من قماش أحمر.

يسقي هذا الوادي البهيج بواسطة واحد من هذه الجداول الجبلية التي يوقظ ماؤها الصافي والوافر ذكرى الألب. حاذيناه مدة ساعتين، وعبرناه بواسطة طوف، من وقت لآخر، لأنه لا يوجد أدنى أثر لممر هذا الوادي البري الذي يُذكّر الأرض بأول أيام خلقها. يمكننا الاعتقاد بأننا الأوائل الذين يكتشفون هذا الموقع المجهول: لم يمر به أحد، بما في ذلك القبايليون، الذين يهربون من الأودية من أجل الإقامة فوق قمم شديدة الانحدار.

كم استنشقنا هواء نقياً في هذه الأماكن الموحشة المنسية لدى الإنسان! كم نحس بأننا سعداء وأحرار! كم تصبح الحياة هناك خفيفة! كان لنا وجود حالم رائع بخاتم الحضارة، لا نستطيع مقاومة السحر الذي تمارسه هذه الطبيعة العذراء على أي شخص لم يفقد بالكامل غريزة استقلاله الأول.

بما أن عرَبَنا كانوا يتحدثون فيما بينهم بلغة القرآن، كنا أنا ورفيقي نتفلسف بهذه الطريقة. وحينما لم نكن نريد أن يفهم **عليّ** حديثَنا، الذي يفهم الفرنسية، كنا نتحدث بالإنجليزية أو بالإسبانية: **عليّ** الذي كان يشك كثيراً بأننا كنا نتكلم عنه، كان يبدو وأنه جد منزعج من عدم فهمه للغتنا الغامضة. لا يمكن أن نتصور كم هو مهم استعمال لغة أجنبية بالجزائر: الفضول هو أدنى عيب لدى العرب، وآذانهم ممدودة بلا توقف.

أشجار التين

غادرنا الظلال المنعشة لواد عيسى[١]، لتسلّق المنحدر الوعر لسلسلة جبال جرجرة حيث ينمو عدد لا يُحصى من أشجار التين المحملة بفواكه ناضجة طيبة. هذا التين القبايلي لذيذ: يوجد منه الأسمر والأبيض، الأبيض له مذاق رهيف. كل أشجار التين محصية بدقة، والقبائل القبايلية خاضعة للضريبة بحسب عدد أشجار التين كما في الصحراء التي يتبعون فيها عدد النخيل. التين الطري مُسْكِر مثل النبيذ الجديد، وعموماً فهذه فترة جني التين التي تهيج لدى القبايليين أفكار الحرية والانعتاق.

وصول إلى قرية

تسكن في قمة الجبل قبيلة لم أدوّن اسمها. دخلنا في الخامسة مساء إلى قريتهم. كان عليّ يحمل رسالة من المكتب العربي يود تسليمها إلى القائد: حينما كان يقوم ببحثه، كنا ننتظره على متن بغالنا، كما يليق بشخصيات مهمة تكرّمت بزيارة قبيلة قبايلية. بُعيد ذلك رأينا وصول القائد مدار البحث: كان يلبس جلباباً واسعاً أبيض وكان يضع على رأسه طربوشاً أحمر مزين بالحرير: وكان يمسك بيده عصا؛ رمز السلطة. أتى إلينا، صافَحنا، وحيّانا بالجملة الصغيرة النمطية لدى القبايل: «مرحباً، كيف حالك؟» هذا كل ما كان يعرفه من اللغة الفرنسية. بينما كان يتبين فحوى الرسالة، اقترب منه ببطء زنجي شاب جد فضولي، فتلقى ضربة عصا من القائد: فالعصا ليست، إذن، رمزاً بسيطاً. انسحب الزنجي خجلاً، وسط قهقهة الحشد.

---

(١) قرية تابعة لولاية تيزي وزو. [المترجم].

كان وصولنا إلى هذه القرية، المتعذّر بلوغها في قمة الأطلس، حدثاً رائعاً: كان كل السكان مجتمعين حولنا، وقد تفحصونا بفضول صامت. كان كل قادم جديد يوجِّه لنا تحية احترام. لقد اعتبرونا، بكل تأكيد، تابعين لسلطات عسكرية، وكنا نردّ على هذه التحيات العسكرية بمثلها، بوقار.

نساء القبايل

فالنساء اللواتي تبقّين مخفيات لدى المغاربة، يظهرن هنا بكل حرية، وتبدين أنهن متلهفات أكثر من الرجال لأن تحظين برؤية الروميين: ولا تعبأن بأي طريقة بحجب وجوههن، وعلى عكس المغربيات، وهن شبه عاريات؛ جلابيبهن، المطابقة لجلابيب الرجال، تنكفئ على الظهر وعلى الصدر وتترك الخواصر عارية حتى الحزام؛ تلففن رؤسهن بمدراس قطني، وغالباً من حرير. آذانهن مثقوبة من أعلى يثبتن بها أقراطاً كبيرة. حين تحملن على رؤوسهن واحداً من تلك الأواني القبايلية التي يُذَكِّر شكلها بالجرار الرومانية، تبسطن ببشاشة سواعدهن العارية رافعات مرافقهن نحو السماء، وتبدين في هذا الوضع الكلاسيكي جميلات المنظر بأعينهن السوداء الواسعة المشعة، وقوامهن الرشيق ومشيتهن السلسة.

منظر المنازل

كانت المرة الأولى التي نجد فيها أنفسنا بقرية قبايلية. للدخول إليها، كما للخروج منها، نمر من تحت ما يشبه مركزاً للحراسة وذي أبواب جد واطئة حتى أنه يجب أن ننحني ونحن على مطيتنا لكي لا تكسر الرأس على الحائط. باجتيازنا لمركز الحراسة وجدنا أنفسنا في درب

طويل ليس له أي حجر تبليط سوى خشونة الصخور، بالكاد ما يبلغ عرضه مترين ومحفوف بحيطان بلا نوافذ ولا أبواب: هذه الحيطان بمثابة سياج للساحات التي تسبق المنازل.

لا شيء أكثر بدائية من معمار هذه المساكن «القبايلية» الأشبه بالأهراء أكثر منها بالمنازل؛ وهي كلها مبنية بنفس التصميم، واطئة ومغطاة بقرميد أحمر، ومتراصة، ومشدودة إلى بعضها البعض. وهي ليست مضاءة بنوافذ وإنما بفتحات ضيقة محدثة في سمك الجدران مشابهة جداً لِكُوّات السجن.

يوجد وسط القرية منزل أكبر قليلاً ما من باقي المنازل؛ إنه مكان اجتماع أعضاء «الجماعة»، وهي نوع من التجمع الشرعي الذي يحكم الجمهورية الصغيرة، لأن القبايل مقسمة إلى جمهوريات صغيرة مستقلة، وهي، في الغالب، في حالة حرب ضد بغضها البعض. وتتكون الجماعة من رجال قادرين على حمل البندقية.

تالة تازا

بعد أن اجتزنا ثلاثة جبال وثلاثة أودية، وصلنا في السابعة مساء إلى تالة تازا[(١)]، وهي قرية تقع تقريباً بسفْح لالة خديجة، لقد قرّر **عليّ** أن نبِيت هناك.

---

(١) بطن من قبيلة بني إراثن وفلا تابعة لمقاطعة أربعاء نايت إراثن. **معجم قبائل ودواوير الجزائر**، م. م. [المترجم].

منظر مبيتنا

كان قائد القرية قد أُعلم بوصولنا عبر التلغراف القبايلي الذي لم يكن شيئاً سوى التلغراف الجوي أو بواسطة الإشارات الرومانية. وصلتنا برقية أرسلها القائد الذي جاء لملاقاتنا وترجمناها في مركز الحراسة هذا الذي نجده بمدخل كل التجمع القبايلي. اعتقدنا بداية أنهم حجزوا لنا مكاناً آخر للاستقبال؛ لكننا حينما رأينا الشيخ بنفسه قادماً، استنتجنا أن تلك هي مأوانا الليلة. مأوى كئيب حقيقة، مفتوح على كل الرياح، وهو ممر لطريق!

كان يبدو كوخ القش هذا بمثابة إسطبل مثقوب في كل طرف بباب غير مغلق.

استقبال قبايلي

وبما أن الطريق التي تعبُره كانت الشريان الوحيد للمنطقة، كان الناس والبهائم يمرون دائماً من وسط قاعة الاستقبال. لا يوجد بها أي نوع من الأثاث، وقد شغل بالنا، كثيراً، معرفة بأي كيفية يمكن أن تتم بها الضيافة وكيف سننام. لاحظنا جيداً، أنه كان مسنداً على الجدار، في كل جانب من جوانب الطريق، مقعد ضخم مشكّل من الأحجار المتكدّسة يشغل كل طول الغرفة: يبلغ علو هذا المقعد ثلاثة أقدام، كان مغطى بزربية قذرة، وكان يخفي خشونة الأدوات المكومة فوقه. لم نفكر أبداً في أن هذه الزربية ستكون في الآن ذاته مائدة استضافتنا وسريرنا المشترك. دعانا الشيخ إلى الصعود فوق المقعد.

إسوة بمضيفنا جلسنا على الطريقة المغربية، مربعي السيقان؛ وشكل رؤساء القبايل دائرة حولنا، كانوا كلهم جالسين على الكعاب. كان من

بينهم ابنا الشيخ: وجهاهما الأنثويان ذوا تميز نادر: وقد ارتدوا للمناسبة لباسهم الرسمي وهو عبارة عن جلباب حريري مخطط بلون أسمر، وبرانس بيضاء تحت سترات زرقاء مزينة بالفضة وسراويل قصيرة فضفاضة من ثوب أبيض، وأحزمة صوفية حمراء، وأحذية حمراء مزينة بفسيفساء فضية. بدوا أنهم كانوا مزهوين بما وجهناه لهم من إطراءات حول لباسهم الفاخر، وضبطوا ساعاتهم على ساعاتنا ليظهروا لنا أنهم يعرفون لباقة الحضارة.

وجبة كسكس

لكن ها هو ما حملته الضيافة التقليدية أو وجبة الضيوف. كانت تتكون من هَرَم من الكسكس متكدس فوق قصعة خشب ضخمة يبلغ قطرها ثلاثة أقدام: في قمة الهرم وُضع سكر أحمر، وفي أماكن مختلفة كانت تبدو قطع ممرّقة من لحم الخروف.

تم وضْع القصعة على الزربية، أمام الشيخ، وضيّق الضيوف الخمسة عشر أو الستة عشر الدائرة. كان يضيء جماعتنا الرائعة مصباح معلّق في السقف. قبْل الوجبة قاموا بتلاوة الفاتحة مثبتين أعينهم في أيديهم المفتوحة مثل كتاب. ثم وزّع الشيخ برزانة قطع اللحم التي كان يمسكها بأصابعه وكان يضعها على الزربية أمام كل ضيف لأن الصحون غير معروفة لدى القبايليين. أمسك حينها كل واحد ملعقة خشبية طويلة، ذات شكل غريب وهاجم بيد مستعيناً بالأداة قصعة الكسكس وهاجم باليد الأخرى، وبدون أي أداة، اللحم. بقدر ما كان يتناقص ارتفاع جبل الكسكس، كان الشيخ يصب فيه مرقاً منفراً، من حين لآخر، وكان كل واحد يستعمل ملعقته الخشبية بطريقة ما للقيام بعملية المزج بين المرق والكسكس.

حاكينا بدقة المجاورين لنا. لاحظ عليّ أن اللحم كان يقاوم هجوم فكي: أزال في الحال من جهته، بأصابعه، القطعة الأكثر طراوة، وقدمها لي بلطف بين الإبهام والسبابة: وحيث تُرى عليها آثار أسنانه فقد استغنيت عن اللياقة.

دخل رفيقي، الذي رأى المشهد بطرف عينه، في ضحك، بحيث لم أستطع مقاومته، وخِفْت للحظة أن هذا الضحك المعدي كان محتوماً علينا؛ لكن القبايليين لم يشكوا حتى في سبب مرحنا المفاجئ، واكتفوا بالنظر إلينا باستغراب. لم يتلفّظوا بأي كلمة أثناء الأكل سوى بعض كلمات الدعاء.

كنا نأكل بشهية طيبة بأسنان من (الثقة/ الإيمان)، مع أنه في الحل والترحال كان هذا الطبخ البدائي يدفعنا للهرب. لم يكن الكسكس بهذا السوء تماما: هذه الأكلة الوطنية للعرب والقبايليين، هي شبيهة جداً بالأرز المفلفل باللحم لدى الأتراك والفرس، يتم تحضيره من حبوب القمح المطهوة على البخار: إنه المرافق المعتاد للحم الدجاج ولحم الخروف. لقد التهم مضيفونا كميات كبيرة.

كان علينا أن نعلن أنا وصديقي، مبكراً، أننا انهزمنا، أمام الاندهاش الكبير للشيخ الذي واصل الهجوم بشجاعة مع الآخرين، مستعملاً من حين لآخر برنسه كمنشفة. بحثنا، عبثاً، بأعيننا عن قليل من الماء لإرواء العطش الذي سببه لنا الكسكس، لم يكن حينها مضيفونا منشغلين سوى بالأكل. ليس إلا ربع ساعة بعد انتهاء الوجبة، وقد أحضر قدحاً عريضاً من الماء الصافي فتناول منه كل واحد بشفتيه بالتناوب. يتحاشى العرب الشرب أثناء الأكل، وهي عادة صحية للغاية. لقد كان الماء، المقدم على قدر ما يراد، ممتازاً جداً.

حين زال طبق الكسكس، جلبوا لنا تيناً كان قد جُني للتو: كانت مأدبة لذيذة. ثم قُدّمت لنا القهوة المحضرة على الطريقة المغربية. بعد القهوة أهدينا سيجارة إلى الشيخ الذي قطع أخيراً الصمت. كان يعرف الفرنسية وقليلاً من الألمانية، بحكم أنه كان أسيراً في حرب بروسيا. كان يحب البروسيين كثيراً، ولم يسمح لهم أبداً بمنحه الخبز الأسود وبعض البطاطس وبجعله يرتجف شتاء كاملاً وسط جمد الندى لسنتين كانت تجعله يتحسر على السماء القبايلية الزرقاء الصافية. سألَنا لماذا تخلّينا مبكراً عن معركة الكسكس. «آه. أعرف جيداً، قال مبتسماً، أن خنزيراً سيفي بالغرض. كيف أمكنكم لمس هذا اللحم القذر! يا لها من خطيئة!» في الرد، عارضناه، بأن الله ارتكب، بخلق الخنزير، إثماً كبيراً بمنعنا من أكله. بدا أن محاورنا ذُهل تماماً من هذه الملاحظة وغيّر موضوع الحديث.

ليل داخل كوخ قش

في التاسعة ليلاً حمل إلينا الشيخ مِخدات جلدية لنضع عليها رؤوسنا، ودعانا للنوم على الزربية التي تعشينا فوقها للتو. تغطينا بأغطية سفرنا، لأن الليالي كانت باردة في الجبل، وكان مأوانا مفتوحاً على كل التيارات الهوائية. تمدد بجانبنا القبايليون. وكنا هناك أكثر من اثنتا عشر نائم شاخر الكل مغطى على فراش مشترك. أطفأ الشيخ المصباح وتمنى لنا ليلة سعيدة!

التصقت برفيقي، وبقيت لمدة طويلة مغلق العينين: إنه لمن المضحك النوم تحت سقف كوخ من القش جاثم فوق رأس جبل

جرجرة، وسط هؤلاء القبايليين الذين قتلوا العديد من الأوربيين حبّا في الاستقلال. ثم لم أعرف أي روائح كريهة، غاز البرنس أو رائحة رجيع البقر، انتابت حنجرتينا. وأخيراً لأنني كنت محطَّماً من التعب نمت تحت حراسة الله والضيافة.

الفصل التاسع:

على الجرجرة

الاستيقاظ

استيقظتُ في أول بارقات النهار. خرجتُ، لاحظتُ، بتفاجؤ كبير أنه كان يوم ضباب كثيف وأن الجو كان باردا بشكل فريد: بدا لي للتو أننا قضينا ليلة إفريقية بشمال الألب. كانت كل ديوك القرية تصيح بأصواتها الجميلة. على الرغم من البرودة والضباب كان بعض القبايليين ينامون في الطريق، عاريي الرؤوس: فلا عجب من كونهم كلهم مصابين بكل أمراض العيون! لاحظت أن ثلاثة حراس سهروا حول المنزل. هل كانوا هناك من أجل حمايتنا من اللصوص أم لمنعنا من القيام بغزوة بالقرية؟ هذا ما لم نتمكن من معرفته.

أيقظنا **عليّ** والبغالين، لأننا كنا نود بلوغ قمة لالة خديجة في وقت مبكر.

تأخر انطلاقنا كثيراً بسبب تدين ووضوء رجالنا. كانت الضيافة القبايلية مجّانية تماماً، ولم نستطع سوى تقديم تشكّراتنا للشيخ.

ضباب

استأنفنا الطريق في السادسة صباحاً. تابعنا ممراً مخططاً وسط كتل ضخمة للأحجار الكلسية ذكرتنا بفوضى جافارني[١]. كان الضباب شديداً، إلى درجة أن مؤخرة القافلة لم تكن تستطيع رؤية من كانوا يسيرون في مقدمتها. كانت ملابسنا المبللة تلتصق بأجسادنا. وكنا نرتجف كما في الضباب المتجمد في لابوني[٢]. كم تأسّفنا على حرارة وصفاء سماء اليوم السابق! الجبال الإفريقية متقلّبة مثل جبال أوربا. رمَتنا فكرة فشل تسلّقنا في إحباط عميق.

شِعب تهلارانا

قضَينا ساعتين ونصف من السير حين بلغنا شِعْب تالة رانا[٣]، المنفتح ما بين لالة خديجة وكتلة تيليللت. تساءلنا أنه في ضباب من هذا القبيل كان علينا الشروع في تسلق القمة، وإن لم يكن من الحكمة بلوغ المنحدر الجنوبي لجرجرة مباشرة وأن ننزل نحو واد ساحل. قررنا تناول وجبة الغذاء لحلّ هذا المشكل.

---

(١) هي قرية صغيرة جبلية بالبريني على الحدود الفرنسية الإسبانية. [المترجم].

(٢) منطقة تقع شمال السويد والنورفيج وفلندا تتميز بانخفاض درجة حرارتها خلال فصل الشتاء. [المترجم].

(٣) تاله رانا؛ ثالة بالأمازيغية بمعنى ينبوع، وثالة رانا مكان يوجد به ينبوع معرف بهذا الاسم يقع في الجهة الجنوبية لجبال جرجرة تابع إدارية لولاية البويرة حوالي ٥٥ كلم شرق البويرة. [المترجم].

وجبة في الجبل

فتحْنا الأخراج، وسحبنا منها الزاد: وكان يتكون من خبز أبيض ولحم بارد ونبيذ حملناه معنا من الحصن الوطني. وشرعنا في الأكل فوق نتوء صخري. أثارت البرودة شهيتنا بشكل غريب، واعتبرنا أن الأمر نفسه سيكون بالنسبة لعَرَبِنا، لكن المساكين كانوا في رمضان، ولم يكونوا يستطيعون أكل أي شيء حتى غروب الشمس.

رمضان

ظننّا بأنهم استغلوا الرخصة التي ينعم بها المسلمون أثناء السفر، وقدّمنا لهم نصيباً من زادنا. لكن بصرامة الحافظين لتعاليم دين **محمد**، لم يريدوا قبول أي شيء ولم يأكلوا ولم يشربوا طوال النهار. ارتعشنا من فكرة القيام بتسلق أعلى قمة لجرجرة صائمين.

انفراج

أثناء تناولنا لوجبتنا تمزّق حجاب الغيم جزئياً ومكننا من رؤية الكتلة الرائعة لتيليللت التي كانت تمنحها العقبات العمودية طابع حصن قوطي. أطلقنا صرخات فرح، أملاً في انفراج مقبل للجو. بُعَيد ذلك انتصبت قمة لالة خديجة فوق رؤوسنا: لقد كانت هرماً أصفر كبيراً. تتناثر عليه بُقع خضراء حسبناها خلنجاً والتي لم تكن لا أكثر ولا أقل من أشجار الأرز المعمرة جداً، مثلما استطعنا مشاهدتها في صعودنا الموالي.

خصام

انقسمت القافلة بالشِّعب، تابعت البغال والبغالون طريقهم نحو

تهلارانا، بينما شرعنا نحن في تسلق مخروط لالة خديجة سيراً على الأقدام. وعلى الرغم من أن مجموعتنا قُلّصت، فإنها كانت ما تزال كثيرة العدد. كان **عليّ** قد استدعى عشرة قبايليين كانوا يحملون غطاءنا وزادنا، وكان عليهم أن يقودونا إلى مكان آمن في حالة ما إذا هُوجِمنا بواحدة من تلك الزوابع المباغتة التي تطرأ بشكل كبير في هذه المرتفعات مُكسّرة الأشجار وموقعة الرجال والبغال. وبما أن واحداً من هؤلاء القبايلين رفض متابعتنا، طلب منّي **علي** كتابة اسمه بالفرنسية من أجل كتابة تقرير للمكتب العربي. احتدّ نقاش عنيف بين القبايلي والجندي، يتعلق الأمر بواحدة من تلك النقاشات الهوميرية الأثيرة لدى العرب: صمد القبايلي وأعلن أنه سيؤدي ضريبة بدل اللحاق بالنصارى.

راع قبايلي

كلّما صعدنا الجبل، كنا نلتقي بقطيع من الماعز والغنم يقوده راع يرتدي ثياباً ممزقة: كان يحمل العصا التقليدية. نقلني هذا المشهد إلى قلب الألب. ستة أسابيع قبْل ذلك كان لي لقاء مماثل على منحدرات جبل تنريفي: لا يوجد ما يميز الراعي التنريفي والراعي العربي والراعي الألبي عن بعضهم البعض: كلهم يعيشون حياة الرحل والبطريركية ونفس النمط الذي يوجد في كل بلد: لكن الراعي العربي يبدو أن له تأثير كبير على قطيعه: نراه يحمل الحملان بذراعه ويمارس حذره بألف طريقة، يعيّن كل خروف وكل عنزة باسم خاص، والقطعان تعرف صوته وتسرع فورا حينما يجعلها تسمعه.

تسلّق

توقّفت قافلتنا الصغيرة بسفُوح الجبال الشديدة الانحدار للالة

خديجة، كانت تسير بإقدام بحْثاً عن القمة. كان الصعود شاقاً، وكان الكل يلهث مثل أيائل يطاردها القناصون. آه! الجبال الجميلة التي كانت تبرز بمُجرّد ما سَمَوْنا! جدران عمودية، أهرامات وأبراج ذات علو هائل وقمم مقدودة على شكل منشار، وشائكة كسيوف مرفوعة نحو السماء، ومنحدرات في الهواء مُعلَّقة فوق هاويات مدوخة، ها هي الرؤى الشاردة التي تتركنا نلمحها المنفرجاتُ السريعة. لكن حجاب الغمام لم يكن يمزق للحظة إلا من أجل أن ينغلق بعد ذلك أكثر كثافة مما سبق.

منطقة الأرز

حينما بلغْنا منطقة الأرز، كنا شاهدين على عرض رائع: حوّمنا تارة فوق الضباب الذي كان يتمدّد تحت أقدامنا مثل بحر ذي بياض لبني، وتارة الضباب الصاعد من الأودية والمدفوع بالتيارات الضعيفة، كان يجتاحنا فجأة وكان يغطّينا إلى درجة أننا بالكاد ما كنا نستطيع رؤية مسافة عشر خطوات. في كل دقيقة كان هناك تغيير في الرؤية، وكانت درجة الحرارة تمر بشكل متواصل بتناوب؛ الحرارة والبرودة، نظراً لأننا كنا مرتمين في السحب أو كانت الشمس تشتعل فوق رؤوسنا.

أشجار الأرز التي اعتقدنا من الأسفل أنها خلنج، كانت تمنح طابعاً مهيباً: كان محيط جذوعها يقدر بخمسة أو ستة أمتار؛ وفروعها، التي كانت تتشعب إلى ما لا نهاية، كانت تغطي بظلالها الكثيفة فضاء شاسعاً. هذه الأشجار العملاقة للأطلس هي ربما معاصرة للمجانسة لها بلبنان[1]. لا يمكن أن ننكر تعرضنا لتأثير ديني أثناء رؤية هذه الأشجار

---

(١) ويوجد أيضاً بالمغرب. [المترجم].

العتيقة التي شهدت مرور عدة قرون وأجيال وقاومت عدة عواصف. أصبح الانطباع جد يقظ بالصمت والهدوء العميق اللذين يسودان في هذه الارتفاعات الكبرى(١).

حين تجاوزنا منطقة الأرز، اختفت كل النباتات، لم نر سوى حجرة رمادية وعارية ملطخة هنا وهناك بمزقة طحالب. أصبح الصعود تسلقاً حقيقياً. من قبْل نُقلنا عبر الضباب، نحن الآن نتصبّب عرقاً، ومرهقون بظمأ شديد. في كل لحظة كنا نفكر في رؤية انبثاق القمة فوق رؤوسنا، لكن كانت قمم جديدة تنتصب، بلا انقطاع، فوق بعضها البعض. خلال ساعتين ما انفككنا عن السير بمحاذاة الهاويات: في أدنى خطوة غير محسوبة سنتدحرج في الهاويات التي كان الضباب يحجب عنا عمقها. كان قبايليونا مملوئين عطفاً تُجاهنا: كانوا يعينوننا في الخطوات الخاطئة. نَمَنا كثيراً في هؤلاء القبايليين الشجعان.

قمة لالة خديجة

بلغنا قمة الجبل في منتصف النهار. كانت شمس حامية حتى الابيضاض، ترسل أشعتها فوق رؤوسنا، لكن كان بجانب أقدامنا ضباب غير قابل للاختراق، كان يحجب كل الطبيعة. آه! الوجود بقمة الأطلس، على أعلى قمة قبايلية، من أعلاها اكتشفنا في جو صاف مئات القمم المتوّجة بقرى قبايلية، وما وراء هذه القمم توجد سهول متيجة والبقعة البيضاء التي تحدد موقع مدينة الجزائر، على بُعد ٤٠ فرسخاً بطيران طائر، الاعتقاد بأن حفلاً عبر الخيال مثل هذا لا يمكن

(١) أرز الأطلس ينمو بالمناطق المرتفعة جداً. ومن النادر أن نجده في ارتفاع ألف متر.

الاستمتاع به بالأعين. أعترف أن سوء حظ كهذا كان يوقع فلسفتي كلها في الخطأ.

بحر من السحب

كنت أتأمل بعين منهكة ذلك البحر من الغيوم الذي يحجب عنّا ذلك المنظر البانورامي البهي فصببت اللعنات على عناصر الطبيعة. كان مرافقي أكثر قوة تُجاه اشتداد المحنة فاقتضى أن يعيدني إلى الخضوع.

القمة هي هضبة صغيرة غير مزروعة تماماً، جدّ ضيقة ويبلغ طولها ١٥ متراً فقط: وهي مشكّلة من صخور صفائحية تنضيداتها تقريباً أفقية. تشرف القمة في الشمال الغربي على هاوية مرعبة ذات جدران صخرية عارية: هذا المنحدر منيع. وتوجد على حافة الهاوية بناية صغيرة من حجر جاف، بلا سقف: إنه مزار يخلد ذكرى امرأة قديسة كان تعيش قديماً في قمة الجبل، إذا ما صدّقنا رواية قديمة. كانت تسمى لالة خرديجة، ومنها أخذ الجبل اسمه. والقمة تُعدّ بالنسبة للقبايليين مكاناً مقدساً: يحجون إليه في بعض الأيام من السنة، مثل حج الهنود إلى قمة جبل آدم[١] واليابانيون إلى قمة فوجي ياما[٢].

---

(١) جبل الرحون، أو جبل آدم هو جبل علوه ٢٢٤٣ متر وهو يقع في جزيرة سريلانكا، قرب مدينة راتنابورا. [المترجم]

(٢) **جبل فوجي** أعلى قمة في اليابان، يبلغ ارتفاعه ٧٧٦,٣ مترا. يعتبر جبل فوجي من أحد أبرز المعالم الجغرافية في اليابان حيث يبلغ ارتفاع جبل فوجي ٣٧٧٦ متر ويحيط به خمس بحيرات، ويقع بالقرب من شاطئ جزيرة هونشو على المحيط الهادي. [المترجم].

تحظى لالة خرديجة بتبجيل كبير، بسبب إبرائها المعجز لعدد لا يحصى من المرضى الذي قامت به في حياتها ببركة الله ونبيه. حين كانت تريد النزول من الجبل، كانت تكتفي بالجلوس فوق حجرة، وكانت تسير على هذه المطية عبْر الأماكن. أولئك الذين يشككون في صحة هذه الواقعة عليهم أن يركبوا الحجرة التي ما تزال موجودة بالمكان. لقد رأيت الحجرة، لكني أعترف بأنها لم تقنعني تماماً.

يُوجد وسط الهضبة الصغيرة هرم من الأحجار منتصب مشكّل من قِبَل الحُجّاج: كل فرد يحمل قطعة حجر خاصة به إلى هناك، وقد بلغ أمتاراً عديدة في الارتفاع. صعدنا حتى قمة الأثر ووضع كل واحد منا به قطعته الحجرية، وكتبنا عليه أسماءنا وتاريخ صعودنا.

معذبون بالعطش

تغذينا بعد ذلك على الصخور، في انتظار انفراج في الجو. أتانا قبايليونا بقصعة كسكس كبيرة بالدجاج والبيض المسلوق وجرّة من عسل: وجد جائعو ميدوزا فرخ الدجاج يابساً كالجلد؛لكن الكسكس الممزوج بالعسل كان وجبة مقبولة إذ لم نستطع إرواء عطشنا الحارق: وا أسفاه! كان هؤلاء المسلمون المتعصبون متضايقين من رمضانهم، فلم يحملوا معهم ولو قطرة ماء؛ شربنا بالشعب آخر قارورة نبيذ لنا، وبما أن منحدرات لالة خديجة كانت جافة تماماً في هذا الفصل أجبرتنا الضرورة القاهرة على أن نرتوي ببيضنا المسلوق. من لم يتسلق جبلاً إفريقياً خلال الصيف لا يستطيع تكوين فكرة عن محنة العطش. من أجل

كأس ماء كان علينا أن نضحي بكل القبيلة. لم نجد أي منبع ماء قبْل الوصول إلى تهلارانا، وهو مكان يوجد على بُعْد ساعتين من السير.

انتظرنا بلا جدوى مدة ساعة أن تبدّد الشمس المتأججة الضباب، وبما أننا لا يمكن البقاء دائماً بقمّة الأطلس، استأنفنا السير.

السفح الجنوبي لجرجرة

تسلّقنا عبْر المنحدر الشمالي ونزلنا عبْر المنحدر الجنوبي، بهدف الوصول إلى هذا الجزء من القبايل الممتد وراء جرجرة.

تُقَسّم هذه السلسلة، المتجهة من الشرق إلى الغرب، القبايل إلى جزأين متمايزين للغاية: وترسل مياهها نحو الجنوب في الوادي الشاسع واد الساحل، الذي هو بالنسبة للقبايل الجنوبية مثل واد سيبوس بالنسبة للقبايل العليا.

القبايل الجنوبية

المنحدر الجنوبي للالة خديجة شديد الانحدار مقارنة مع المنحدر الشمالي: إذا ما حاذينا الجبل من هذه الجهة، فالتسلق كان صعباً للغاية. نزلنا عموديا، من قمة الجبل إلى قرية تهلارانا. إنه من المثير جداً أن أغلب السلاسل الجبلية التي لها نفس الاتجاه تمنح نفس التنظيم: جبال الألب وجبال البريني هي عموماً عمودية من جهة إيطاليا وإسبانيا.

كنا ننحدر منذ ساعة عبر لفائف الديس عندما تمزقت فجأة غلالة السحب في الجنوب جهة سهل بني منصور. كان مثل رفع رائع لستار: كانت إفريقيا الجنوبية؛ إفريقيا المحرقة والمشمسة، كانت أمامنا؛ كانت تمتد أمام أعيننا كل القبايل الجنوبية بواديها الكبير واد الساحل، يلتئم به

عدد غير محدود من الأودية العرضية التي تشرف عليها جبال ثانوية كانت تبدو لنا منخفضة، وقيل إن المنطقة كانت مستوية تماماً. كانت شمس لامعة تغمر هذا الامتداد الشاسع للبلد، بينما كانت تختفي فوق رؤوسنا لالة خرديجة في الضباب.

بعد أن عبرْنا غابة أرز أجمل أيضاً من التي رأيناها على المنحدر الشمالي، وصلنا في الثالثة بعد الزوال إلى قرية تهلارانا القبايلية، حيث أروينا عطشنا بالسقاية: لم تبْد لنا شامبانيا كليكو ألذ من جرعة الماء التي شربناها بباطن الأيدي.

تالة رانا

تالة رانا هي مصحة حيث يُنقل في الصيف المكتب العربي وحامية بني منصور، هرباً من الحمى التي تسود في وادي الساحل. استرحنا ساعة بشرفة المكتب العربي. من أعلاها عانقنا واحداً من أجمل المناظر بالجزائر. يمتد وادي الساحل العريض تحت أقدام المُشاهد، بنهره اللامع، وحقوله وقُراه وغاباته وسمائه الزرقاء الرائعة؛ بدت مدينة بني منصور الصغيرة مثل بُقعة بيضاء على بُعد ٢٠ كلم.

وجدنا بغالنا بتالة رانا. نزلنا، خلال ثلاث ساعات، بسرعة فائقة بالوادي، الذي كانت تربته جافة ومتصلبة ومشقوقة بالشمس الإفريقية كانت تذكرنا جيداً بطابع سهولنا خلال الصقيع القوي للشتاء.

غروب الشمس

اجتزْنا النهر على متْن بغالنا، لحظة غروب شمس رائع. كانت الجرجرة، التي أبعدت الآن الضباب تماماً، تنبثق وراءنا بكل جلالها:

كان ظل المساء قد اجتاح الوادي، الذي كانت ما تزال الجبال تعكس فيه نيران الشمس: المتحولة من الوردي إلى البنفسجي.

تلقّت أعلى قمة لالة خديجة آخر ضوء النهار: داعبت الشمس الغاربة، لمدة طويلة، قمته الشامخة قبْل أن تمنحه قُبلة الوداع. لم أستطع منْع نفسي من التأمل بشعوري السوداوي في غضب هذه القمة التي تسبح الآن في جو صاف، ومن أعلاها لم نر سوى ضباب مخيف.

تاوريرت

وصلنا إلى تاوريرت(١) في الساعة السابعة مساء، منهكين بالتعب، لكنّنا كنا مزودين بشهية أثارتها أربعة وعشرون ساعة من الكسكس. بحثنا عن مأوى في واحد من منازل الخشب هذه التي نجدها في البلدان الجديدة: وهو منزل مبني بجذوع الأشجار، بلا طابق، بغُرف بلا سقف، وتسقيفة كان ينفذ عبرها الهواء والضوء. كان المضيف، من اللورين، في حالة يرثى لها: الإسهال والحمّى حوّلاه إلى هيأة هيكل عظمي؛ بالرغم من أن الحرارة كانت حادّة فإنه كان يرتعد وتصطك أسنانه. حين كان ينظر إلينا بعينيه الكابيتين، كان كأنه الحمى بعينها. وحيث إنه لم يكن هناك طبيب على بُعد ١٥ فرسخ من كل الجهات، فقد كان على ذلك التعس معالجة نفسه بنفسه. وإنه لمن المحتمل جداً أنني كنت قد أُصبت بالحمى في هذه المنطقة غير الصحية لواد الساحل التي أحسست بأعراضها الأولى في بسكرة.

---

(١) تاوريرت بطن من قبيلة بني أجر جبالة على مسافة ٢٤ جنوب شرق أربعاء نايت إراثن على الضفة اليمنى لواد ساحل، المتفرع من واد سيبوس. **معجم قبائل ودواوير الجزائر**، م. م. [المترجم].

حفل ديني

حضرنا بتاوريرت صلاة عيد الفطر التي تمّت بالهواء الطلق، بمناسبة نهاية رمضان. بما أن المنطقة ليس لها مسجد[1]، كان الأهالي مجتمعين فوق أكمة كانت تنبثق وسط مجرى النهر الجاف تقريباً، هناك وراء الإمام الولي، كانوا يتضرعون إلى السماء. رأيناهم من بعيد ورأيناهم يسجدون عدة مرات وجباههم على الأرض في اتجاه الشرق. كانوا يطلعون بهذه الممارسات في جمع غفير، وكانوا يخضعون في كل مرة لإشارة الإمام. بعد الصلوات والسجود ألقى الإمام على مسامعهم خطبة قصيرة؛ وهنأهم بصيامهم رمضان وتوعّد بعذاب أبدي من لم يصوموه كما يجب. ثم عادوا على شكل موكب إلى قرية تاوريرت يتقدمهم الإمام.

واد الساحل

توجد تاوريرت في طريق الجزائر إلى قسنطينة وتعبُرها العربات يومياً، ليلاً ونهاراً، في انتظار أن يربط خط سككي بين المدينتين[2]. ركِبنا عربة المرور، ودخلنا إلى بلد مُقفر وغير آهل بالسكان مشكلاً تضاداً مثيراً مع الأودية الآهلة بالسكان بمنطقة القبايل. كانت الجبال، ذات السحنات الصفراء، جرداء تماماً. من شأن هذه المنطقة أن تكون صالحة لغرس أشجار الصنوبر والزيتون[3]. كانت مواقف تبديل الخيول

(١) قد يكون هذا التفسير خاطئاً لأن صلاة العيد تؤدى خارج المساجد. [المترجم].

(٢) ينتهي الخط السككي بين قسنطينة وسطيف عند مسار ١٥٥.

(٣) يبلغ سعر شجرة الزيتون خلال عشر سنوات عشر فرنكات وحين تصل إلى منتهى نموها يبلغ سعرها ٢٠ فرنكاً.

متباعدة بمسافات كبيرة جداً وكانت الخيول المسكينة تقطع مرحلة تصل إلى ٥٠ كلم. كنا لا نلتقي بكائن حي إلا على فترات، تارة عربي يمتطي بغلته وتارة قبايلية تبدو أنها ممنوع عليها رؤيتنا نمر.

يتميز غروب الشمس بهذه المنطقة بجمال عجيب: الشفافية المعجزة للهواء تولّد هناك آثاراً جوية غير معروفة تماماً بمناطقنا الباردة بالشمال. منحت الجبال البعيدة لجرجرة لانقضاء النهار، لوناً ساحراً لن تستطيع أي لوحة إنتاجه: الظلال المتنوعة جداً والكثيرة جداً، وتندمج في تدرجات ذات عرض لطيف: ثم تتوالى، في سِحر الألوان هذا، هذه الليالي الإفريقية الرائعة المميزة بسكينة لا حدّ لها: ملايين النجوم رصعت السماء ذات الشذرات اللامعة. إذا كان هناك رجال غير مبالين ولا يستطيعون تهييج جمال الطبيعة، فإنهم أتوا هنا لإنعاش الشعور المنطفئ للحماس.

سطيف

بعْد ست عشرة ساعة من السفر، وضعتنا عربة السفر في الرابعة صباحاً بمدينة سطيف، في برد قارص: فسطيف تقع على ارتفاع يقارب ١١٠٠م فوق سطح البحر. ويلتئم بسطيف[1] كل أحد السوق الشهير الذي يتردد عليه عشرة آلاف عربي. اكتفينا فقط بعبور المدينة بُغية الذهاب إلى محطة القطار. انطلق القطار في الخامسة صباحاً، وعلى متْنه أربعة أو خمسة مسافرين. كانت محطات التوقف بعيدة ومتكررة وكان القطار يجري مثل البطء الحذر للقطارات الإسبانية. البلد الذي كنا نعبره

---

(١) كان يبلغ عدد ساكنة سطيف ونواحيها أكثر من ٩ آلاف نسمة من بينها ألفي فرنسي. إنها بكاملها مدينة حديثة بنيت على موقع مدينة سطيفيس الرومانية القديمة. [المترجم].

ذو كآبة عظيمة: به سهول شاسعة تحفّها تلال صفراء، نوع من الفلاة حيث يطوف رحَّل عرب كانت تنبثق خيامهم في الأفق من حين لآخر، لا شجرة ولا باقة خضرة: إنها صورة الصحراء.

وفي منتصف النهار وصلنا إلى قسنطينة.

الفصل العاشر:

بسكــرة

قسنطينة

مدينة قسنطينة العربية هي ما تتوفر عليه الجزائر من أصالة بعْد تلمسان. فعوض أن تنتهي منازلها بأسطح كما في باقي المدن العربية فهي مغطاة بالقرميد الذي يذكّرنا كثيراً بالقرى الإسبانية. برؤيتها من بعيد لا تتميز قسنطينة بذلك البياض البرّاق الذي هو عموماً الطابع المميز للمدن الشرقية.

كانت جولة في أحيائها مليئة بالمفاجآت. فهي ليست سوى دروب ملتوية ومتشابكة بشكل غريب، وممرات مقببة، صعودها شاق وهبوطها سريع؛ لمنازلها الموريسكية، ذات الأبواب المكسوة بعلامات سرية، طبقات ناتئة تتلاقى فوق رؤوس المارة، بحيث أننا لا نرى أبداً زُرقة السماء.

كانت قسنطينة تعرِفُ حيوية غير مألوفة. كان العرب يحتفون بنهاية رمضان عبْر لعب البارود وأشكال أخرى من الاحتفال. تحلّى الكل بأجمل ملابس العيد. كانوا يلبسون بِذْلات براقة: معاطف حريرية حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء وطرابيش مطرّزة برسوم ذهبية وسراويل قصيرة

مزخرفة بتطريزات: كانت الأعين مبهورة تماماً. وكانت المقاهي المغربية تعجّ بالناس، وكان الأطفال ينخرطون بالشوارع في كل أصناف اللعب، وكان الفرسان يمتطون خيولهم الأكثر رشاقة والمُسرجة بشكل جيد على الطريقة المغربية، وكان الزنوج منخرطين في موسيقاهم الصاخبة، وكانوا يرقصون الدردبة مرتدين جلود الضبع، وكانت وجوههم مغطاة بقناع غريب ورؤوسهم معتمرة بقبعات مضحكة مزينة بمحارات وبمرايا ويعلوها ريش النسر، كان البعض يهتز بسوْرة هائجة بالقراقب الحديدية، وكان البعض الآخر يقرعون بعصي مقوسة طبولا من فخار، وطبولا إفريقية وآلات أخرى غريبة، كانوا يصاحبون موسيقاهم الغريبة بغناء متوحش، كانوا يبدون كأنهم نُقِلوا من وسط إفريقيا. حينما قدّمنا لهم قطعة نقدية كبيرة، عِوض مدّ اليد، أمسكوها بأسنانهم التي كان بياضها يلمع في ليل وجوههم.

لا توجد قسنطينة سوى على بُعد يومين من السفر إلى الصحراء، واليومُ، الذي ستكون بضع ساعات من سير القطار كافية لاجتياز ٢٣٣ كلم التي تفصل هذه المدينة عن بسكرة، ليس ببعيد.

الانطلاق نحو بسكرة

بعد أربع وعشرين ساعة من الراحة، امتطينا عربة متجهة إلى باتنة[١]، وهي واحدة من هذه العربات الأثرية ذات ثلاث قُمرات،

(١) تأسست مدينة باتنة عن طريق المرسوم المؤرخ في ١٢ سبتمبر ١٨٤٨ الصادر عن نابليون، وذلك بعد أن قررت اللجنة الاستشارية الكائن مقرها بقسنطينة جعل باتنة مدينة مستقبلية نظرا لموقعها الاستراتيجي على محاور بسكرة، تبسة، سطيف وقسنطينة. تقع على بعد ٤٢٥ كم جنوب شرق الجزائر العاصمة وترتفع عن سطح البحر بـ١٢٠٠م. [المترجم].

المنزوعة بأوربا، التي بحثت عن آخر ملجأ على الطريق المؤدية إلى الصحراء الإفريقية الغامضة. كانت الساعة السابعة مساء حين غادرت قسنطينة. كانت تجر العربة ستة خيول مهرولة: لا يتم السفر بالجزائر خلال الصيف إلا ليلاً؛ تجنّبا للحرارة والغبار والذباب. من بعدَما حلمنا فترة ما من خلال دخان التبغ الجزائري لبد كل منا في زاوية من العربة المقفلة وحاولنا أن ننام.

قطيع جمال

في اليوم التالي، مع حلول النهار، أول شيء أثار انتباهنا كان قطيع كبير من الجمال يمتد على مدى البصر: يمكن أن يكون أكثر من ألفي جمل. حسِبناها من بعيد في البداية غابة، لكننا رأينا، عن قُرب، أنها كانت تتقدم ببطء وهي تلتهم نبتة صغيرة ونادرة وهزيلة، كانت تنمو على شكل لفائف على التربة القاحلة: كان كل القطيع يرعى سيراً في نفس الاتجاه، مثلما يفعل تماماً قطيع الأغنام. كان يقوده بدويون كنا نرى خيامهم الواطئة المنتصبة على جانب الطريق. كانت جبال الأوراس[1] الشاهقة، المخبأة في العراء، تمنح خلفية هذه اللوحة لونا إفريقيا حقيقياً. لم يكن للسماء وحدها، المظلمة والغائمة، ما تردّ به عن الفكرة التي كانت لدينا عن سماء إفريقية: برؤيتها اعتقدنا أننا بهولندا:

---

(١) جبال الأوراس هي جبال عالية القمم تقع شمال كل من ولايات: باتنة، خنشلة، أم البواقي وتبسة شمال شرق الجزائر وأعلى قمة بها هي جبل شيليا التي تقع في يابوس بولاية خنشلة بارتفاع يقدر بـ ٢٣٢٨. تليها قمة جبل محمل بثنية العابد بولاية باتنة التي يصل علوها إلى ٢٣٢١م. وجبل عالي الناس جنوب ولاية خنشلة. كما تصنف جبال الأوراس من بين أكبر سلاسل الجبال في شمال أفريقيا. [المترجم].

«أين، إذن، صرخ صديقي نافد الصبر، ينبغي علينا الذهاب للبحث عن الأزرق؟».

باتنة

كانت الساعة حوالي الثامنة صباحاً حين وصلنا إلى باتنة، والتي يعني اسمها العربي إقامة مؤقتة حين دخلنا إليها عبر باب قسنطينة كانت تخرج منها قافلة للبدو كانت تضايق الطريق.

مشهد مثير للاشمئزاز

حين دعا سائقنا الجنود ليشقّوا لنا طريقاً، وأن يضربوا الجمال بالعصي لإجبارها على أن تفسح لنا الطريق؛ لكن السائق لم يأمرهم بضرب البهائم وإنما بضرب العرب: حينها نزلت ضربات العصا، على الرغم من احتجاجاتنا القوية، على أكتاف العرب المساكين الذين لم يتجرؤوا ولو على الاشتكاء. أغاظني كثيراً هذا المشهد فلم أستطع منع نفسي من توبيخ ذلك السائق العنيف الذي كان يستحق هو نفسه أن يُضرب بالعصا. تلك هي الطريقة التي يُعامل بها في الجزائر السكان المقهورون. فكيف نستغرب كراهيتم للمحتلين. لا يعامل الأمريكيون الهنود الحمر خلاف ذلك: ونحن نستنكره.

تعفّن باتنة

باتنة هي قرية أسست سنة ١٨٤٤ م إبّان الحملة على بسكرة. تم بناؤها على طراز المدن الأمريكية، بشوارع واسعة وسور مربع تماماً. تقع على أزيد من ألف متر فوق سطح البحر، وهي مبتلاة بمناخ قاس: ذات برد شديد شتاء وحرارة مفرطة صيفاً. في كل سنة يودي فيها التعرض للشمس

والتجمد بحياة العديد من الناس. مررنا بباتنة في شهر شتنبر والذي هو، بشكل خاص، فصل الحمى: والتي تنتج عن برودة الليالي المتبوعة بالنهارات الحارقة؛ كل الناس كانوا مصابين إلى حدّ ما. حمّى باتنة هي واحدة من أنواع الحمى الخطيرة جداً بإفريقيا: تظهر بوادرها بآلام في الرأس وقيء وغثيان: تخرج الأعين من محاجرها. إن لم يتم التمكن من إيقاف المرض في بدايته، يلفظ المصاب غالباً أنفاسه في ساعتين.

لامبيز

على بُعد ١٢ كلم جنوب باتنة، بسفح الأوراس، زُرنا بقايا المدينة الرومانية لامبيز[١]. ذهبنا إليها على متْن عربة عتيقة رديئة، في صبيحة رائعة. كان الجو رطباً ومنعشاً، ولم نشك أبداً أننا كنا في واحدة من المناطق الأكثر ضرراً بالصحة في إفريقيا. كان يجلس بيننا طفل مسكين يبلغ عشر سنوات، مصاب بالحمى: أضر المرض بعينيه بشكل رهيب. عبرنا بهرولة الخيول سهلاً كبيراً تحدّه جبال الأوراس الشاهقة، الكتلة الأكثر ارتفاعاً بالجزائر. كان هناك جبل يثير الانتباه بسبب ارتفاعه، وانعزاله الرائع وظله المهيب: إنه تقرت[٢] الذي ذكرني مظهره بالجبل الشهير بتنريفي[٣]. كانت منحدراته مكسوة بغابات الأرز العتيقة.

---

(١) هي مدينة عسكرية رومانية تقع في الشمال الشرقي للجزائر، وتبعد ١٠ كم عن مدينة باتنة، على الطريق الوطني رقم ٣١ بين باتنة وخنشلة. وتعتبر تازولت من أهم المدن الأثرية في الجزائر من ناحية مخزونها التراثي، التي يوجد بها متحف للآثار ومحكمة رومانية وكذلك توجد كنيسة وسجن. [المترجم].

(٢) تقرت مدينة وبلدية تابعة إقليميا إلى دائرة تقرت ولاية ورقلة الجزائرية. تقع البهجة **تقرت** في الجنوب الشرقي شمال ولاية ورقلة. [المترجم].

(٣) تيد مونت هو أعلى قمة في جزيرة تنريفي بجزر الكناري، يصل ارتفاعه إلى ٣٧١٨ متر فوق مستوى سطح البحر، و٧٠٠٠ متر فوق قاع المحيط. [المترجم].

وقعت لنا حادثتان في طريق لامبيز هذه: لقد رأينا واحدة من تلك الزوابع المترددة كثيراً بالصحراء، والتي تثير على ارتفاع كبير عمودا من الرمل يدور حول نفسه بشكل لولبي.

تمرد الأوراس

لحظات بعد ذلك تجاوزَنا عربٌ مشكلين لحرس القايد: كانوا يلبسون برانس من صوف أبيض، وكانوا يعتمرون بعمائم من خيط وبر الجمال كانوا يهرولون والبنادق على الأفخاذ: كانت الخيول والفرسان متغطرسة صراحة. كان هؤلاء الجنود ذاهبين إلى الأوراس من أجل تأديب القبائل التي تمردت مؤخراً؛ كان بعض المتمردين يريد الوصول إلى تونس عبْر الصحراء، حيث قضوا حتْفهم من شدة العطش.

الأطلال الرومانية

وصلنا في الحادية عشرة إلى لامبيز: تلَت رطوبة الصباح فجأة حرارة جعلت المخ يغلي: ففي هذه الحرارة الجهنمية استكشفنا الأطلال الرومانية. بدت لنا في البداية الحمامات التي لا يمكن تجنبها: بالرغم من أنه لم يتبق من البناية سوى الأسس، تعرَّفنا على تنظيمها الذي مازلنا نجده اليوم في الحمامات المغربية. جمعنا عينات جميلة من الفسيفساء وبقايا الفخار. وجمع رفيقي، الذي كان مهتماً بعلم الحشرات، من وسط هذه البقايا الحشرة المثيرة المعروفة باسم حصان إبليس. على مسافة من الحمامات ارتفعت الأطلال المهيبة للمحكمة، وهي واحدة من هذه البنايات المتينة ذات الجدران العملاقة التي تقدم فكرة سامية

جداً عن قوة الشعب الملك. إنه المعلمة الأثرية المحفوظة بشكل جيد في لامبيز: الجدران عالية ب١٥م، كلها ظلت قائمة: السقف وحده الذي انهار، الواجهات تطابق الجهات الأصلية. لقد جعلوا من هذا الصرح متحفاً للأشياء القديمة، حيث تمّ جمْع تماثيل وفسيفساء ونقوش وفخار عثر عليها أثناء التنقيب. تنطلق من الباب الرئيس للمحكمة طريق رومانية ما تزال كلها مبلطة والتي قادتْنا عبر سهل مُغطّى بالبقايا. يوجد على طول الطريق عدد كبير من المعالم الأثرية القريبة عليها كتابات ما تزال مقروءة. مررنا من تحت واحد من أقواس نصرها الأربعين الذي كنا نستطيع رؤيته في القرن الماضي، والتي لم تتبق منها سوى أربعة ظلت قائمة؛ زرنا معبد اسقولابيوس(١) المشيد تحت حكم مارك أوريل(٢)، جرن الخيرات المستخرج حديثاً من الأرض بفضل تنقيب **السيد بارنيون**(٣)، وقبر الجنرال الروماني **فلافيوس ماكسيموس**(٤) الذي أعيد بناؤه من قِبَل العقيد **كاربوشيا**(٥)، والسيرك الذي لم يتبق منه سوى موضعه. كان لذلك السيرك أربعة عشر باباً و٤٠٠٠م من الدياميتر. من أعلى مدرجاته تأملنا القرية المجاورة الموحشة والمتخلى عنها: هناك حيث كانت توجد فيما مضى مدينة رومانية فخمة كانت تغطي مساحة ٦٠٠

---

(١) هو معبد روماني مهدى إلى إله الشفاء. [المترجم].

(٢) الإمبراطور الروماني **مارك أوريل** (١٦٨ -١٦٩). [المترجم].

(٣) هو المدير السابق لسجن لامبيز. [المترجم].

(٤) **كوينتس فابيوس ماكسيموس** (٢٨٠ ق.م ـ ٢٠٣ ق.م)، قائد وسياسي روماني. اشتهر بلقب Cunctator والذي يعني باللاتينية «المُؤجّل»، إشارة إلى تكتيكاته العسكرية خلال الحرب البونيقية الثانية. [المترجم].

(٥) جان لوك كاربوشيا (Jean-Luc Carbuccia) (١٨٠٨-١٨٥٤) كان قائدا فرنسيا على مركز باتنة. وهو قائد عسكري أركيلوجي فرنسي. [المترجم].

هكتار، رأينا مخيّماً للبدو، ولم نستطع الامتناع عن التفكير في أن عواصمنا الكبيرة الحديثة سيكون لها ربّما في يوم من الأيام مصير مماثل.

على متن عربة

قادتْنا ١٥ ساعة من السير على متْن العربة من باتنة إلى بسكرة. يا لها من عربة! إنها نوع من العربات الصغيرة، تحمل على أربعة عصي طويلة ثوباً والذي لا يحمي لا من المطر ولا من البرد. والحالة هذه، فقد قلت كم هي باردة ليالي شتنبر في الجزائر. توجد بها ثلاثة مقاعد للمسافرين، لكنهم هيؤوها بطريقة تجعلها تسَع أربعة: تم إجلاسي كما يمكن على المقعد الأمامي بين امرأة غليظة والسائق. يا له من سرير **بروكست**(١). كان السقف جد منحدر، بحيث لم نكن نستطيع إبقاء قبعاتنا الهندية على رؤوسنا. كان من بين الأمتعة، صندوق مليء ببارود القنص، كان معلّقاً فوق رؤوسنا مثل سيف **داموقليس**(٢).

---

(١) تحكي الأسطورة اليونانية أن هناك شخصا خارجا عن القانون اسمه (بروكست) سكن مدينة كوريدال اليونانية قبل ثلاثة آلاف عام، وعمد ذلك الرجل إلى صنع سرير خاص بحسب مقاس جسمه. حيث بدأ يخطف المارة ويرغمهم على الاستلقاء على سريره الذي صنعه، فمن كانت قامته أقصر من السرير كان (بروكست) يمطه حتى تطول قامته، أي حتى يفارق الحياة، ومن كانت قامته أطول من مقاس السرير كان (بروكست) يقطع رأسه وأطرافه ويتركه جانب الطريق وقد فارق الحياة. [المترجم].

(٢) يروى أن الملك ديونيسيوس الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد فى صقلية أراد أن يلقن أحد أعضاء بلاطه الملكى «ديموقليس»، والذى كان أيضاً خطيبا مفوها، درسا. وسبب هذه الرغبة علمه أنه أراد أن يصبح ملكا ولو ليوم واحد فقط، والعجيب فى الأمر أن الملك قد وافق ولكن بشرط واحد وهو أن يضع فوق رأس ديموقليس سيفا معلقا بشعرة حصان واحدة. وهكذا عاش ديموقليس يومه الملكى وهو فى رعب شديد خوفا من أن تنقطع الشعرة ويسقط عليه السيف فيصبح جثة هامدة على الفور. [المترجم].

عين توتة

انطلقنا من باتنة في الخامسة مساء، منقولين على الهرولة الثلاثية عبر غيمة من الغبار حرستنا حتى بسكرة. كانت تتكوّم فوق رؤوسنا سحب كثيفة عاصفة كانت تبدو أنها تنذر بانقلاب كلي للجو. كانت رياح عنيفة، حادة ومجففة، تكنس السهل الشاسع: ذكّرتني هذه الرياح بتلك التي تهب كل مساء بالهضاب العليا لكاستيل[1]. توقفنا في التاسعة في عين توتة[2]، بضيعة محصنة، حيث تناولنا حساء وقهوة بثلاثة فرنكات لكل رأس. كان ينبغي دفع المسافرين ليساهموا في تكلفة الصيدلي: كان أطفال المكان الستة مصابين بالحمى. كل ضيعات هذا البلد محصنة ضد هجمات البدو.

أخاديد وواحات القنطرة

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل حين دخلنا إلى الشعاب الشهيرة للقنطرة[3]، التي يسميها العرب بشكل جيد «فم الصحراء». تحت ضوء القمر الشاحب تمكّنا من تبيّن الهوة المظلمة التي في قعرها

---

(١) توجد وسط إسبانيا وتحديدا بقشتالة. [المترجم].

(٢) عين التوتة إحدى أهم المدن في الشرق الجزائري، اشتق اسمها من شجرة التوت ومن منبع كان موجوداً فيها، قبله كانت بلدية مختلطة تابعة لدائرة باتنة كان اسمها في عهد الاستعمار الفرنسي «ماك ماهون» Mac Mahon- ١٨٨١- نسبة إلى **الكونت ماك ماهون ماريبارن موريس ماريشال** بعد أن كانت تسمى سابقاً Horbourg هوربورغ ـ (١٨٧٢)، لتأخذ اسمها الحالي سنة ١٩٧١. [المترجم].

(٣) القنطرة بلدية وواحة تقع في شمال ولاية بسكرة والتي تبعد عنها بـ ٥٤ كم. وهي مدينة صغيرة هادئة قليلة السكان. وهي همزة وصل بين الشمال وجنوب وسط الشرق الجزائري وهي تجمع بين طبيعتي الصحراء والتل في مناخها وطابعها الجغرافي. [المترجم].

يتعرّج هادراً المسيل المزبد لواد القنطرة، بين الكتل الشاهقة لجبل تيلاطو[1] وجبل جياوس. هذه الشعاب هي أعمدة حرارة الصحراء. يجتاز جسر القنطرة، ذي البناء الروماني، الهاوية، وتبلغ فرجة قوسه الوحيد عشرة أمتار، ويبدو أنه متين لأنه دام ثمانية عشر قرنا؛ لكن الطريق الجديدة تركتْه على اليمين.

من كان يتوقع أن يصادف في قلب هذا الطريق الذي في عبوره سوء، واحة مزروعة بعشرين ألف نخلة! لن أنسى أبداً الانطباع الذي عشته حينها، بخروجنا من الجبال ذات المنظر المخيف، رأيت الموكب يتّسع فجأة ويتحول، بواسطة تباين لا يوصف، إلى واد ماتع، الأكثر روعة والأكثر رومانسية، والذي لم يشكله أبداً الإله الخالق. كانت أوراق النخيل تشع تحت ضوء القمر، بانعكاسات فضية. لا أعرف هل هي جِدّة المشهد أم غموض العتمة أثار حماستي، لكنني أحتفظ دائماً بذكرى تلك الواحة العجيبة للقنطرة المقابلة لضوء القمر. ربّما إذا ما رأيت الموقع نفسَه مرّة أخرى تحت ضوء الشمس، سيسحرني قليلاً: في العودة رأيته في نفس الساعة، وفي هذه المرة بدا لي أيضاً أنه ذو جمال غير قابل للتفسير.

والرأس طافحة بهذه الصور الرائعة، انتهينا إلى الاستسلام لنوم لا يقاوم.

الدخول إلى الصحراء

استيقظنا فجراً في الصحراء. كان الانطباع عميقاً وأخّاذاً، وهو من

---

(١) جماعة تابعة لولاية باتنة تقع على بعد ٤٥ جنوب غرب باتنة. [المترجم].

النوع الذي يُنقَش في الذاكرة بشكل أبدي. كيف سنتصور بأي انفعال، بعد نوم دام لساعات، رأينا، بمُجرّد فتح الأعين، الصحراء الغامضة تمتدّ أمامنا، على مدّ البصر، والسهل الرملي اللامحدود الذي كانت تسير فيه عربتنا بلا طريق محدّدة مثل سفينة في محيط غير محدود! حينما بزغت الشمس من وراء الجبال الجرداء للأوراس، الشمس القاسية، التي تحمل، كلّ يوم في هذا الامتداد العقيم، الجفاف والموت، حينها وجدنا أنفسنا مثل مشلولين أمام ضخامة المشهد: أحسست تحت قبضة اللانهائي هذه بروحي كلها تسمو طواعية نحو الله.

تُوقظ رؤية المحيط قليلاً هذا الإحساس باللانهائي مقارنة مع التأمل بالصحراء، ربّما، مثلما سجّله السيد **غوبلي دالفيا**[1]، لأنه بسبب غياب حدود مرئية ينضمّ هنا الغياب المطلق للضجيج والحركة.

بحثنا، بلا جدوى، عن شيء يمكن أن يريح النظرة: لا وجود لشجرة، بل ولا غريسة عشب، ولا أدني خيط ماء: الرمل سيد المكان. كانت فقط بعض الهياكل العظمية للجمال تغطي هنا وهناك هذا العراء المرعب، وكنّا نعلن أننا كنّا في واحدة من أجزاء الصحراء التي يتردد عليها الناس كثيراً. قابلنا، فعلاً، العديد من قوافل البدو، الذين كانوا يسوقون جِمال القوافل نحو الشمال.

وأخيراً رأينا بُقعة كبيرة من الخضرة تلوّح في الأفق، حدّدت لنا مكان واحة بسكرة. بُعَيد ذلك انبثقت من وسط النخيل مآذن عاصمة

---

(١) هو ألبير جوزيف غوبلي دالفيا **(Albert Joseph Goblet d'Alviella)** (١٧٩٠-١٨٧٣) جنرال ورجل دولة بلجيكي. [المترجم].

الزيبان[1] القديمة. بمجرد ما اقتربنا أصبحت السماء، التي كانت منذ مدة مهددة كلها سوداء.

فندق الصحراء

نزلنا بفندق الصحراء بحصن القديس جيرمان.

المطر

بمُجرد ما أخذنا مأوانا انفجرت عاصفة عنيفة مصحوبة بأمطار طوفانية فوق واحة بسكرة هذه حيث تمطر السماء ثلاث مرات كل عشر سنوات. أكد لنا ضباط الدائرة العسكرية بعد ذلك أنه منذ ٢١ ماي ١٨٧٦م لم تسقط ولو قطرة ماء: عمل وصولنا على تفجير كل مساقط مياه السماء! كاد سكان بسكرة يقفزون إلى أعناقنا بغية شكرنا. في الليلة السابقة كانت تهب رياح السموم الرهيبة بدرجة حرارة بلغت ٤٨ درجة، وهاهو المحرار ينزل اليوم إلى ٢٩ درجة. لقد جلبنا الحظ لبسكرة. استمرّت الأمطار طوال مدة إقامتنا، حتى أننا لم نتمكن لسبب ما من

(١) نسبة إلى مزاب مزابيون أو بني مزاب مجموعة عرقية تنتمي إلى قبائل زناتة الأمازيغية الذين يمثلون السكان الأصليين لشمال إفريقيا. ينحدر الميزابيون من بني مصعب من قبيلة زناتة، وكلمة -ميزاب- محرفة من كلمة -مصعب- وسبب تحريف مصعب إلى مزاب أن البربر والميزابيين خاصة يحرفون الصاد في العربية زاياً، فقالوا مصعب ثم مصاب ثم مزاب وميزاب. يتواجد المزابيون بشكل أخص في منطقة وادي مزاب (٦٠٠ كلم جنوب الجزائر) في أقصى شمال الصحراء الكبرى الإفريقية، ويعتنقون الدين الإسلامي على المذهب الإباضي. [المترجم].

التدوين في مذكراتنا بأن السماء كانت تمطر دائماً بالصحراء، مثل بعض الرحالين الذي رأى فتاة نزل صهباء فكتب أن كل نساء البلد صهباوات.

لقاء غير منتظر

غالبا ما تجعلك سجلات الفندق تلتقي صُدفة ببعض الأصدقاء الذين كنت تعتقد أنهم يبعدون عنك بآلاف الفراسخ. لم أتوقع أبداً، أن أجد، بهذا الفندق الضائع في أقصى الصحراء، الأكثر أصالة والأكثر تفاؤلاً من بين الباريسيين، باريسي، الذي خُدع في اليوم الذي وِلد فيه بفرنسا، كان عليه أن يولَد على ضفاف [نهر] التايمز(١)، أو أيضاً على ضفاف [نهر] الهودسون(٢) أو [نهر] بوطوناك(٣). عاد رفيق السّفر الجديد هذا مباشرة من الهند، ولكي يرتاح من هذه الرحلة، لم يجد أحسن من أن يقضي إقامة قصيرة ببسكرة. لقد جاب كل الهندوستان(٤) والهمالايا(٥)

(١) نهر التِيمز أو نهر التايمز أو تمْز (Thames) هو نهر يقع في جنوب إنجلترا في المملكة المتحدة يبلغ طوله ٣٤٦ كم. ينبع نهر التايمز من منطقة كيمبل في إنكلترة ويمر بمدن بريطانية عديدة مثل أكسفورد وريدنغ وسلاو ولوندرس قبل أن يصب في بحر الشمال إلى جهة الشرق من مدينة لوندرس. [المترجم].

(٢) **نهر هدسون** هو مجرى مائي يبلغ طوله ٣١٥ ميلاً (٥٠٧ كم) ويجرى النهر من الشمال إلى الجنوب، ويمر في شرق ولاية نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية.وينبع النهر من بحيرة هندرسن في نيوكومب، نيويورك. [المترجم]

(٣) نهر بشرق الولايات المتحدة الامريكية. [المترجم].

(٤) شبه القارة الهندية هو قسم كبير من القارة الآسيوية تضم البلدان الواقعة على الصفيحة التكتونية الهندية وهي بنغلاديش، بوتان، الهند، نيبال وباكستان. وتضم أيضاً الجزر المتمركزة على الجرف القاري وهي سريلانكا وجزر المالديف. [المترجم].

(٥) تمر الهيمالايا خلال ستة دول آسيوية هي الصين والهند ونيبال وباكستان وبوتان وأفغانستان. تتكون سلسلة جبال الهيمالايا من ثلاث سلاسل جبلية متوازية شكلت بسبب=

بكاب كوموران[1]، بما في ذلك جزيرة سيلان، في ٨٣ يوماً. تمكّن في مرة سابقة من إيجاد وسيلة يجوب فيها ٦٠٠٠ فرسخ في ستين يوماً بخصوص معرض فيلاديلفيا حيث تقابلنا دون أن أعرفه. ماذا يقال عن جولة في أمريكا الجنوبية، حيث قطع جواب الآفاق هذا ٣٦ ألف كلم في ١١٤ يوم، لقد دشّن لرحلة جديدة، جديرة به: من باريس إلى اليابان عبْر سيبيريا[2].

الزنجي مومي

بمُجرّد ما استعادت السماء صفاءها، قُمنا بجولة للتعرّف على المدينة، كان يرشدنا **مومي** وهو زنجي ذي لون فحمي، يتكلّم خليطاً من العربية والإيطالية والفرنسية؛ يتم التعبير في لغته عن ثلاث فرنكات بـ: «فرانكو، فرانكو، فرانكو».

=حركة الصفائح في العصور الجيولوجية القديمة. أصغر هذه السلاسل تعرف باسم شبه سلسة جبال الهيمالايا (تلال سيوالك في الهند) ويبلغ ارتفاعها ١٢٠٠م تقريباً. على موازاة هذه السلسلة تمتد سلسلة جبال الهيمالايا المنخفضة التي يتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ م. أما السلسلة الثالثة والتي يطلق عليها سلسلة جبال الهمالايا المرتفعة فهي الأعلى بين السلاسل الثلاث إذ يصل ارتفاعها إلى ما يفوق ٦٠٠٠ م وتقع شمال السلسلتين السابقتين وتحتوي على عدد هائل من أعلى القمم في العالم مثل قمة إفرست -أعلى قمة في العالم وقمة كي ٢ وقمة كانشينجانغا. [المترجم].

(١) يقع في أقصى جنوب الهند. [المترجم].

(٢) **سيبيريا** هي الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا. يمتد غرباً من جبال الأورال حتى المحيط الهادي شرقاً، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتى حدود كازاخستان ومنغوليا والصين جنوباً وتمثل ٧٧٪ من مساحة روسيا ولكن عدد سكانها يمثل ٢٧٪ من سكان روسيا. [المترجم].

يقع الحي الفرنسي الذي كنا مقيمين به على بُعْد ألْف متر من قرية الأهالي. والذي يتصور أنه مربع أضلاع كبير مظلل بأشجار استوائية ومحيطه محفوف، بشكل خاص، بمنازل بيضاء واطئة تنهيها سطوح على الطريقة المغربية. تشغل جهة من جهات مربّع الأضلاع بنايات قوسية الشكل خاصة بالدائرة العسكرية تمّ بناؤها بطلب من **الذوق دومال**[1]. رحّب بنا الضباط ذلك أننا خلال رُبع ساعة كنا رفاقاً: كان هؤلاء المنفيون المساكين يلمسون فينا أول الأجانب العابرين في السنة. في قاعة المطالعة لاحظت النبذة المكتوبة **للدوق برابون**[2] الذي زار بسكرة منذ عشرين سنة: حينها كان ذلك الأمير مهتماً بإفريقيا تلك التي تعهد بنبل بتحسينها منذ أن صار ملِكاً على البلجيكيين.

قادنا **مومي** بداية إلى السوق، حيث باع لنا الأهالي تمُوراً طرية، وقرون الظباء وسكاكين محلية ومراوح من حلفاء. خرجنا بعد ذلك من المدينة، لأن **مومي** كان يتحرّق شوقاً للذهاب إلى واد بسكرة: النهر الذي كان جافا البارحة، يجري الآن ممتلئاً، مسيلاً مياها صفراء وموحلة. العاصفة هي التي سببت في هذا التحوّل المفاجئ. كان مومي فرحاً: فقد كان هذا الماء الموحل كنزا نفيسا. عبرْنا القرية الزنجية التي كان علو منازلها بالكاد ما يبلغ مترين، وهي تذكرنا جيداً بأفران الآجر لدينا.

---

(١) هو هنري اورليان الدوق دومال **(Henri d'Orléans, duc d'Aumale)** (١٨٢٢-١٨٩٧) ابن الملك لويس فيليب هو عسكري ورجل سياسة فرنسي كان حاكما عاما بالجزائر. [المترجم].

(٢) هو الأمير **الدوق دو برابان** (Duc de Brabant) كان ولي عهد بلجيكا. [المترجم].

غيْر بعيد من هناك وجدنا بسكرة القديمة، بسكرة الأهالي، وهي قرية غريبة تقع في قلب الواحة: عبرْنا دروبا ملتوية محفوفة بحيطان متداعية، وبيوت خربة ذات تُربة جافة بالشمس ومظللة بنخيل يبلغ علوه ٤٠ متراً.

ها هو المسجد المبني من الطين، كما المنازل، والذي تشرف عليه صومعة من طين مربعة ترتفع في مستوى علو النخيل. يبلغ ارتفاعها ٤٠ متراً. صعدنا إليها رفقة **مومي** عبْر سُلم كلّه منكسر، ومن أعلى البناية المتمايلة، التي كانت تبدو أنها ستهدّ تحت ثقل أوزاننا أشرفنا على الغابة ذات ال١٤٠ ألف نخلة، يرتسم ما وراءها الخط المزرَق للصحراء المشابه لبحر بلا مياه. تحت أرجلنا كانت سطوح منازل، حيث يقضي الأهالي حياتهم، يطبخون ويتعشون وينامون في الرطوبة خلال الصيف: لاحظْنا على كل سطح قربة من جلد الماعز معلّقة على أتفية: إنها خزان الماء.

تتكون بسكرة القديمة من عدة قرى متناثرة داخل الواحة. عبرْنا ثلاثة منها: دائماً نفس الحيطان الطينية ونفس المنازل بلا طوابق بلا نوافذ ذات لون قهوة بالقشدة؛ لكن في كل مكان هناك تنوّع لا ينضب من البدلات الصفراء والحمراء والزرقاء والبيضاء. تعبُر هذه القرى جداول: مياهها متّسخة بسبب العاصفة صار لها نفس لون المنازل: السكان لا يستعملونها على الأقل في طبخهم ووضوئهم.والذي صدمنا بشكل محزن هو العدد الهائل للعميان والمعورين: لا يوجد فردان من الأهالي من ثلاثة ينعمان بأعينهما معا: لكنهم لا يتخذون أي احتياطات ضد

وهج الشمس. يعود البسكريون، حسب **البكري**[1]، إلى عرق مختلط، نصف دمه عربي ونصفه الآخر بربري[2].

النخيل

النخلة المثمرة هي معين أولئك السكان. والتمر هو أساس غذائهم: حين يتم جني هذه الفاكهة اللذيذة للتو، تنمو على الشجرة أغداف بلح رائعة يصل وزنها إلى ١٠كلغ؛ تنتج كل نخلة، في أشد قوتها، من ثمانية إلى عشرة أغداف في السنة[3]. ليس للنخلة سوى تمرها، ويمكن أن نقول لا توجد شجرة سخية تجاه الإنسان مثلها: يستعمل نسفها في صناعة نبيذ يتذوقه كل مسافر إلى بسكرة بمجرد وصوله؛ تتحول الأوراق بأيدي الأهالي إلى حصر وأعمال أخرى؛ تشكل الأغصان سقوفاً ممتازة للمنازل؛ وتستعمل الجذوع بمثابة عوارض وهياكل.

حديقة أرميد

كانت لسيد كبير يمتلك ممتلكات في كل أنحاء العالم نزوة في خلق بستان من هكتارين وسط غابة النخيل: زرنا هذا المكان المبهج من

---

(١) **أبو عبيد البكري** هو عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، جغرافي وموسوعي وأديب ونباتي أندلسي. ولد في ولبة قرب اشبيلية حوالي عام ١٠٣٠م وتوفي في قرطبة عام ١٠٩٤م اشتهر في القرن الحادي عشر الميلادي، **وهو أول الجغرافيين المسلمين في الأندلس**. [المترجم].

(٢) يقول: «سكانها المولدون، وحولها من قبائل البربر: سدراتة وبنو مغراوة: أهل بيت بني خرز، وبنو يزمرتي». أبو عبيد البكري، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق جمال طلبة، منشورات محمد علي بيضون/ دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص.٢٣٠. [المترجم].

(٣) **Mémoire sur la culture du palmier,** par M. Hardy, cité par L. Piesse.

الواحة. حيث تنمو كل عجائب النبات الاستوائي وكل أنواع النخيل. هناك أشجار الاتانيي وجوز الهند واللوز والتين والخيزران وقصب السكر والبن والبرتقال والأوكاليبتوس: لم أر شيئاً ساحراً مثل هذا، حتى في جزر فورتيني[1] في بلاد هيسبيريد[2]. من أجل رؤية إسراف في النبات يمكن أن ينافس هذه ينبغي الذهاب إلى البرازيل أو إلى سيلان[3]. لا ينبغي أن ننسى أن هذا البستان المورق لأرميد تم إنشاؤه في صحراء، وأن أشغال الري كلفت ٢٠ ألف فرنك.

---

(١) هي مكان ميتولوجي يقع في أقصى حدود العالم هي جزر الجحيم في الميتولوجيا الإغريقية تقع شمال غرب افريقيا بالمحيط الاطلسي. [المترجم].

(٢) هيسبيريديس أو يوسبريدس وتعني حدائق التفاح الذهبي مدينة إغريقية قديمة أُنشئت على الساحل الشرقي من ليبيا في إقليم سيرين في الفترة من ٥٢٥ ق.م إلى ٥١٥ ق.م وهي مدينة بنغازي الحالية وتوجد أنقاضها في منطقة الزريريعية العلوة ومقبرة سيدي اعبيد بالزريريعية بالصابري أنشأ مدينة هيسبيريدس جماعة أو مستوطنين من الإغريق ربما كانوا قادمين من قوريني أو برقة قاموا بتأسيس المدينة وأطلقوا عليها اسم يوسبيريديس والتي تعني حدائق التفاح الذهبي في الفترة من ٥٢٥ ق.م إلى ٥١٥ ق.م ولهذا الاسم مدلول عند الإغريق ربما يعنى أقصى الغرب وكما إن له ارتباطا بمعالم الأساطير اليونانية خصوصاً أسطورة هيسبيريديس وحسب الأسطورة فقد أهدتها الأرض إلى الآلهة هيرا بمناسبة زواجها من كبير الآلهة زيوس، أما اسم هيسبيريدس في الميثولوجيا اليونانية يخص الحوريات اللائي لجئن إلى حديقة غناء في العالم المحظوظ في ليبيا القديمة. [المترجم].

(٣) هي سريلانكا أو سري لانكا والتي كانت تسمى بين ١٩٤٨ و١٩٧٢ باسم سيلان، تقع في شمال المحيط الهندي جنوب شبه القارة الهندية، في جنوب آسيا. لسريلانكا حدود بحرية، شمالاً، مع الهند، التي تبعد عنها حوالي ٣١ كيلومتر أو مع جزر المالديف، في جنوبها الشرقي. سريلانكا دولة ذات إرث حضاري عريق، يمتد عبر ثلاثة آلاف سنة. كان العرب يسمونها سرنديب، سماها البرتغاليون في ١٥٠٥ باسم سيلاو (Ceilao)، وهو الاسم الذي حوله البريطانيون إلى سيلان Ceylon. خلال وضعها كمستعمرة ملكية بريطانية، سميت الجزيرة سيلان البريطانية، وبعد استقلالها باسم دومينيون سيلان بين ١٩٤٨ و١٩٧٢. [المترجم].

مناخ بسكرة ملائم للغاية لنمو نبتات خاصة بالمنطقة الشديدة الحرارة. بسكرة هي المحطة الأكثر حرارة من بين كل محطات الرصد الجوية بالجزائر: في سنة ١٨٧٩م كان معدل درجة الحرارة بها ٢١ ـ ٨ بينما لم يكن سوى ٨ ـ ١٨ بالأغواط[١]، وهي محطة أخرى توجد بالصحراء[٢]. يعدّ السيد **كوبلي دالفييلا** ماديرا[٣] وبسكرة كمركزين لنصف كرتنا الأرضية حيث تتغير درجة الحرارة بقليل من النهار إلى الليل؛ لكنه لاحظ أن جزيرة ماديرا تتوفر بالإضافة إلى ذلك على الامتياز النادر بأن يكون لها تقريباً نفس درجة الحرارة صيفا وشتاء؛ بينما في بسكرة الحرارة، التي يمكن احتمالها من نونبر إلى أبريل، تبلغ في شهور الصيف ٤٠ درجة في النهار ومن ٣٠ إلى ٣٥ في الليل.

«حينها تزول الشهية، ويتم فقدان النوم وإذا ما هبّت ريح السموم لمدة معينة، يرتفع عدد الوفيات بنِسب مخيفة. الأوروبيون سيئو الحظ، المنبوذون تحت سماء الجحيم هذه، يفضي بهم الحال إلى الرغبة حتى في وسط الصحراء حيث على الأقل البرودة النسبية لليل تعوض السورة القصوى لحرارة النهار»[٤].

---

(١) الأغواط هي إحدى المدن الجزائرية. تشتهر بالنخيل وببساتينها الضاربة في جذور التاريخ، وأول نشأتها كانت على هضبات عرفت بتزقرارين، أما بساتينها وأراضيها الفلاحية فبعضها يقع شمال تلك الهضاب، ويسمى الآن بالواحات الشمالية وبعضها الآخر يقع جنوبها ويسمى الواحات الجنوبية ويمتد خارج الواحاتين سهلان كانا يستغلان في زراعة الحبوب مسمى الأول الضاية القبليه (الجنوبية) ويسمى الثاني الضاية الغربية. [المترجم].

(٢) D'aprés les tableaux insérés dans l'Etat general de l'Algerie.

(٣) جزر ماديرا مجموعة من الجزر في المحيط الأطلسي شمال غربي أفريقيا تقع تحت ٤٠٠ كلم شمال تنريفي، وهي تابعة للبرتغال، وعاصمة الجزر فونشال. [المترجم].

(٤) Sahara et Laponie, **un mois au sud de l'atlas, un voyage au cap Nord**, Plon, 1873.

لعب البارود

بعودتنا إلى الحي الفرنسي، أُتيحت لنا فرصة مواتية لمشاهدة لعب البارود كان يتعاطى له المزابيون[1] بمناسبة نهاية رمضان. كانت النظرة الخاطفة ذات روعة لا توصف. أقيمت الحفلة على سهل كبير قُرب المدينة. كلّم المزابيون البارود خلال ساعة كاملة مشكلين مربّعاً كانوا يندفعون نحو بعضهم البعض مفرغين بشكل جماعي ركضاً بنادقهم المغربية الضخمة. كانوا يطلقون البارود نحو الأرض، قافزين مثل نمور في اللحظة التي كانت تنفجر فيها البنادق: ثم كانوا يتظاهرون بالهرب، رامين بنادقهم في الهواء ويمسكونها أثناء العدو بمهارة عجيبة. النساء اللواتي كن يتابعن لعِب البارود هذا كن تشجعن الرماة بزغاريد حادة. أصيب طفل بجرح خطير من قِبَل زنجي أفرغ باروده على ساقيه: تمّ نقله وهو غارق في الدماء. تشكّل هذه الحوادث جزءاً من برنامج الاحتفال. عُدنا إلى بسكرة أصمين وثملين برائحة البارود.

العقارب

بمُجرد وصولنا إلى بسكرة، كانت لرفيقي عالم الحشرات، رغبة حادة في الحصول على عقارب حية. تتردد هذه الحشرات القبيحة، ذات

(١) نسبة إلى مزاب مزابيون أو بني مزاب مجموعة عرقية تنتمي إلى قبائل زناتة الأمازيغية الذين يمثلون السكان الأصليين لشمال إفريقيا. ينحدر الميزابيون من بني مصعب من قبيلة زناتة، وكلمة -ميزاب- محرفة من كلمة ـ مصعب ـ وسبب تحريف مصعب إلى مزاب أن البربر والميزابيين خاصة يحرفون الصاد في العربية زاياً، فقالوا مصعب ثم مصاب ثم مزاب وميزاب. يتواجد المزابيون بشكل أخص في منطقة وادي مزاب (٦٠٠ كلم جنوب الجزائر) في أقصى شمال الصحراء الإفريقية الكبرى، ويعتنقون الدين الإسلامي على المذهب الإباضي. [المترجم].

اللدغة المميتة، على البيوت القذرة الحارة والرطبة. وتوجد بكثرة في وقت هبوب ريح السموم: تُرى حينها تخرج من الحيطان حيث تتلبّد، وتتجه نحو الأماكن الرطبة؛ وبما أن لها عادة التجول ليلاً، فالنوم في الهواء الطلق غير آمن. في زمن الجفاف الكبير تكون الأرض مشقوقة بتشققات، وفي هذه التشققات تجد العقارب مأواها: بمجرد التساقطات الأولى تهرب من معتكفاتها وتهيم بأعداد لا تحصى.

الأخت هيلين

كانت توجد ببسكرة عجوز طيبة، معروفة باسم **الأخت هيلين**: كانت تكسب معاشها بتربية بعض الحمام وبعض العقارب. قادنا مالك فندق الصحراء اللطيف إلى بيتها، وسألها عن ثمن عقاربها؛ وشرعت حينها في الحكي أنه في السنة الماضية كانت لها عقرب جد غريبة عرض عليها الكونت فلان ٢٠٠ فرنك. اعترض جوّاب الآفاق أننا لم نكن شخصيات سامية. تصرف **مومي** القلق، بلا روية وعرض عليها فرنكاً. فصرخت الأخت هيلين ساخطة. عرض عليها حينها **مومي** فرنكاً ونصف. وانصرف كل واحد راضياً. ومهْما يكن من أمر! فإنه [مومي] من طينة **الأخت هيلين**.

بُعيد ذلك عرفت بسكرة كلها الهوس الغريب لعالم الحشرات: فلم تتم الإشارة إليه سوى باسم صاحب العقارب. هذه الحشرات المخيفة، من الصعب الحصول عليها منذ الوهلة الأولى، أخذت تتدفق في نهاية المطاف على الفندق: كان يلاحق رفيقي عربٌ وزنوج في الطريق ليقدموا له عقارب. كان يضعها كلها في قارورة، مقترحا عرضها بمتحف التاريخ الطبيعي لمدينته[١]. في يوم ما انقلب سهواً في غرفتي الأثاث

(١) عقربان، ذكر وأنثى وصلا حيين.

الذي وضعت عليه القارورات المهمة، وهكذا خرجت كل العقارب من القارورات المنكسرة وهربت تحت سريري. أعترِف أنه في الليلة الموالية كنت مسكوناً بروح أكبر عقرب لم نتمكن من إيجادها.

النايلات

لا يمكن أن نغادر بسكرة دون مشاهدة النايلات يرقصن؛ ، إنهن «العالمات» أو راقصات الصحراء الهنديات. تنتمين إلى قبيلة أولاد نايل[1]، المقيمة في هذا الجزء من الصحراء الممتد من الأغواط إلى بوسعادة[2]. تقيم هؤلاء النسوة، اللواتي لهن فكرة أخرى عن الفضيلة

---

(١) أولاد نايل هم أكبر قبيلة في الجزائر تنحدر من أصول عربية حيث تنسب هذه القبيلة إلى محمد بن عبد الله سيدي نائل جده الأعلى إدريس الأصغر بن الأمير إدريس بن عبد الله الكامل مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب هو عبد الله الكامل بن الحسن المتن بن الحسن السبط من ذرية الإمام علي وفاطمة الزهراء بنت محمد. قبيلة أولاد نائل هي قبيلة كبيرة العدد تتشكل من عدة أفخاذ ينتشرون في كامل أرجاء وسط الجزائر ويتمركزون على الخصوص في ولاية الجلفة سجل أولاد نائل أسماءهم في شتى مراحل تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر حيث لا تخلو من إسهامهم سواء في الثورة التحريرية أو خلال المقاومة مع الأمير عبد القادر كانت قبائل أولاد نائل تتمتع بثراء واسع وعدد هائل، وتتميز بتمرس أبنائها على الفروسية، ولذا كانت محل تنافس بين الثوار الذين كانوا يظهرون بين الفينة والأخرى، والفرنسيين والأمير الذي كان على ما يبدو يدخرهم كقوة احتياطية إلى ما بعد المعاهدة. وندرك اعتناء الأمير عبد القادر بهم وحرصه على استمالتهم من خلال وصفه لخيولهم بأنها من أحسن الخيول. ففي كتاب (خيول الصحراء) للجنرال «أوجان دوما» وردا على سؤال أجود الخيول، أجابه الأمير: خيول أولاد نائل، وأضاف: (لأنهم لا يتخذونها لشيء غير القتال إضافة إلى حضورها التاريخي. [المترجم].

(٢) بوسعادة مدينة جزائرية تقع على بعد ٢٤٢ كلم جنوب العاصمة الجزائرية من مسمياتها مدينة السعادة وكذا مدينة العظماء وبوابة الصحراء نظرا لكونها أقرب واحة إلى الساحل الجزائري. [المترجم].

تختلف تماماً عن تلك التي عندنا، ببسكرة حتى يجمعن ما يكفي من السكينات[1] ليجعلن منها حلياً يضعنها على جباههن: حينها يعدن إلى قبيلتهن، وسواء كن قبيحات أو جميلات، يجدن أزواجاً.

لا يوجد شيء أكثر غرابة من بدلات تلك النايلات: حين التقيناهن لأول مرة في دروب بسكرة انتابنا اندهاش يعجز اللسان عن وصفه: لا يوجد لا بالهند ولا اليابان ولا الصين شيء مماثل لذلك في اعتقادي. للرأس خصوصاً تأثير بشع قطعاً. شعر أسود رائع باهت الشكل إلى حد كبير، في كل جهة من الوجه عقصة ضخمة تجعل الرأس عريضاً وضخماً، قنات الرؤوس مغطاة بقطع من الحرير بألوان حادة، ومعجر يتوج كل هذه العظمة. تكمل عدة فساتين، جد واسعة مشدودة بأحزمة ومغطاة بحياك من السب، هذا اللباس المضحك الغريب؛ الأذرع والسيقان والآذان مزينة بكثير من الحلي الفضية التي كان طنينها المخشخش يعلن من بعيد عن وصول أولئك النايلات. أعناقهن محاطة بالعديد من القلادات اللؤلئية من المرجان والفضة والجباه محجوبة تحت صفوف عديدة من السكينات؛ كانت الوجوه والأيدي موشومة بغرابة برسوم حناء. هذا الصنف لا يذكّر بشيء بالمغربيات. يبدو أن أولاد نايل يعودون إلى عرق آخر. أغلب تلك النساء قبيحات تماماً، ولم نر صراحة فيهن أي جميلات حقيقيات.

المقاهي المغربية

تتعاطى النايلات، في كل مساء، للاحتفال بالمقاهي المغربية. مقاهي بسكرة هي بكل بساطة عبارة عن غرفة طويلة وجدّ ضيقة وذات حيطان

---

(١) نقد ذهبي ايطالي قديم. [المترجم].

مطلية بالجير، وبأسقف من القصب مشدودة بعارضات من النخيل لا تسمح ليونتها ببناء شقق عريضة. للغرفة مدخلان، تفتح في كل طرف على طريقين متوازيين، لأن أزقة بسكرة كلها مستقيمة بشكل منظم وواضح.على طول الجدران تسود مقاعد مبنية: مغطاة تارة بزرابي فاخرة منطوية على نفسها، وتارة حصر من لوف النخيل؛ يقرفص الزبناء على الطريقة المغربية وتُقدم القهوة في أطباق نحاسية مصنوعة ويضعها القهوجي على مقعد خشبي. يسود في هذه المؤسسات جو حمّام تعريق مغربي مُشبع بالرائحة المتميزة للقنب الهندي. ويمكن أن نعاين فيها كل الأنواع المختلفة للسكان من العرق الأبيض أو الأسود المتناثرين في الصحراء.كنا نذهب غالباً إلى هناك لنشرب قهوتنا وسط صراخ وزعيق الأهالي الثملين بنبيذ النخيل، وبأصوات موسيقى زنجية غريبة مكونة من طبول كبيرة تطن تحت وقع الضربات السريعة والمكرورة، في تأن مع الناي الذي كان يلعب لحناً ساذجاً مكوّناً من خمس نوطات.

إذا لم أتحدث عن رقص النايلات فذلك بسبب كونه غير محتشم تماماً: وسيكون وصفه تقليلاً للحياء على القارئ. لا يمكن أن نعذر عاثرات الحظ هؤلاء سوى بسبب جهلهن المطلق بقواعد الآداب الأساسية.

القايد بن كنة

بسكرة هي العاصمة السياسية للزيبان[1]؛ و[مدينة] سيدي عقبة هي عاصمته الدينية: تقع هذه المدينة على بُعد خمسة فراسخ إلى الأمام في

(١) منطقة الزاب: منطقة بولاية بسكرة الجزائرية أقام بها لفترة الشاعر الكبير ابن هانئ الأندلسي. قاعدتها مدينة بسكرة. [المترجم].

الصحراء. الشيخ سيدي **عقبةسيدي بن حاج**، هو ابن القائد المشهور **محمد سرير الحاج بن قانة**، قائد جوقة الشرف. وبما أنه لا يمكن للمسيحيين الدخول إلى المدينة المقدسة دون موافقة الشيخ، ذهبنا لتقديم احتراماتنا **للقايد بن قانة**، من أجل أن نلتمس منه أن يوصي ابنه. استقبلنا بصالون مؤثث على الطريقة الأوربية، وقدّم لنا نبيذاً في كؤوس متسخة. وماء غير مصفى كان أصفر تماماً. على الرغم من أن القايد لم يكن يجيد التكلم بالفرنسية، فإنه كان يفهم كلامنا. حين ذكّرناه بأنه تعشّى مع ملك بلجيكا في معرض باريس، صرخ بنوع من الرضا: «إنه أنا! إنه أنا!» كانت زيارتنا قصيرة: لأننا في الواقع كنا سننطلق خلال ساعة إلى قسنطينة: أكّد لنا بأنه أعطى أوامر لاستقبالنا بسيدي عقبة.

عبر الصحراء

في اليوم الموالي انطلقنا في السابعة صباحاً على متن عربة. عبرنا المجرى المليء بالأحجار والجاف لواد بسكرة والذي يمكن أن يبلغ عرضه ٤٠٠ متر: كُنا نوشك أن ننقلب ٢٠ مرة خلال هذا العبور، وكانت الرجات جد مفاجئة، فكان ينبغي علينا التمسك بقوة بحواف العربة حتى لا نُرمى خارجها. على بُعد مسافة من هناك اجتزنا تدفقاً صغيراً للواد كان هو أيضاً جافاً تماماً: لكن كان هناك جسر هذه المرة، لكنه جد خطير، لذلك فضّل سائقنا المرور بجانبه، كما يتم في السيشيل[(١)].

خلال ساعتين كنا نطير بعجلة عبر الصحراء، مهتزّين بآلاف الرجات

(١) يتألف أرخبيل «سيشل» من نحو ١١٥ جزيرة في المحيط الهندي تبعد نحو ١٦٠٠ كيلو متر عن ساحل إفريقيا الشرقي، إلى الشمال الشرقي من مدغشقر، [المترجم].

التي كانت تحدثها أرض غير مستوية وبدون طريق معبدة. لم يكسّر رتابة محيط الرمال سوى خيط لأخضر قاتم يحدد موقع واحة سيدي عقبة، لم يكن البلد منبسطاً تماماً، وإنما كانت تظهر عليه عشرات الآلاف من التلال الصغيرة يبلغ علوها قدما، كانت تحمل لفائف هزيلة من التمر الهندي: كانت تلك التلال تختفي في الغالب تحت طبقات الرمال التي كان يحملها الريح السموم. كانت درجة الحرارة في تلك الساعة الصباحية معتدلة ورائعة: ٢٧ درجة يوم ٢٤ شتنبر.

سيدي عقبة

دخلْنا إلى سيدي عقبة في التاسعة صباحاً. أتى شخص من الأهالي، بعثه الشيخ، للقائنا وقادنا عبْر المدينة التي تمنح نمطاً حقيقياً للمدينة الصحراوية: دروب من طين، أسوار من طين، بيوت من طين؛ وراء الأسوار نخيل؛ ووراء النخيل السماء الزرقاء والصحراء الصفراء. الأبواب الأربعة من خشب النخيل. كان الماء المتسخ بسبب الأمطار الأخيرة يجري بغزارة عبر المجاري: حكى لنا الرجل الذي كان يقودنا أن بعض المجاري، التي كانت جافة منذ سنوات، استأنفت تزويد الماء منذ أمس. كان السكان بؤساء بشكل بشع، ولم نلتق سوى بالمصابين بالجذام والعميان والمصابين بالقرع.

ذهبنا إلى المسجد الذي يبدو أنه أقدم معلمة أثرية إسلامية بالجزائر؛ إنه بناية مثيرة جداً، بطابعها الساذج والبدائي: هو كله مبني بالطين، وتشرف عليه مئذنة مربعة كانت تتقلص في الأعلى. أرونا داخل المسجد قبر **سيدي عقبة**، الذي كان محجّاً بالنسبة للمسلمين. كان **سيدي عقبة** أميراً عاش في سنة ٦٢هـ (٦٨١م) قُتل في معركة شنّها عليه أعداؤه الذين فاجؤوه بغتة. يرقُد جسده في قبة يمين المحراب، تحت صندوق مغطى

بالحرير. توجد على واحد من أعمدة القبة كتابة بالخط الكوفي تعود إلى القرن الأول للهجرة، حسب السيد **بييس** (PIESSE)[١] الذي نقلها سنة ١٨٤٧م[٢].

أنهينا زيارتنا للمسجد بالصعود إلى مئذنته عبْر سلّم مظلم. أشرفنا من هناك على سطوح المنازل الطينية، وعلى آلاف أشجار نخيل الواحة والصحراء الشاسعة؛ رأينا نحو الشمال الغربي، على بُعد ٢٠ كلم، البقعة السوداء الدالة على موقع واحة بسكرة. كانت طبقة مائية كبرى تبدو أنها تتلألأ في الأفق: إنها واحدة من بقع السراب تلك المخادعة الكثيرة في هذه المناطق.

تغذينا لدى الشيخ، في البيت المطلي بالجير، والمؤثث على الطريقة الأوربية، قدّم لنا البيض ولحم الغنم، ثم بعد ذلك الكسكس التقليدي المبلل بمرق جد مفلفل والذي قارنه جوّاب الآفاق بالبهار الهندي. لم يكن ينقص هذه الوجبة المقدمة على الطريقة الأوربية، ولا حتى ماء سان فالنيي.

في مُنتصف النهار ودّعنا شيخنا المحبوب لنعود إلى بسكرة. خلّف لنا عبور الصحراء تحت شمس في أوجها ذكريات مؤلمة. من حسن حظنا كنا نتوفر على قبعات هندية ومظلات كانت تسمح لنا بالتصدي لأشعة الشمس.

تنطلق كل يوم تقريباً قافلة من بسكرة إلى تقرت وهي منطقة تقع بواد

---

(١) هو لويس بييس (L. Piesse) له **كتاب الجزائر وتونس**، صدر سنة ١٨٨٧م.

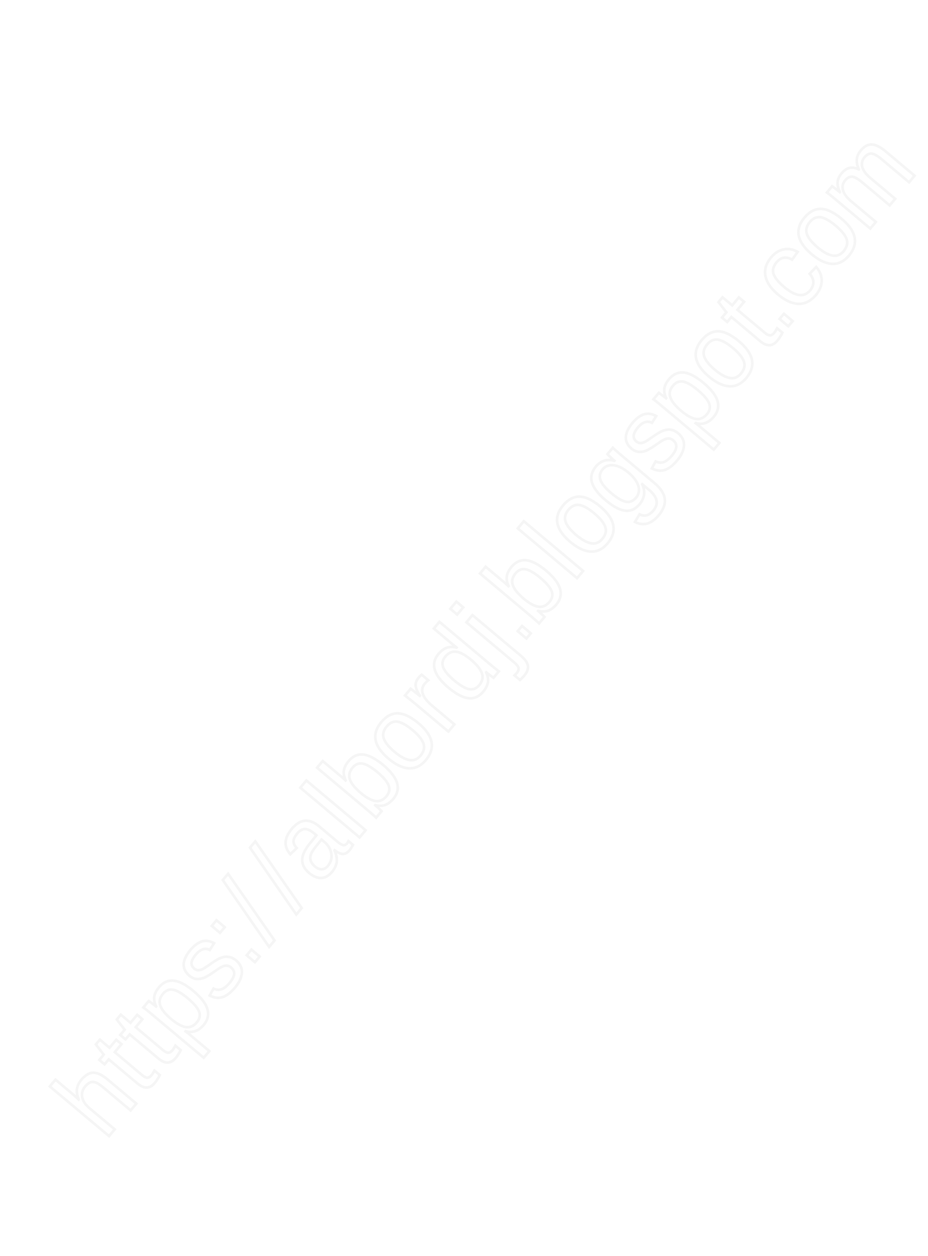
(٢) تقرأ الكتابة هكذا «هذا قبر عقبة بن نافع رحمه الله».

قير[1] في قلب الصحراء. وتتطلب هذه الرحلة أربعة أيام من السير في الصحراء. كنا خططنا لرحلة عبْر الجِمال حتى ذلك المكان؛ لكن نودي علي فجأة إلى قسنطينة بسبب الحمى الإفريقية التي أصابتني. ما أن مكنتني رعاية الطبيب من الوقوف مُجدداً على رجلي حتى استعجلت عبور البحر الأبيض المتوسط لإنهاء علاجي تحت سماء مولدي.

مراكش وفاس وتقّرت أنفلتن مني ثلاث مرات، إنه أمر مكتوب، على حد قول مسلم.

(١) يوجد في جنوب غرب الجزائر يبلغ طول مجراه حوالي ٥٥٠ كلم حيث يلتقي هذا الأخير بوادي الساورة بمنطقة ايقلي. [المترجم].

الفهرس



يُعد هذا الكتاب وثيقة غنية بالمعلومات التاريخية والثقافية، تسلّط الضوء على الكثير من الظواهر الثقافية، سواء في المغرب أو الجزائر، تخص العادات والتقاليد وتشمل الأطعمة والألبسة والاحتفالات والعدالة وغيرها من الظواهر التي لفتت انتباه الرحالة وأثارت دهشته.


ISBN 978-9933351892

